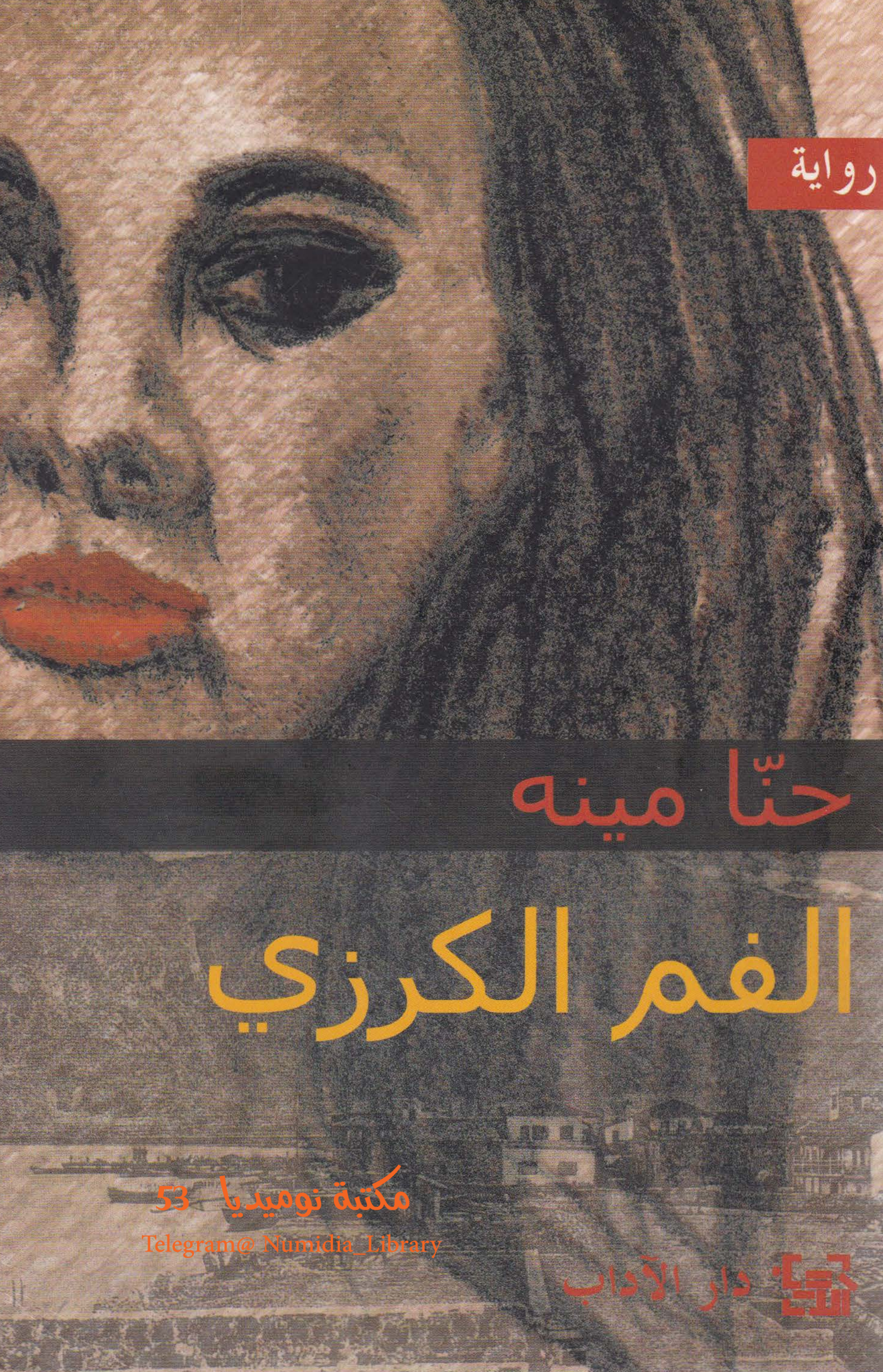


رواية

حنّا مينه

الفم الكرزي

دار الآداب

حنا مينة

الفمّ الكرزي

رواية

دار الآداب - بيروت

الفم الكرزي

حنا مينة/روائيّ سوريّ

الطبعة الأولى عام 1999
الطبعة الثانية عام 2004

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

الإهداء

إلى العزيزة زيبور أستور،

سيدة القصر المسحور

إلى العزيز واكيم أستور،

الذي به كبرت

كي يكبر بي، هو أيضاً!

إيضـاح

تتناول رواية «الفم الكرزي» مرحلة خاصة، في منطقة خاصة، هي منطقة كسب، المصيف السوري الشهير، الذي عشت فيه فترات من حياتي، بين بداية الحرب العالمية الثانية، وجلاء الاحتلال الفرنسي عن سورية، هذا الجلاء الذي تحقق بعد نضال عنيد، وثورات متتابعة، توجتها الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥، التي اشترك فيها وطنيون مجاهدون من كل أنحاء سورية، ومن كل الأحزاب الوطنية، على اختلاف عقائدها وإيديولوجياتها، إلى أن كانت انتفاضة عام ١٩٤٥، وقصف دمشق، ومعركة البرلمان، التي تتوجت بخروج القوات الفرنسية والإنكليزية من سورية، ثم من لبنان.

وإذا كانت هذه الرواية تتناول نضال الأرمن، رجالاً ونساءً، في منطقة محددة، فإن هذا النضال كان جزءاً من كل، هو الحزب الماركسي العربي وقيادته في دمشق وبيروت، وكان المناضلون الأرمن في منطقة كسب، يربطون ربطاً وثيقاً، بين كفاحهم من أجل إخراج الاحتلال الفرنسي من سورية ولبنان، وكفاحهم من أجل أرمينيا دولة مستقلة، هذا الذي تحقق الآن، إضافة إلى أن

المناضلين الأرمن في كسب، كانوا يتلقون توجيهات وتعليمات قيادة حزبهم الماركسي العربي، في كل من سورية ولبنان، وينفذونها بدقة وأمانة وسرية ومرونة وتنظيم رفيع المستوى، اشتهر به الأخوة الأرمن بشكل خاص ومتميز دائماً.

ومن المعروف أن المناضلين الأرمن في منطقة كسب، كانوا يقدمون العون والمساعدة لمن يلجأ إلى هذه المنطقة من المناضلين السوريين، ومن قادة الثورات السورية المتتابعة، ويخفونهم في بيوتهم، أو في الغابات الكثيفة في الجبال المحيطة بمنطقتهم. وهكذا دخل الرفاق الأرمن في النسيج النضالي العربي ضد الاحتلال الفرنسي؛ فالرفيق هايكاز هايكازيان، كان أحد قادة الإضراب الخمسيني ضد فرنسا في العاصمة دمشق؛ والرفيق المحامي بيير شدرافيان، الذي استشهد في ما بعد، كان يدافع عن الوطنيين السوريين أمام المحاكم الفرنسية المختلطة في حلب والمدن السورية الأخرى؛ والرفيق آرتين مادونيان، كان من قادة الحزب البارزين، الذين ناضلوا بأجسادهم وأقلامهم في سبيل «وطن حر وشعب سعيد» وقد اعتقل وسجن من قِبل السلطات الفرنسية، وإليه يعود الفضل، على مدى نصف قرن ونيف، في إشراك الجماهير الأرمنية، في لبنان وسورية، في النضال العام ضد فرنسا، ومن أجل تحرير فلسطين، وصياغة شعار «التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي» الذي غدا شعار كل التقدميين في الوطن العربي.

وكان جواد، بطل هذه الرواية، منتدباً من منظمة الحزب في

اللاذقية، للعمل في منظمة كسب ومنطقتها، وقد قاد نضال هذه المنظمة في ظروف صعبة جداً، وفي ظرف حكم الجنرال دانتز لسورية خصوصاً، بعد احتلال ألمانيا لفرنسا وإقامة «حكومة فيشي» الصنيعة للنازية. ورغم تعدد الأسماء الحركية لجواد، فإنه كان عربياً من اللاذقية، وبعد تحقيق جلاء فرنسا عن سورية، والاحتفال الكبير به في كسب، يعلن، في ختام الرواية، قراره بالعودة إلى اللاذقية، لأن حبيبته بيرانيك، بطلة الرواية، آثرت السفر إلى أرمينيا على حبها لجواد الذي أذهله قرارها.

وبطلب مني، كتب الحقوقي الأرمني واكيم استور، من تقدّميّي اللاذقية، نبذة تاريخية عن الأرمن، جعلتُها مقدمة لهذه الرواية، لأن عائلته التي نجت من المذبحة على يد الأتراك الطورانيين، ولجأت إلى سورية، تكنُّ عرفاناً، كسائر العائلات الأرمنية، لسورية التي استقبلت اللاجئين الأرمن إليها، وحمتهم، واستضافتهم، وأكرمتهم، قبل أن يستوطنوا المدن السورية واللبنانية، في العقد الثاني من هذا القرن. وهذا العرفان بالجميل، يرتقي إلى مرتبة التقدير والامتنان البالغين، ويتجلّى في كفاح الأرمن والعرب، جنباً إلى جنب، ضد الاحتلال الفرنسي البغيض، وإدراك هؤلاء الرفاق الأرمن، أن حبهم لسورية ولبنان، والوطن العربي كله، مقترن بحبهم لأرمينيا، اقتران العروة الوثقى التي لا انفصام لها.

إن هذا الايضاح قد يكون نافلاً، لولا مساءلة مفترضة، عن سبب قيام روائي عربي سوري، بكتابة رواية مهادها منطقة كسب،

وأبطالها أرمن، كانوا جزءاً لا يتجزأ من الحركة الوطنية العربية التحررية، ولا يزالون، وفي هذه اللحمة بين عرب وأرمن سورية ولبنان، ولحمة المواطنة بين مسلمي مصر وأقباطها، رد بليغ، بالوقائع الموثقة روائياً، على أعداء العرب، وفي المقدمة أميركا وإسرائيل، اللتين تحاولان، من خلال الأضاليل والافتراءات، إثارة موضوع الأقليات في الوطن العربي، فتأتي الحقائق التاريخية لتفضح أضاليلهما، وتذروها في الرياح الأربع.

نعم! هذه رواية عن كفاح الأرمن، لكنها، في المحتوى والهدف، رواية عن كفاح العرب ضد أعدائهم، على امتداد الوطن العربي الكبير كله.

ح.م

مقدمة

هذه رواية عن الأرمن، وعن أرمن بلدة محددة بالذات هي بلدة كسب، منتجع الاصطياف الواقع إلى الشمال من اللاذقية، على خط الحدود مع تركيا. من المحتمل أن يكون البعض قد سمع بها، ومن المحتمل أن يكون البعض الآخر لم يسمع بها، خصوصاً أولئك الذين لا يصطافون فيها أو الذين لا يعرفون الكثير عن سورية، وحتى الذين يعرفونها أو سمعوا بها، والذين ألفوها صيفاً بعد صيف، أصبحت بالنسبة لهم مصيف كسب فقط، وإن كانوا في قراراتهم يعرفون أن كل سكانها من الأرمن، لكن هذا بالنسبة إليهم صار من «تحصيل الحاصل» كما يقال، ولا يحتاج أن يذكر كلما ذكرت كسب، فالأرمن هنا جزءٌ من شعب المنطقة، وهم أيضاً من «تحصيل الحاصل» ذاك، ولا يحتاج إلى ذكرٍ خصوصيٍ أو تنويه مستقل. وهذا وجه إيجابي للمسألة باعتبار أنك لا تحتاج، كلما ذكرت مدينة من مدننا، أن تقول إن سكانها من السوريين «العريقين» الذين تمتد جذورهم عميقاً في أرض المنطقة.

أقول «عريقين» بقصد، لأن الذي لا يزال غير إيجابي هو أن معرفتنا بالأرمن، الذين يسكنون بيننا وإلى جوارنا ونتعامل معهم

صباح مساء، لا تزال سطحية وناقصة، على مستوى عموم الشعب العادي، الذي إن سألته أجابك بأن الأرمن شعبٌ هاجر إلى البلاد إبان الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٥، وهو شعب نشيط وجاد ومستقيم في معاملاته، وقد يضيف أنه يحبه ويحترمه ويفضل التعامل معه على غيره، خصوصاً في مجال الحرف اليدوية والصناعية، لكنك تشعر وكأنه يتحدث عن شعب جاء البلد «بعده»، «كغريب» ينشد الأمان ولقمة العيش.

ولعلي أجد عذراً مقبولاً لهذا الموقف، فالناس العاديون يعرفون الأرمن من خلال حاجتهم إلى يد ماهرة تصلح سياراتهم وتجهز حماماتهم وتمدد الأسلاك الكهربائية في بيوتهم.. أو تعالج أسنانهم وأجسادهم!

هذا من جهة، أما من الجهة الأخرى فإن ما وُضع من الكتب في العربية عن الأرمن لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، وكل كتب التاريخ التي تستعيد تاريخ المنطقة تكاد لا تأتي على ذكر الأرمن، في حين أنها تسترسل في الحديث عن الأكاديين والآشوريين والبابليين والآراميين، ثم تقفز إلى البيزنطيين والصليبيين والسلاجقة والمماليك، بينما لم يعد ثمة أحد من هؤلاء وأولئك، إلا في ذاكرة التاريخ، وبينما لا يزال الأرمن قائمين بيننا تتشابك أيديهم بأيدينا ليلاً نهاراً.

... لعل هذا أيضاً من قبيل «تحصيل الحاصل» ذاك!.

أما في الأدب الروائي، فليس، في حدود معرفتي، رواية عن

الأرمن، إلا ما ورد من ذكرٍ عابرٍ لبعض الشخصيات الروائية في أعمال كاتبنا الكبيز حنا مينه.

لهذا كله ولغيره أيضاً كانت هذه الرواية.

لكن! هل هذا هو كل شيء؟ وهل هؤلاء الذين لم يستطيعوا التخلص من لكنتهم التي بنينا عليها الكثير من النكات الظريفة والمحببة، هم كل الأرمن الموجودين في هذه البقعة الجميلة والمهمة من العالم؟ وهل كانت الهجرة عام ١٩١٥ هي أول مسيرة يقوم بها الأرمن، من أعالي هضبة أرمينية، جنوباً وشرقاً إلى بلاد الشام؟

ليس هذا المقام مجالاً لإعادة التاريخ، ولا بد من التذكير بأنه، خلافاً لانطباع العامة، ليس الأرمن من «الوافدين» على المنطقة، بل كانوا فيها منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف عام، يجولون فيها مع الجائلين، ويساهمون في نسج تاريخها، وتوطيد هويتها، والدفاع عنها، من الشمال السوري، إلى ضفاف الفرات، إلى آسيا الصغرى، إلى حدود سيناء الغربية. ليس ثمة مرحلة من مراحل هذا التاريخ لم يكن للأرمن فيها باع وحصة، بدءاً من تمرد عشيرتهم على الملك البابلي، ولجوء القائد الفينيقي هانيبال إلى بلاطهم، واحتلال ديكران الكبير كيليكيا وسورية وفينيقية وسيناء، إلى خضوع قسمٍ من أرمينية لدولة تدمر، إلى تقاسم حكم أرمينية بعد فتحها العربي بين الولاة العرب والملوك الأرمن، وبروز قادة كبار من الأرمن في الدولتين العباسية والفاطمية (القائد علي الأرمني. . ، الوزير بدر الجمالي. .)، ووجود حرس أرمني

في قلعة شيزر. . ورئيس وزراء لدى محمد علي الكبير (نوبار باشا)، وقبل ذلك عشرون إمبراطوراً بيزنطياً من أصل أرمني. . .

إذاً، الوجود الأرمني هنا كان وجوداً دائماً ومتصلاً إلى اليوم، إلى جانب السكان العريقين من بني كندة وطيىء وقريش وسريان وغيرهم، سبق بكثيرٍ وصول «الوافدين» من أحفاد الموالي وجواري الروم وغلمان الصقالبة وفرسان السهوب والرحالة المغاربة وغيرهم. . .

اليوم، والعالم بأسره يلج عملية واسعة من استعادة التاريخ، لكي تعرف الشعوب نفسها، وتعي حقيقتها، كان لا بد من هذه العجالة لكي تكتسب كتابة رواية عن الأرمن، هنا، وفي هذا الوقت، مشروعية حقيقية، تأخذ مكانها في وجه المؤامرة العالمية البشعة لتفرقة الشعوب، بهدف إحكام السيطرة عليها، ولكي يُسمع صوت الأرمن بين أصوات هذه الشعوب، في المطالبة ببناء عالم العدل والمساواة والسلام، عالم جديد حقاً، وحضاري حقاً.

عبر هذه الاستعادة، تسجل الرواية مرحلة مشرقة من النضال السري ضد الاحتلال، وفي سبيل التقدم الاجتماعي، عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية، ومؤامرة سلخ لواء الاسكندرونة، تذكر وترمز إلى النضال نفسه الذي كان يجري في شوارع حلب الجانبية، وأزقة بيروت، وحي الميناء في طرابلس، في خضم نضال مرعب كانت تقوده هذه الخلايا الصغيرة بتصميم وتفانٍ يوصفان، ربما، للمرة الأولى، برومانسية ممتعة وواقعية صارمة في آن معاً، تتكشف معهما جهود وتضحيات هذا الجيل، جيلنا

الذي بلغ سن الكهولة ولم يشِخ، وشهد الانهيار الكبير ولم ييأس، لأنه راهن، منذ البداية، على سيرورة جدلية، فيها تقدم وفيها تراجع، نحو مستقبل كان يعرف سلفاً أنه مستقبل للأجيال القادمة.

ثمة تفاصيل، في هذا النضال، يعرفها أصحابها فقط وبعض المقربين، ومن المفيد والمشروع أن تستعاد الآن، وأن تدوّن، لكي يعرف الأصدقاء والآخرون، ويبنوا حكمهم من جديد. . ثمة أسماء كانت تُتداول شفاهاً ولم تكتب قط. . من حقها الآن أن تسجل لكي لا تنسى. الشعوب الأخرى كتبت دواوين نضالها وسجلت أسماء مناضليها وأطلقتها على الشوارع والساحات. نحن نسينا، بكل بساطة، وأدرنا ظهورنا. . لا شارع يحمل ذكرى، ولا ساحة تنطق بالماضي القريب، إلا ما يقبله التقليد الصارم، أو ما ورثناه من الماضي البعيد، كأنما ذاكرتنا الجمعية ترفض حاضرنا المؤلم، وتريد دفنه في لاوعيها، إلى مستقبل قادم أقل ظلماً وخذلاناً.

من هنا أهمية هذه الرواية ـ الرمز، التي تسجل الأشياء والأشخاص، ربما لأول مرة أيضاً، بأسمائها الحقيقية، علناً ودون مواربة. لقد سقط الجدار وأصبح كل ذلك من التاريخ، لكن هذه الأسماء تعود إلى مكانها الطبيعي في ذاكرتنا. شكراً إذاً للصديق الكبير حنا.

رغم كل مظاهر التشرذم والانشقاق، وانفجار الدمامِل المزمنة، بين الشعوب والقوميات، فإن الناس الطيبين، كل الناس

الطيبين، يتجمعون من جديد، ربما على أسس أمتن وأصلب، وعلى مستوى العالم، بوعي واضح لحقوق لا تبتلع حقوق الآخرين، ولا تكون سبباً للعداء والعدوان، في مواجهة عدو حقيقي واحد، أصبح مكشوفاً للجميع، عبر التجارب المرة. إن صيحات الاحتجاج وصخب التمرد تملأ اليوم أجواء العالم، بحثاً عن عدالة يجري البشر وراءها منذ زمن سحيق، هي آتية بحكم الضرورة، لأن «غداً لا يموت أبداً. . » ثمة غدٌ آتٍ دائماً بحكم قوانين الكون. . ولأن «اللهيب يملأ الأرض. . فقد نهض العبيد!».

في هذه الرواية مشاهد تاريخية عن مؤامرة سلخ لواء الاسكندرونة، وتهجير سكانه، واستعادة أمينة للأجواء التي أحاطت بها، ولدور هذه الحفنة من المناضلين، في كسب، نكتشفه باعتزاز ودهشة، بحيث يتكثف الحدث، ويضيق أفق الرواية، ويتقلص حول بؤرة متأججة هي كسب، والاجتماع الحزبي الأخير، عبر الاحتفال بعيد الجلاء المجيد؛ كل ذلك في رمز يحتضن مرحلة كاملة من التاريخ، مستعادة ببساطة وكبرياء، وأمانة وإخلاص، وفاءً لبعض الأسماء المجهولة التي لن تنسى بعد اليوم، والتي كان يشعر المؤلف أنه مدين نحوها بقول الحقيقة.

ليس صدفة أن قصة الرواية تنتهي في نيسان. ففي نيسان الذي مضى، ونيسان الذي يأتي، نتذكر مآسي نيسان، وأفراح نيسان أيضاً، كأنما كل الملاحم تُكتب في نيسان العظيم، موحدةً أحزانه وأفراحه، في لقاء مهيب، مع تباشير الرِباع القادمة بالأمل والعودة.

ثمة لحظات في عمر الانسان، يشعر فيها أنه توحد مع كل ما في الكون، فتصبح كل النضالات نضالاً واحداً، وكل البشر إنساناً واحداً، لا فرق إن سميته اياداً أو ياسراً أو سعداً.. ويمكن أن يرد عليك لو ناديته بول، أو بابلو، أو هايكاز، أو فرج الله، أو ناظم، أو عبد الخالق، أو مهدي، وغير ذلك من الأسماء..!

يقيني أن هذه الرواية كتبت في لحظة من هذه اللحظات. ما أروع هذا الإنسان..!

اللاذقية ٢٠/ ١٢/ ١٩٩٧

واكيم أستور

المصادر التاريخية بالعربية

- الدكتور ك. أستارجيان: **«تاريخ الأمة الأرمنية»**، مطبعة الاتحاد الجديدة ـ الموصل ١٩٥١.
- الدكتور ك. أستارجيان: **«تاريخ الثقافة والأدب الأرمني»**، مطبعة الاتحاد الجديدة ـ الموصل ١٩٥٤.
- مروان المدوّر: **«الأرمن عبر التاريخ»**، منشورات دار نوبل ـ دمشق.

١

كان شاباً ناضجاً تماماً، وكانت شابّة ناضجة مثله، عندما تلاقيا، جواد صفصافي، وييرانيك فاهيان! هو، الآن، في الثانية والثلاثين من عمره، وهي في الخامسة والعشرين وبضعة أشهر، وكان لقاؤهما، قبل أعوام، صدفة سعيدة وغير سعيدة في آن، فقد أحبّها في ظروف صعبة، وأحبّته في ظروف قلقة، وكان كلاهما لا يريد هذا الحبّ، جواد لأنه ملاحق من قبل الفرنسيين، ويرانيك لأنها راحلة، لا تعرف متى، لكنها راحلة من غير شكّ، وبتصميم لا رجعة عنه، وماذا يبقى من الحبّ بعد الرحيل؟ ثم أي حبّ هذا، وجواد هارب من رجال الأمن، لأنه عضو قياديّ في منطقيّة اللاذقيّة، وينتمي إلى حزب ممنوع في سورية!؟

لكنّ الحب، ضربة القدر اللذيذة هذه، لا يعترف بما هو هجرة، أو بما هو ملاحقة، ولا شأن له بأيّة فوارق، أو أيّة موانع، فحين يكون، لا يبقى للمستحيل مكان، ولا يبقى للحذر مجال، وقد كان الحبّ، بين جواد وييرانيك، أمراً غير عاديّ، في مكانه وزمانه، وكان اختراقاً للمألوف، وسفراً في بحر الليل،

على مركب من الوهم، ممزّق الأشرعة، مقطّع الحبال، ضائع في متاهة اللجّة، لا هداية له بمنارة، ولا سماح له بالاقتراب منها، حتى لو اهتدى إلى ضوئها، فخفر السواحل يترصّدونه، على طول الشاطىء السوريّ، من القنطار جنوب طرطوس، إلى الجبل الأقرع شمال البسيط، لأن المركب، ببساطة، يحمل ممنوعات، كما أفادت التقارير الواردة إلى رئاسة الميناء في اللاذقيّة ومديرية الجمارك فيها، ولم يسأل أحد ما نوع هذه الممنوعات، وهل هي حقيقيّة أم خُلبيّة، والدليل على وجودها هو هرب المركب البائس، في الظلمة، من زوارق خفر السواحل، غير مبالٍ بالمطر والريح، إلى أن صار خارج المياه الإقليمية، فكفّت الزوارق عن المطاردة، لأنه غير مسموح لها بالتجاوز، والذهاب بعيداً في مياه البحر الأبيض المتوسّط، وقد درأت، بذلك، الخطر فقط، مكتفية بإبعاد هذا المركب القديم، الذي مصيره أن يغرق، أو يلتجىء إلى أيّ ميناء آخر، في جزيرة قبرص، أو المرافىء العربية، وعندئذ تجري المطالبة به، لأنه مسروق من ميناء بانياس، وكان راسياً في رأس البسيط، ليقوم بالصيد ليلاً، داخل حدود هاتاي، أو ما يسمّى لواء اسكندرونة، قبل أن تحتلّه تركيا، في مؤامرة دوليّة عشية الحرب العالمية الثانية، وبه هرب جواد من ملاحقة رجال الأمن، بفضل مساعدة ييرانيك له، والآن زال الخطر، وأُنزل الياطر، وسأل جواد ييرانيك:

ـ ألست خائفة؟

أجابت ييرانيك:

ـ لماذا أخاف وأنا معك؟

ـ علينا ألاّ ندخل المياه الاقليميّة التركية، أو نقترب منها!

ـ هذا ما أردت أن ألفتك إليه.

سأل جواد:

ـ هل تخافين الأتراك بعد هذا الزمن الطويل؟

ردّت ييرانيك بنبرة حزم:

ـ أنا لا أخاف منهم! أكرههم فقط!

ـ فقط!؟

ـ الآن أكرههم فقط، والباقي متروك للزمن.

ـ الزمن الآتي؟

ـ الزمن الذي لا بدّ أن يأتي، وآمل أن تفهمني يا جواد!

ـ أفهمك يا ييرانيك، يا حبيبتي، وأفهم دوافعك القوميّة، ولكن هل هذا لأنك أرمنية؟

ـ لا ليس لأنني أرمنية، وأحلم بييرفان، كعاصمة لدولة أرمنيّة مستقلّة تماماً، وإنما لأنّ تركيا عدّوة للعرب، والأرمن، على السواء؛

ـ هل تحلمين بأرمينيا مستقلة حتى عن الاتحاد السوفياتي؟

ـ حتى عن الاتحاد السوفياتي!

قال جواد:

ـ لولا معرفتي بأنك حزبيّة شجاعة، متطرّفة في الدفاع عن المبدأ، لقلت إنك معادية للاتحاد السوفياتي!

قالت يبرانيك وهي تنظر إلى الأفق:

ـ قل عنّي ما شئت، إلا أن تصادر حلمي، عندئذ يكون التحدّي، وربما ما هو أكثر!

ـ وما هو الأكثر؟ الفراق؟

ـ لا تتلفّظ بهذه الكلمة، أرجوك، إلا إذا كنت تريد التنكيد علي!

قال جواد:

ـ لن أقول أيّ كلمة تزعجك، أنت حبيبتي يبرانيك، حبيبتي العزيزة عليّ كنور عينيّ، ولن أصادر حلمك، ولا أستطيع، أو أقبل، بفعلة كهذه، لكن الانفصال عن الإتّحاد السوفياتي ليس بالحلم الجميل، اللائق، الذي يتلاءم والمبدأ الذي نؤمن به، أنت وأنا!

تردّدت يبرانيك في الجواب، نظرت إلى بعيد، إلى بعيد جداً، رانت على وجهها مسحة خفيفة من أسى، نهضت من مكانها إلى مقدّمة المركب، عادت، بعد قليل، إلى حيث جواد، جلست قبالته وسألته:

ـ هل تحبّني حقاً يا جواد؟ وبسعة هذا البحر؟ وحجم الجبل الأقرع هذا؟ وخضرة الصنوبر في غاباتنا؟ وصلابة السنديان على منحدرات الوادي؟ ورائحة شجر الغار، النادر النادر إلاّ

في هذه البقعة الجبليّة؟ ولون القرميد الأحمر على أسطحة بيوتنا؟ ومدرّجات الزهور في حدائقها؟ والعصافير التي تغنّي على هواها؟ وموّال «يوكسان ضاغلار سرين أولور»[1] الذي يبكي ويبكينا؟ والمبدأ الذي زاد حبّنا متانة؟

ضحك جواد وقال:

ـ تمهّلي، بيرانيك، في الأسئلة، حتى يكون في وسعي الجواب عليها، الواحد بعد الآخر، ولكن لماذا كلّ هذه الأسئلة، وكلّ هذه الرومانسية، ونحن في هذه الورطة!؟

قالت بيرانيك:

ـ نحن لسنا في ورطة، وهذا المركب الوهم، من شدة الهلهلة، لسنا بحاجة إليه، إذ يمكننا، في أيّ وقت، أن نعود إلى الشاطىء سباحةً، حتى في هذا الماء الخريفي البارد، وما دمت معك، فلن تقع في أيدي رجال الأمن، لأن لي طرائق كثيرة لإخفائك عن أنظارهم، ما رأيك؟

ـ رأيي أنك قادرة تماماً، فما هو السؤال الأوّل؟

ـ هل تحبّني حقاً؟

ـ أحبّك بغير حق!

ـ وبسَعة البحر؟

(١) «الجبال العالية تكون باردة». بالتركية.

ـ بسعة الساقية!

ـ وبحجم الجبل الأقرع؟

ـ بحجم الجبل المشعر!

قالت ضاحكة:

ـ صفر، صفر، وصفر ثالث مع الرحمة!

قال جواد ضاحكاً بدوره:

ـ وهل أنت رئيس محكمة الجنايات، حتى تحكمي بالإعدام مع الرحمة؟

قالت يرانيك:

ـ لو كنت رئيس محكمة الجنايات، لحكمت عليك بالإعدام مع التنفيذ الفوري، مع سحب الجنسيّة!

ـ وماذا أفعل بالمجنسية بعد الموت؟

ـ وكيف تدخل جهنّم بغير جنسيّة؟

ـ وكيف تدخلينها أنتِ!؟

ـ أنا، يا حبيبي، سأدخل الجنّة بأوراق ثبوتية من يرفان!

ـ عندما تستقلّ أرمينيا عن الاتحاد السوفياتي؟

ـ نعم! عندما تستقلّ، وستستقلّ، برغمك ورغم الاتّحاد السوفياتي نفسه.. لماذا تريد أن تسخر من هذا الحلم الذي

أعيش عليه!؟

ـ لأنّ حلمك لن يتحقّق أيّتها الانفصاليّة الجميلة!

قالت جادّة:

ـ ومن قال هذا؟

ـ أنا، وبكل جراة وتأكيدا

ـ هذا لأنك غير أرمنيّ. . أنت لوائيّ عربي، ولست من أبناء أرمينيا المخلصين!

تأمل جواد ييرانيك، بقدر ما استطاع في العتمة، قاسها طولاً وعرضاً، أسف لأنها تحمل أفكاراً جهنّميّة بهذا القدر، تساءل: «هل هناك رفاق أرمن يحملون مثل هذه الأفكار؟ ولماذا؟ بأيّ حقّ؟ وهل يريدون إحراق الاتّحاد السوفياتي لإشعال سيكاراتهم؟ ومن هم بغير هذا الاتّحاد؟ ما هي مقوّماتهم الاقتصاديّة؟ ما هي قوّتهم العسكريّة؟ ما هي مكانتهم الدوليّة؟ هل نسوا أنّهم على حدود أذربيجان؟ وهل فاتهم أن منطقة ناغورني كاراباخ لا تزال قضيّتها كالنار تحت الرماد وقد تنفجر؟ وكيف سيواجهون، لا تركيا وحدها، بل الجمهوريات التركمانستانية معها؟ ومن يعيد إليهم قارص وأرضهان؟ هل جُنّوا؟ أم ييرانيك وحدها هي المجنونة بينهم!؟».

صارح جواد ييرانيك بكل هذه الأفكار، وبعد أن رازها، سألها بأقصى جدّيّة ممكنة:

ـ هل هناك، بين الأرمن، في ييريفان، من يحمل «حلماً جميلاً» بهذا المقدار؟

أضاف:

ـ أنا أعرف أن هناك، في سورية ولبنان، من يحمل مثل هذه الأفكار، وأن هناك أحزاباً أرمنيّة يمينيّة، لها فروع في كل أنحاء العالم، تتبنّى بشدّة، وفي صلب برامجها، أفكاراً مماثلة، ولكن أنت، يا آنسة. . .

قاطعته:

ـ رفيقة!

ـ عفواً! أنت يا رفيقة ييرانيك، تحملين فكراً إنفصالياً كهذا؟

أجابت بسخرية مبطّنة:

ـ وما هي الجريمة في هذا، أيّها المفوّض السياسيّ المحترم!؟

أجاب جواد بجفاء:

ـ أنا لست مفوّضاً سياسيّاً أولاً. .

قاطعته ييرانيك ضاحكة:

ـ وثانياً؟

ـ ثانياً يشرفني أن أكونه مستقبلاً. . هل نسيت دور المفوّضين السياسيّين والعسكريين في هذه الحرب، أقصد الحرب العالمية الثانية، وكم ضحّوا بأرواحهم، وهم في مقدّمة الجيش

الأحمر، أو بين صفوفه، وخاصة أيّام حصار ستالينغراد وموسكو ولنينغراد؟ أيام كان هتلر منتشياً بخمرة النصر، والعالم يضع يده على قلبه خوفاً من سقوط هذه المدن، واكتساح الجيوش الهتلريّة الاتحاد السوفياتي كلّه، ثم العالم كلّه من بعده؟

جلست بيرانيك قبالة جواد، واضعة يدها على خدّها، متأملة إيّاه في العتمة، قائلة:

ـ وبعدا؟

قال جواد:

ـ لا شيء بعد هذه الأسئلة الاستفهاميّة والاستنكارية معاً!

ـ ولماذا هذه النبرة العصبيّة، الزجرّية؟

ـ لأنني لا أكاد أصدّق!

ـ صدِّق من فضلك!

نظر إليها جواد بغضب وقال:

ـ إيّاك واستغلال الوضع الذي أنا فيه!! رجال الأمن الذين يطاردونني لا يحملون أفكاراً مسمومة بهذا القدر!

ـ هؤلاء شيء وأنا شيء آخر.. لا تخلط، نتيجة الغضب، بين القمح والزؤان من فضلك! أما مسألة استغلال وضعك الصعب فإنها نكتة بائخة.. ما رأيك أن نقترب، بهذا المركب العتيق،

من الشاطىء قبل الفجر، وفي المكان الذي تريده أنت؟

وقف جواد منفعلاً وهو يقول:

ـ هيّا لنقترب!

قالت ييرانيك وقد وقفت أيضاً:

ـ كم أنت مجنون! وكم أحبّك لأنّك مجنون! تتّهمني بالرومانسيّة، أيّها الواقعيّ العظيم، وأنت غارق فيها حتى أعلى شعرة في رأسك؟ تعال إليّ قبّلني في خدّي فقط، كرفيقين طيّبين، هيّا! تعال! اجلس أمامي، ووجهك إليّ، لأنّ هذا من الأدب..

قاطعها جواد:

ـ وتعلمينني الأدب أيضاً!؟

قالت ييرانيك وهي تأخذ يده بين يديها:

ـ ليس الأدب العامّ، أدب المحبّين فقط، الذين يحمل بعضهم السلاح ضد بعض، لأنّ الحب هكذا يريد! يا إلّهي! يدك باردة برودة الجنّة! مع أنك لن تدخلها إذا بقيت غضوباً، مشاكساً، مستفزّاً، متهوّراً، ظالماً إلى هذا الحد!

قال جواد:

ـ .. ومفوّضاً سياسيّاً أحمق إلى هذا الحدّ!

ـ أنت لست بالأحمق يا حبيبي، أنا لا أتّهمك بالحمق، وإنما

بالتحجّر. . دعني أقم بعمليّة جراحية بسيطة لنزع الحجر الذي في رأسك، وعندئذ تفترق عن الآخرين، عن الجامدين عقائدياً، لأن في رؤوسهم أحجاراً كبيرة، وضعت صغيرة، ونمت مع الأيّام والأعوام، فصاروا يعتقدون، إلى درجة الهوس، أنهم يملكون الحقيقة كلّها، ووحدهم فقط! وهذا هو الخطأ، هذه هي السذاجة المفرطة التي عشّشت في رؤوسنا. .

قاطعها جواد:

ـ في رأسك فقط!

ـ ورأسك أيضاً!

ـ لا توجد في رأسي سذاجة، وليس هناك خطأ، ولا حاجة للجراحة لإخراج أي حجر من دماغي، لأني لا أدّعي امتلاك الحقيقة المطلقة، وإلى حدّ الهوس أيضاً، ولم يبلغ بي الأمر حدّ تفكيك الاتحاد السوفياتيّ، هذه القلعة التي نستند إليها نحن العرب، في نضالنا لأجل التحرّر الوطنيّ والتقدّم الاجتماعيّ. . تريدين استقلال أرمينيا؟ معنى هذا أن أرمينيا غير مستقلّة، وأنها محتلّة. . ومن قِبَل مَن؟ من قِبَل الاتحاد السوفياتي الذي جعل منها جمهوريّة مستقلّة، متطوّرة صناعيّاً وزراعيّاً، مُهابة من قبل تركيا، عدوّتها اللّدود، ومن قبل العالم الخارجيّ كلّه، فماذا تريدين أكثر!؟

قالت ييرانيك بإصرار:

ـ أريد استقلال أرمينيا فعلياً، وهذا كل شيء!

قال جواد بحدّة:

- وماذا إذا طالبتْ جورجيا، وكازاغستان، وداغستان، والشيشان، واذربيجان، وتركمانستان، ودول البلطيق، عفواً جمهوريات البلطيق، «بالاستقلال الفعلي» أيضاً، أي بالانفصال عن الاتّحاد السوفياتي؟ ماذا يبقى منه؟ أوكرانيا؟ روسيا البيضاء؟ جمهوريّة روسيا الاتّحادية؟ أين تصبح قوّة الاتحاد السوفياتيّ، هيبته، ومكانته الدوليّة؟ فكّري أنت بهذا، وأعيدي النظر في هذه الجرثومة الطاشناقية، التي تسرّبت إلى جسمك لا أدري كيف!؟

قالت بيرانيك:

- هذه الجمهوريّات التي عددتها ليست أرمينيا!

- وبماذا تمتاز أرمينيا عنها؟ بجبل أرارات الذي تزعم الأسطورة أن سفينة نوح رست فوقه بعد انحسار الطوفان؟

- ولماذا السخرية من جبل أرارات؟ إنه لنا على كلّ حال! وسفينة نوح أيضاً!

- ولكم قارص وأرضهان، فكيف السبيل إلى استعادتهما؟ بقوّة أرمينيا الانفصاليّة بحجّة الاستقلال!؟

- عندما تستقل أرمينيا، وتصبح دولة قويّة، ذات منعة وشأن، ستعرف كيف تستعيد قارص وأرضهان، وكل أرض أرمنيّة استولى عليها الآخرون!

قال جواد:

ـ من كم ولاية تتألّف الولايات المتحدة الاميركية؟ وماذا لو طالبت كلّ ولاية بالانفصال؟ ماذا يبقى من اميركا عندئذ؟ أين تصبح قوتها الاقتصاديّة والعسكريّة؟ في أيّ ولاية تكون ترسانتها المخيفة!؟ وهل يأمن العالم إذا جُنّ حكّام هذه الولاية المستقلّة، المنفصلة، واستعملوا ما لديهم من أسلحة رهيبة؟ ما هو دور واشنطن عندئذ؟ تتفرّج على العالم وهو يشتعل؟ تعتذر لهذا العالم المشتعل؟ تقول إن الولاية الفلانيّة، المستقلّة، هي التي دمّرت العالم وليست واشنطن؟ ثم، وهذا افتراض، إذا استقلّت هذه الولايات المتّحدة الآن، وأصبحت كل منها تقرّر بنفسها، ولنفسها، مسألة الحرب والسلم، ماذا يبقى للمركز الاتحادي؟ وما هو مصير السلاح الجوّي الأميركي إذا تجمّع في ولاية واحدة، مستقلّة، منفصلة؟ ألا يسهل تدميره من قبل الغير، الاتحاد السوفياتي مثلاً، أو فرنسا أو بريطانيا، عندما تمتلكان، وبشكل أقوى، السلاح نفسه؟ والآن، ضعي الاتّحاد السوفياتي مكان الولايات المتحدة الاميركية، وطبّقي الأسئلة والاجوبة نفسها عليه، تري نتيجة هذا اللعب بالنار، وبمثل هذه الخفّة المنفلتة من كل مسؤوليّة، أخلاقية كانت أم مبدئية، إقتصاديّة كانت أم سياسيّة!

قالت بيرانيك:

ـ لندع الأخلاق جانباً، مع أنها ذات صلة بالمبدأ والسياسة، ولنتكلّم فقط على مسألة استقلال الجمهوريّات التي يتألف منها الاتّحاد السوفياتي، والتي ذكرت بعضها أنت، في سياق

حديثك الذي خلطت فيه، بين الاستقلال والانفصال. . إنني، في هذا الموضوع، أرى أن الاتّحاد السوفياتي لعب دوراً مهمّاً في المساعدة على تطوير القوميّات الأخرى، صغيرة كانت أم كبيرة، متقدّمة أو متخلّفة جداً، فقد جمع شتات بعض القوميّات الصغيرة، وأنشأ لها كيانات، وأوجد للغاتها أبجديّات، وصارت قائمة، معروفة، بعد أن كادت تضمحل وتندثر هي ولغاتها، لكن مشكلة القوميّات لم تحلّ في الاتّحاد السوفياتي.

- كيف؟ هل نسيت كتاب ستالين عن «المسألة القوميّة»، والحلول التي أوجدها لها؟

- لم أنس هذا الكتاب، وقد قرأته مرات عديدة، وفكرت في حلوله المقترحة، ثم المطبّقة على أرض الواقع، كثيراً، ووجدت، في حدود رأيي، أن مسألة القوميّات في الاتّحاد السوفياتي لم تحلّ جذريّاً، أو نهائيّاً، بسبب التفاوت من جهة، والعصبيّة القوميّة من جهة ثانية، ولا بدّ أن تبرز يوماً ما على السطح!

ابتسم جواد وقال:

- كانت الحرب العالميّة الثانية هذه، واجتياح الألمان النازيين لقسم كبير من الاتّحاد السوفياتيّ، أفضل مناسبة لبروز هذه القوميّات وتناقضاتها، لو لم تكن عاقلة، وقد انصهرت نهائيّاً في الاتّحاد الذي سمي اتّحاد الجمهوريّات السوفياتيّة، والذي قاده ستالين إلى النصر، بما يشبه الأعجوبة، بعد أن بناه بما

يشبه الأعجوبة أيضاً!

ردّت يبرانيك بحدّة، وهي تعتزم إنهاء النقاش كيلا يُسمع الصوت:

ـ الحرب العالمية الثانية هذه حربٌ وطنيّة بالدرجة الأولى، وهنا برزت عبقريّة ستالين السياسيّة، حين خاطب الجمهوريّات السوفياتيّة خطاباً وطنياً لا إشتراكياً، فقد ذكّر شعوب هذه الجمهوريّات بأمجاد الروسيا، من بطرس الأكبر إلى القيصرة كاترين الأولى، وقال لهذه الشعوب، ولكل شعوب العالم: «لقد أرادها الألمان الهتلريّون حرب إبادة، فلتكن كما أرادوها!» وبذلك استنفر حماسة وحميّة شعوب الجمهوريّات السوفياتيّة، التي عانت الكثير على أيدي القيصريّة الروسيّة، ووجدت نفسها، من جديد، أمام إبادة المانيا الهتلريّة، فهبّت للدفاع عن نفسها هبّة الرجل الواحد، لأن الخطر الكبير يتهدّدها كلها، وبلا استثناء؛ ومع هذا كانت هناك، في الأراضي التي احتلّها النازيّون، بعض الظواهر غير الإيجابية، من الناحية القوميّة، لكنها كانت صغيرة جداً، قليلة جداً، دفعها تيّار الحماس الوطنيّ، أو الأصح اكتسحها، في طريقه، اكتساحاً لا يردّ.

قال جواد واقفاً، غضوباً، ساخراً:

ـ إذن ما الجديد الآن؟ وخاصّة بالنسبة لأرمينيا؟

قالت يبرانيك التي وقفت بدورها متحدّية:

ـ لا جديدا الجديد هو قديم على نحو ما، من الناحية القوميّة خصوصاً! أنا معك أن الاتّحاد السوفياتي أولى أرمينيا اهتماماً خاصاً، وأوجد فيها صناعة متطوّرة، حديثة، ثقيلة إلى حدّ ما، كما مكنَنَ الزراعة، وأحدث نهضة ثقافيّة، لها أعلام وإبداعات في كل المجالات، ولنذكر خشادوريان في الموسيقى، وبغراميان في القيادة، وغيرهما وغيرهما، في العلوم والتكنولوجيا والبيولوجيا والهندسة المعماريّة والمدنيّة، وحتى في مجال الطيران والابتكارات في حقل إنتاج الاسلحة، إلا أن أرمينيا، رغم ريع هذه الإنجازات، ظلّت جمهوريّة تابعة، وظل القرار في موسكو وليس في ييريفان، وبقي كثير من الأرمن، داخل أرمينيا وخارجها، وفي كلّ قارات الأرض، يرنون إلى اليوم الذي تصبح فيه أرمينيا دولة مستقلّة، غير تابعة، قرارها بيدها، وقوّتها في ذاتها، ونهضتها بنت أرضها، مع تعدّديّة حزبيّة، سياسيّة، وتعدّديّة إقتصاديّة، وحريّات كاملة، تسمح بتعدّد الآراء، ومناخ ديموقراطي حقيقي، ينفتح فيه الحوار على أوسع مداه. وثق يا جواد، أن هذا سيكون يوماً مشهوداً، وأن من يحلم بمثل هذا اليوم، ليس خارجاً على المبدأ، وهو لا يسعى إلى تقويض الاتّحاد السوفياتي، ولا يرى طريقاً، أو حلاً، في نهاية المطاف، إلا بالاشتراكيّة، أو كيف أقول؟ الأفضل ألاّ أقول.. لأنني أحلم، والأحلام تتبلور على مهل، وكلّ شيء يتعلّق بالتطبيق، وهذا ليس سهلاً، ولا أدّعي، كما لا يدّعي الآخرون، أنهم يعرفون أسلوب هذا التطبيق! لنَدَع الأشياء للمستقبل، إلا أن علينا ألا نرفض الفكر الجديد، أو

نصادره، أو نتّهم أصحابه بالخيانة، فهذا يناقض حتى المبدأ الفلسفيّ عن العالم، الذي نناضل، أنت وأنا، وكذلك الآخرون، من أجله.. هيّا.. لنتحرّك بالمركب، جهة سفح الجبل الأقرع، وهناك نلقي الياطر، ونترك المركب ثم نسبح إلى نقطة آمنة على الشاطىء! إنها مجازفة، ولكن لا بدّ منها، الخطر يحيق بنا، ومتى كان الخطر لا يحيق بنا!؟ لا تخف، قلت لك: لا تخف! إنني بيرانيك، ابنة هذه المنطقة، وأنا مكلَّفة، حزبيّاً، بإيصالك سالماً، وسأفعل وأنجح، ثق بي، ثـ..

قاطعها جواد بقسوة:

- كفى! أقول لك كفى! لست بالخائف، ولست من يطلب الحماية من امرأة، وسواء لديّ وصلت سالماً أم غير سالم، كوني دليلتي فقط، فقط لا غير، هل تسمعين!؟ هل تفهمين!؟

ردّت بيرانيك منضبطة الأعصاب بقوة الارادة:

- نعم أيها الكومسيير المجنون! أسمعُ! أفهمُ! وأعرف تماماً أنك رجل عربيّ شرقي، من مفرق شعرك إلى بطن قدمك، رجل شرقي عربيّ أصيل، أيّها الرفيق الغضوب! هيّا.. ولكن احذر أن تدير محرّك المركب، فالصوت، في الليل، يؤدّي إلى بعيد..

ومرة أخرى قاطعها بجفاء:

- لا أحتاج إلى دروس خصوصيّة في موضوع البحر، وموضوع

الليل، وموضوع. .

توقّف عن إتمام عبارته، فقالت ييرانيك:

ـ. . المرأة!

أجاب بنفس جفائه:

ـ نعم!

ـ هل أنت واثق أنك تعرف المرأة جيّداً!؟

ـ كلّ الوثوق!

ـ لنغلق هذا الحديث، حتى لا تتكشّف عن جهل أكبر، وخطير أيضاً!.

لاذ جواد وييرانيك بالصمت المشوب بالكدر. «إنني، فكّر جواد، سعيد وغير سعيد في آن! سعيد بحب ييرانيك، وبشجاعتها، ومعجب بجمالها، وبفمها الذي يشبه، في احمراره، حبّة الكرز قبل الاستواء، وغير سعيد بهذه العنجهيّة عن أرمينيا وحولها. الأرمن رفاق مخلصون، قادرون، بشكل غير مألوف، على التنظّم والتنظيم، لكنّهم أقليّة في منطقة كسب، إذا ما أخذناها في الحزب ككلّ. في اسكندرونة، قبل سلب اللواء، كانت لهم فعاليّة كبيرة، إلا أن الرفاق العرب كانوا عصب الحزب وروحه وجوارحه. الرفيق قاسم رضوان كان يقود منطقيّة اسكندرونة، وكان معه الرفيق ماخيان، إلا أن نغمة أرمن وعرب غير موجودة، وهنا، في كَسَب، غير موجودة أيضاً، رغم أن

المنظمة، فيها، كلّها من الأرمن. الرفيق حنانيان يقول ويردّد: «حزبنا، منذ منتصف الثلاثينات، استطاع أن يُعرِّب كلّ شيء، من أدبيّات الحزب إلى دفاتره، من ترجمة البيان إلى ترجمة المصطلحات، وكان هذا إنجازاً كبيراً، الفضل فيه يعود إلى القيادة، ونحن جزء صغير من كل كبير، هو الحزب، وعلينا، دائماً، أن نرجع إلى القيادة في دمشق أولاً، وبيروت ثانياً، لتلقّي التعليمات وتطبيقها، ليس بشكل آليّ، ولكن بشكل خلاّق» فلماذا، إذن، رعونة ييرانيك هذه؟ أعرف الجرح الأرمني تماماً: إنّه المذبحة على يد الأتراك! ورفيقة مثل ييرانيك، في اطّلاعها، ثقافتها، انضباطيّتها، كان خليقاً بها أن تصعّد ألمها الشخصيّ إلى ألم عام، ألمنا جميعاً، نحن الذين نناضل في أشدّ الظروف صعوبة، لتطبيق شعارنا: «وطن حر وشعب سعيد». فما بالها، ييرانيك هذه، تعكس المقولة: ما «بين الألم الشخصي والألم العام» فتجعل ألمها شخصياً بحتاً!؟

رفع جواد رأسه المطرق، وجد ييرانيك متصالبة اليدين، واقفة تحدّق فيه، صابرة إلى أن يهدأ، وتخبو هبّة نزقه، حسب تعبيرها، ولما سألته:

ـ بماذا تفكر؟

قال:

ـ في كلّ الذي سمعته منك، أنا الذي، لسوء الحظّ أو حسنه، انتدبتني القيادة للعمل في منطقيّة كسب!

قالت:

ـ هذا من حسن حظّك.. وإلاّ كيف كنا سنلتقي، أحدنا بالآخر!؟ اسمع (قالت هذا وهي تداعب شعره المشعّث) ليلتنا، هذه، كانت رهيبة، وربما قلتُ أشياءَ فيها بعض الغباء، ولكن بصدق.. أنت عربي، تتكلم اللغة التركية، وهي، تقريباً، لغتنا المتداولة في كسب، إلى جانب اللّغة الأرمنيّة، لغة الأجداد والآباء، وأنت تتكلم اللغة الفرنسية بإتقان، فَمنْ يصلح غيرك للمهمّة التي تقوم أنت بها؟ أعرف. أكثرنا يتكلّم العربية في كسب، لأنهم تعلّموها درساً وشفاهاً، إلا أنّ وجود رفيق عربيّ مثلك بيننا، يعدّ مكسباً كبيراً، ذلك أن الفرع يتبع الأصل، وحزبنا عربيّ، قلباً وقالباً كما يقال، إذن نحن أيضاً عرب.. هيّا قبّلني! وقبلها مبتسماً!

٢

كان هناك حلاّن: أن يدير جواد قلوع المركب، أو ما تبقّى منها، باتّجاه الرّيح التي تدفع بالمركب إلى الشاطىء عند سفح الجبل الأقرع، ومن هناك يسبحان إلى النقطة التي تعرفها ييرانيك جيداً، أو ينزلان الشختورة الصغيرة من المركب، ويجذّفان باتجاه تلك النقطة المحددة من الشاطىء. جواد كان، بحكم خبرته في البحر، وخبرته أيضاً في الإفلات من رجال الأمن، مع الحلّ الأوّل، وكانت ييرانيك مع الحل الثاني، وهو النزول في الشختورة، والتجذيف بلطف وحذر، حتى بلوغ نقطة السلامة المضمونة. ولم يكن هناك فارق كبير بين الحلّين، ما دام عليهما أن يقتربا بالمركب إلى أقصر مسافة من الشاطىء، فرجال الأمن، حتى مع الأوامر المشدّدة، أو الإصرار الذاتيّ، لن يبقوا إلى الفجر، لأنهم سينامون، قعوداً أو وقوفاً، وبقاؤهم مستبعد، أو يعودوا إلى المخفر في كسب، وهذا هو المرجّح، فتسنح الفرصة لوصول جواد إلى المخبأ، وعلى رجال الأمن، بعد ذلك، أن يشربوا مياه البحر!

قال جواد:

ـ في هذا الموضوع أترك الخيار لك يا رفيقة ييرانيك!

قالت ييرانيك:

ـ هل الرّيح مؤاتية للاقتراب بالمركب، حسب معرفتك بهذه الأمور؟

ـ الريح شبه مؤاتية، والمسافة ليست بعيدة على كل حال.

ـ ما هو الوقت الذي نحتاجه لقطع هذه المسافة؟

ـ ساعة على الأكثر!

ـ تضمن هذا؟

قال ضاحكاً:

ـ شركات الضمان لا تؤمّن على الريح كما تعلمين!

ـ عمل شركات الضمان غير العمل السرّيّ: تضمن قطع المسافة في ساعة واحدة أم لا؟

ـ أضمن!

قالت ييرانيك:

ـ لاحظ أنك أنت المطلوب من رجال الأمن لا أنا، فكّر جيّداً.

قال جواد:

ـ ولاحظي أنك أنت المسؤولة عن وصولي سالماً، وأنت القائدة الآن.

سألته:

ـ أنا القائدة فقط؟ وأنا المسؤولة فقط؟

ـ وماذا أيضاً؟

ـ أنت جاهل أم تتجاهل؟ وهل هذا وقت المزاح السمج؟

ـ أنا لا أتجاهل ولا أمزح.. لماذا تريد المرأة، حتى في المواقف الصعبة، أن تسمع تلك الكلمة!؟

ـ لأنها تلذّ لها! كلمة الحب، كما تعرف، ألذّ الكلمات.

جادّة:

ـ لنتكلّم في ما هو مفيد.. المفاجآت لها حساب أيضاً.. إذا صادف وكان هناك كمين، في النقطة التي نتجه إليها، فما عسانا نفعل؟

ـ بالنسبة لي المسألة محسومة: أَقتل أو أُقتل، وليس من خيارٍ ثالث!

ـ وإذا قتلتَ، تبقى فارّاً، ومختبئاً في الجبل؟

ـ أستسلم إذن؟

ـ هذا ما يريده الذين يطاردونك!

ـ وما العمل؟

ـ لينين هو من طرح هذا السؤال، ومن أجاب عليه أيضاً، لنفكر بحلّ آخر!

ـ وما هو الحلّ في رأيك؟

ـ أن تشرع فوراً بتوجيه القلوع، وأن تصمت تماماً، وتحذر من إشعال أيّ سيكارة. .

ـ ولماذا كلّ هذه الاحتياطات؟

ـ لأنني، كما قلت أنت، المسؤولة عن سلامتك. . نحن لا نلعب في حين يترصّدنا رجالُ الأمن!

شرع جواد في توجيه القلع المتبقّي سليماً في المركب، إلاّ أنّ الريح لم تكن مؤاتية أو كافية، وهذا ما أربكه قليلاً، بينما كانت بيرانيك في مقدّمة المركب، تحاول، بعينين مدرّبتين، أن تخترق العتمة، وأن ترى اندفاع المركب والثلم الذي يفتحه وهو يشق الماء، وعندما وجدت أن الاندفاع بطيء جدّاً، عادت إلى حيث يقف جواد، قرب الصاري الكبير، وقالت:

ـ تقديرنا كان خطأ! لن نصل المكان المحدّد في ساعة واحدة، أو حتى في ساعتين، وعندئذ نصل متأخرين، ويكون الضوء قد فضح خطّتنا. . ماذا سنفعل؟

قال جواد:

ـ لا أدري!

قالت بيرانيك:

ـ عليك أن تدري، وأن تتصرّف بسرعة. . هل بحثت عن قلع ما، في قاع المركب؟

ـ لا أظنّ أن هناك أيّ قلع!

ـ تظنّ أم أنت متأكّد؟ هيّا نبحث، وبسرعة، وإلاّ كان علينا أن نعدِّل الخطّة كلها.

نزلا إلى القاع، بحثا على ضوء الولاّعة، كادا ييأسان عندما قال جواد بصوت خافت:

ـ يا للحظّ الطيب يا حبيبتي، وجدت قلعاً صغيراً، يصلح لدفْعِ الرّيح باتجاه القلع الكبير.. ساعديني في رفعه، وفي البحث عن حباله وربطها بسرعة..

كانت مساعدة بيرانيك ضئيلة، إلاّ أنها مساعدة ما، في إخراج القلْع من قاع المركب، وكان جواد قويّاً ماهراً، ربط الحبال، من أعلى، حيث يجب، ثم نزل بسرعة السنجاب، على السلّم المثبت على الصاري، فربط الحبال من أدنى، ولم يلبث القلع أن انتفخ، دافعاً بالرّيح نحو القلْع الكبير، فتحرّك المركب بما يكفي من السرعة، وعندئذ عانقت بيرانيك جواد قائلة:

ـ أنت قويّ وماهر، أنت حبيبي، ومعي ستصل بأمان، فكرة الهرب، في البحر، كانت موفّقة ورائعة!

قال جواد:

ـ هذه، في الأصل، ليست فكرتي، تعلّمتها من رفيق في اسكندرونة، اسمه الأول سرخوس، حاصره رجال الأمن الفرنسيّ، ولم تعد لديه وسيلة للإفلات سوى البحر، فخلع ثيابه

وراح، في بحر الليل، يسبح نحو الأعماق، أما رجال الأمن فقد ركبوا زورقاً اتّجه بهم نحو قاع الجون، ظناً منهم أن سرخوس قد التجأ إليه، وكانت هذه خدعة ناجحة للإفلات منهم، ولم تكن الرصاصات التي أطلقوها وراءه، عندما ألقى بنفسه في البحر، إلا من قبيل التظاهر بأنهم أدّوا واجبهم!

قالت يرانيك:

ـ كان جريئاً ومخلصاً هذا الرفيق، ومن حسن حظّه أن ظلام الليل حماه، ولولا ذلك ما نجا من أيدي رجال الأمن! ما رأي الكومسيير؟

قال جواد بجدّيّة، مع تقطيبة أخفتها العتمة:

ـ إنه رفيق قياديّ، ملاحق، لا يخرج إلا في الليل، وبعد أن يتنكّر. . الأرجح كانت هناك وشاية، أو أن أحد الرفاق المقبوض عليهم قد اعترف تحت التعذيب، وكانت الخطة أن يغيّر السرخوس مخبأه، إلا أن رجال الأمن حاصروه بسرعة!

قالت يرانيك بالجدّية ذاتها:

ـ هناك فرق، طبعاً، بين الوشاية والاعتراف، من الناحية الأخلاقية، أما من الناحية القانونية فالأمر سواء، ما دام الرفيق المطلوب قد تمّ القبض عليه. . الخيانة الذاتيّة، يا جواد، فظيعة، لا أستطيع تصوّرها أو التسامح حيالها، إنني أعني ما أقول، ألست معي؟

قال جواد:

- ظروف النضال السّريّ شاقّة جدّاً، تعتمد على الجرأة، والمراقبة، وسرعة البديهة، والقدرة على الانتقال، عند الضرورة، من مكان إلى آخر، بحذر وخفّة، وهذا يحتاج إلى التجربة والمران، في قلب هذه الظروف، لا قبلها ولا بعدها..

أضاف جواد:

- الرفاق المتمرّسون هم القدوة في هذا المجال، لأسباب كثيرة، منها التنظيم الدقيق، الجسارة، ندرة الاكتشاف من قبل رجال الأمن! وكذلك «الديسبلين»!.

قالت ييرانيك:

- مع ذلك.. كيف أقول؟ إنني لا أحبّ العبارات الجاهزة، مثل «الديسبلين» و «اليقظة الثوريّة» و«الاختبار» لماذا لا يبتكرون، عندنا، أقوالاً أخرى؟. هذه العبارات الجاهزة تنرفزني، فقد أصبحت بالية، ولأننا أخذناها عن الرفاق السوفييت في الأصل، فإنّ عقولنا ظلّت بليدة، أم أن الجاهز أسهل من «التفصيل»، على لغة الخيّاطين؟

حاول جواد أن يردّ، إلا أن ييرانيك أوقفته بإشارة من يدها.. كان الأفق الشرقي قد بدأت أنواره تتلامح، والعتمة تخفّ تدريجيّاً، يلج فيها الضوء بشكل لا يُلحظ، إلاّ أنه يلج، والمركب يقترب مدفوعاً بريح رهوة نحو الشاطىء، وهناك خوف من ارتطامه بالصّخر، أو تشحيطه على الرمل، ثم جنوحه، وهذا غير

ملائم من ناحية السلامة، لأنه يترك علامة وراءهما، يتّخذها رجال الأمن «بوصلة» في المطاردة، والأفضل، كما قالت يبرانيك، إلقاء الباطر، والقفز من المركب إلى الشختورة، والتجذيف بحركة خفيفة، أو بالأيدي، بعيداً عن المركب إلى الشمال، وبحذر شديد، دون صوت، دون ولاّعة، إلى أن تصل الشختورة إلى الشاطىء، وترتطم بالأرض، وعندئذ ينزلان منها، ويدفعانها إلى البحر، حيث يتلاعب بها الموج، ويدفعها بدوره مع حركة الريح، بعيداً عن المكان الذي نزلا فيه!

كانت يبرانيك تتكلّم بصوت هامس، وحين سألت جواد عن رأيه، قال:

ـ من الصعب التجذيف بسهولة لأن الريح «شلوق»! (شرقية).

ـ وماذا ترى؟

ـ المجازفة!

ـ نجازف بتجذيف قويّ ضدّ الريح؟

ـ هذا خيارنا الوحيد!

فكرت يبرانيك للحظة وقالت:

ـ ليكن!

أضافت وهي «تلقّم» مسدّسها نمرة ٩:

ـ اسمع يا جواد! إذ حصل واكتشفونا، تسلك أنت الدرب الجبليّ، الموصل إلى «شنارجق» وتحاول الابتعاد ما أمكن عن

الأمكنة المكشوفة.. ابق على مقربة من الدرب، لكن تَلَطَّ وراء أشجار السنديان، فإذا لم ألحق بك، اسأل عن بيت بدروس قره بتيان، وهو بيت في أوّل القرية، مسقوف بالقرميد الأحمر، وأمامه شجرة بلّوط ثخينة، اطرق الباب أولاً طرقتين ثم توقّف، ثم اطرق طرقتين اثنتين، وانتظر، وهذا أفضل من السؤال، فإذا سمعت صوتاً من الداخل قل: «أنا ستراك!» وكفى! بعد ذلك يرشدك العمّ بدروس إلى ما يجب أن تفعل، فاتبع الطريقة التي يوصيك بها، وكن حذراً جداً.

سأل جواد متلهفاً:

ـ وأنت!؟

أجابت ييرانيك:

ـ سأشاغل رجال الأمن بإطلاق بعض العيارات، ريثما تتمكن أنت من الهرب!

ـ هذا لا يمكن!

قالت ييرانيك بحزم:

ـ هذا هو الممكن! افعل ما أطلبه منك أو.. أقتلك!

ـ لا أصدق ما أسمع!

ـ صدّق!

ـ ولماذا؟

ـ هذه هي التعليمات! لنبدأ التجذيف، هيّا..

جذّف جواد وييرانيك ضدّ الريح، باتجاه الشمال، بذلا أقصى ما يستطيعان من جهد، إلاّ أن الريح كانت قويّة، والشختورة تقفز فوق الموج، ثم تهبط، وتعود إلى الصعود ثم إلى الهبوط، والضوء يطلع، رويداً رويداً، حتى صار الشاطىء منكشفاً، ولم يعد يجدي الانصرار في عباءة الغبش، فوقفت ييرانيك وقالت بعد تدقيق النظر:

- نجونا يا حبيبي! ليس من أحد على الشاطىء! في هذه البقعة على الأقل!

ابتسم جواد وقال فخوراً:

- كم أنت رائعة يا ييرانيك! نجونا بفضلك!

قالت بجدّيّة:

- لا تتعجّل، فقد يكونون في الغابة المقابلة، يروننا بمناظيرهم! إلى أين وصلنا!؟

أرسل جواد مجذافه عمودياً في الماء وقال:

- إلى عمق متر تقريباً!

- جذّف أكثر نحو الشاطىء.. أنا أدقّق النظر جيداً.. الحظّ يخدمنا كما يبدو.

جذّف جواد، وعندما لامس غاطس الشختورة الأرض قال:

- وصلنا!

قالت:

ـ سأنزل أنا أوّلاً.. فإذا فاجأتنا حركة ما، اغطس في الماء واذهب بعيداً، ثم اخرج واختفِ وراء أيّ دغل، وبعد زوال الخطر تذكّر ما أوصيتك به!

امتعض جواد، قال في نفسه: «لماذا هي ولست أنا؟ تضحية؟ شجاعة؟ كونها المكلّفة بإيصالي؟ مسلّحة؟ أنا أيضاً أعرف كيف أضحّي، ولا تنقصني الشجاعة، ومسلّح مثلها، وأعرف كيف أصل».

سألته بيرانيك:

ـ بماذا تفكّر؟ وهل هذا وقت تفكير؟ وهل لك رأي آخر؟

قال جواد:

ـ نعم! لي رأي آخر، لماذا تبرزين أنت وأختبىء أنا؟

قالت بيرانيك:

ـ لأنني امرأة، وأستبعد أن يطلقوا على امرأة!

ـ هؤلاء الوحوش لا يميّزون بين رجل وامرأة!

ـ لنفترض هذا، ولنقل إن أحدنا، في حال وجود كمين، سيُقتل، فلماذا تكون أنت لا أنا؟ هل هذا لأنك رجل، لأنك ذكر، وأنا أنثى!؟ كفّ عن هذا السخف، المناضلون لا يفكرون على هذا النحو! انتبه! سأقفز!

فعلاً قفزت، كان الماء يصل إلى الركبة، خوّضت بشكل مستقيم، بلغت الشاطىء، قرفصت والمسدّس بيدها، انتظرت قليلاً، راقبت الغابة التي أمامها، أشارت إلى جواد أن اقفز، قفز جواد، ترك الشختورة للموج، نظر إلى المركب الذي يضطرب بين الأمواج، قال لبيرانيك:

ـ نجحت الخطّة، لم نترك أثراً يدلّ علينا!

قالت:

ـ سأمشي أمامك، على مبعدة، ضع مسدسك وراء ظهرك، راقب أيّ إشارة تصدر عني، وعندما ندخل الغابة، سيكون في إمكاننا أن نستريح قليلاً!

بعد خطوات برز رجل يمشي على الطريق العامّ، لفتها جواد إليه، أشارت له أن اتبعني، تبعها جواد، ظلّ يراقب الرجل إلى أن اختفى، تساءل: «من يكون؟ ولماذا في هذا الوقت المبكر من النهار؟ هل هو صيّاد؟ هل هو حارس الغابة؟» بيرانيك لم تعر الرجل اهتماماً، انحرفت قليلاً في سيرها حتى تتفادى المواجهة معه، كانت تحترز أن يعرفها، وقد تمّ كل شيء على نحو جيّد، فلما دخلت الغابة توقّفت، قالت لجواد:

ـ الحمد لله على السلامة! هل أنت تعب؟ ثيابنا مبلّلة، لكنني أفضل المضيّ إلى عمق الغابة، هناك نكتشف ما حولنا، فإذا لم يكن أثر لأحد، نشعل النار ونجفّف ثيابنا، ثم نمضي.. هل أنت جائع؟ لا؟ أنا جائعة جداً.. لدينا خبز وبعض اللحم

القديد، سأتدبّر الماء، أعرف هذه الغابات كما أعرف راحة كفّي.. اطمئنّ!

قال جواد:

- معك فقط أطمئن!

- بسبب الحبّ؟

- بسبب الحبّ أولاً، وبسبب آخر سأقوله في حينه! إنني معجب بك إعجاباً لا يحدّ!

- هذا لأننا نجونا!؟ الأدق لأنك نجوت أنتَ!؟ أهمّ شيء عندي أن تنجو أنتَ.. تعرف لماذا؟

- لأنك تخافين عليّ!

ابتسمت ييرانيك وقالت:

- لا أزعم أنني لا أخاف، فأنا، وقبل كل شيء، من البشر، والبشر يخافون، بدرجات متفاوتة، غير أن المسألة الأهمّ، كوني كنت على قدر المهمّة، وقد أدّيتها على نحو جيّد.. هذا بفضل التنظيم من جهة، وبفضل حسن التطبيق من جهة أخرى.. لدينا مثل يقول: «كي تنجح، فكّر ثلاثاً قبل أن تبدأ!».

- أنتِ فكرتِ حتى المرة العاشرة، لأنني.. ماذا أقول!؟

ضحكت ييرانيك وقالت:

ـ لأنك حبيبي، أليس هذا ما تريد أن تقوله؟

ـ نعم يا بيرانيك، هذا ما أردت أن أقوله، فالحبُ، كما يقولون، يصنع العجائب! وخلاصي، الليلة، أعجوبة.!

ـ عندنا يقولون: «الحبّ أقوى من الخطر!» إلا أنّ الحبّ لا علاقة له بالنجاة من هذا الخطر.. صحيح أنني فكرت بالمهمّة أكثر من ثلاث مرات، إلاّ أن هذا له علاقة بالفكرة التي تجمعنا، أكثر من الحب الذي يربط بيننا.. ولكن في هذه النقطة فقط، نقطة العمل السرّيّ!

ـ الرفيق قبل الحبيب إذن؟

ـ هذا صحيح في المهمّات الحزبيّة، فقد يكون هناك رفيق لا ينسجم مزاجك مع مزاجه، لكنه رفيق نشيط، أمين، مخلص، وعليك أن تقوم بمهمّة ما لأجله، فماذا يكون موقفك؟ بالنسبة إليّ، أقوم بالمهمّة بكل ما أوتيت من قوّة وشجاعة، واضعة مسألة المزاج جانباً، هكذا تربّيت في منظّمة الشباب الديموقراطي، قبل أن أكبر وأستحق عضويّة الحزب.

سأل جواد:

ـ وإذا اجتمع الرفيق والحبيب في شخص، يكون الموقف ذاته؟

ـ يكون ذاته، إذا ما كان هذا الشخص يشعر بواجبه، كرفيق وحبيب في آن.

ـ وإذا كان لا يشعر هذا الشعور المتساوي؟ أي إذا ما كان حبيباً

أكثر منه رفيقاً؟

- هل هذا امتحان؟

- مجرّد رغبة في المعرفة.

- هل عندنا أم عندكم؟ أي هل هذا في كسب أم في دمشق أو اللاذقية؟

- وماالفرق؟

- لا أدري! عندنا يتقدّم، ويتفوق، شعور الواجب الرفاقي. . فكيف هي الحال عندكم؟

- ليست بهذه الدرجة من الارتباط العضويّ. . التنظيم لديكم أفضل، الرفاق الأرمن أكثر تنظيماً وانضباطاً من هذه الناحية! وهذه مجاملة. . أليس كذلك؟

ضحكت ييرانيك وقالت:

- لا تتّخذني معياراً، أرجوك، عندنا أيضاً بعض المنفلشين، الذين هم ضدّ التنظيم والانضباط، لكنّهم قلة!

قال جواد:

- عندنا كثرة، أو هكذا يخيّل إليّ أحياناً! عشت بينكم وأعرف الفارق.

توقفت ييرانيك فجأة، وضعت يديها على كتفيه وقالت:

- اسمع يا جواد، إذا كنت تراني بعين الحبّ، فالحبّ ليس

مقياساً يعوّل عليه، لذلك قالوا: «الحبّ أعمى!» وإذا كنت تتمدّحني فلست بحاجة إلى مديح، لم أقم إلاّ بواجبي، ثق بما أقول!

- المرأة عندنا مناضلة، عرفت الملاحقات والسجون، وقامت بأعمال بطولية، قبل أن يكون الحزب، وقبل أن تكون هي حزبيّة.. لنذكر الثورة السوريّة ضد الفرنسيين مثلاً، المرأة لعبت دوراً غير قليل، في إيصال الغذاء والسلاح والذّخيرة إلى الثوّار في الغوطة وغيرها.. مع ذلك..

قاطعته بيرانيك قائلة:

- هذه الـ «مع ذلك» أعرفها، لا تبالغ! المرأة شجاعة مثل الرجل دون هذه الـ «مع ذلك!». أضافت:

- نحن الآن في قلب الغابة، يمكننا أن نستريح، وأن نشعل ناراً خفيفة، وأن نأكل أيضاً!

- والماء؟

أخرجت من كيسها المشمّع مطرة قدّمتها إليه، لكن الماء في المطرة كان قليلاً، لأنهما استهلكا أكثره في المركب ثم في الشختورة، فقال وهو يبعد المطرة بيده:

- اشربي أنت أوّلاً!

سكبت بيرانيك الماء المتبقّي في المطرة على الأرض وقالت:

- «إن تكن مثلي أكن مثلك» هذا مثل أرمني قديم، لنأكل بغير

ماء!

قال جواد باستغراب:

ـ ولكن هذا من الطيش! وأنت لست بطائشة!

ـ من قال هذا؟

ـ أنا!

ـ أنت مخطىء! بعض الطيش، أحياناً، مفيد.. لا تكن جدّياً بأكثر من اللازم، كنا في مهمّة وانتهت! نحن، الآن، أحرار في الغابة، ونحن حبيبان، أليس كذلك؟ إذن لنعط بعض الوقت لقلبينا! هيّا! أشعل أنت النار، ريثما أجلب أنا الماء من نبع قريب!

قال جواد:

ـ إذا كان هناك نبع قريب، فإنّني سأشرب منه مباشرة، تعالي نستمتع قليلاً.. يا ربّي! كم من الأعوام مضت ولم أر نبعاً جبليّاً، صافياً، رقراقاً، وفي غابة أيضاً!

سارت إلى جانبه فَرِحَةً، لم تقل له: «لماذا تخاف عليّ!؟» قد يكون هذا ظناً ليس إلا، وربما كان يرغب حقاً في رؤية النبع، وفي الشرب منه مباشرة، إذن لتدعه ينسَى ليلة أمس قليلاً، ويتصرّف كطفل، فالكبار، أيضاً، يتصرّفون هكذا، ينسون في الغابة أنهم كبار في السنّ، يعودون إلى طفولتهم، إلى أيام الانبطاح وعبّ الماء الجاري، والركض، والاختباء، وتسلّق

الأشجار، وإشعال النار حتى دون الحاجة إليها، واللعب، كما أيّام زمان، بالعصيّ، والمبارزة فيها، وإلا لماذا الغابة؟ ولماذا المجيء إليها؟ وما نفع الوقار في غير وقته؟ ولماذا الوقار أصلاً، إذا لم يكن من طبيعة الإنسان؟ الغابة، كما البحر، فرْحة، إلا أن الناس، أكثرهم، نسوا الفرح، في غمرة المشاغل والأحزان.

في الطريق إلى النبع، وضع جواد ذراعه حول خصر بيرانيك، وراح يضغط برفق أولاً، ثم بقوة، ثم بقوة أشدّ، وهي تضحك قائلة:

- وبعدا؟

- احبّك!

- هل الضغط على الخصر من الحبّ؟

- من هنا نبدأ!

التفتت إليه قائلة:

- لا! ليس من هنا..

احتواها بين ذراعيه، أطبق فمه على فمها بعنف، قبلّها، قبّلها، قال:

- أنت على حقّ، من هنا نبدأ!

تملّصت من بين ذراعيه وركضت، لحقها، دارت حول شجرة سنديان، دار وراءها، اختبأت وراء صخرة وهي تقول:

- دعني أو أصرخ!

ـ وإذا صرخت؟

ـ يأتي رجال الأمن!

ـ ليأتوا!

ـ قبل أن نشرب!؟

ـ وماذا كنا نفعل الآن!؟

ـ نحترق قبل أن نشعل النار!

قال جواد وهو يحاول الإمساك بها:

ـ وبعد أن نشعلها!؟

قالت بيرانيك:

ـ نُطفئها رويداً، رويداً، رويداً!

٣

تذكّرت بيرانيك الأحداث، وهي قرب النار في الغابة، تجفّف ثيابها. قالت في نفسها: «أمر عجيب جداً، فقد كان من المفروض أن يكفّ الفرنسيون، بعد خروج الجنرال دانتز من سورية، عن ملاحقة جواد، لأن رفاقه الحزبيّين، وهم من القادة، وكذلك بعض الزعماء الوطنيّين، الذين كانوا في سجن «الميّة وميّة» في لبنان، قد أفرج عنهم الجنرال كاترو، إثر دخول قوّات فرنسا الحرّة إلى سورية ولبنان، في العام ١٩٤١، وصدور البيان الذي يتعهّد فيه الجنرال دي غول، بإعطاء هذين البلدين استقلالهما والجلاء فور انتهاء الحرب العالمية الثانية، باعتباره قائد هذه القوات. لكن قرار العفو، الذي شمل الآخرين، لم يشمل جواد، لأن ثمة التباساً في قضيّته، لم يحلّ إشكاله بعد، يتعلّق بتشابه الأسماء، وربما تطابقها، بينه وبين جواد آخر، من العائلة نفسها، متّهم بالعمل مع حكومة فيشي، المتعاونة مع الألمان في فرنسا.

«ولأن ناحية كسب تتبع محافظة اللاذقيّة، وجواد يعرف المنطقة جيداً، فقد كلّف بالعمل في هذه الناحية، قبل قيام حكومة

الجبهة الشعبيّة في فرنسا، وعندما كان الحزب ملاحقاً ومضطهداً أشدّ الاضطهاد في ذلك الوقت، ولهذا كانت قد صدرت في حق جواد عدّة مذكّرات توقيف، لم تلغ بحكم الروتين، ولأن المستشار الفرنسي في اللاذقيّة، كان معادياً للفكر الاشتراكي، وللاتحاد السوفياتي، حتى إبّان حكم الجبهة الشعبيّة في باريس، ولم يستطع الفرنسيون، رغم الملاحقات والمداهمات، القبض على جواد، وجاء تشابه الأسماء، حتى بعد طرد الفيشيين من سورية، ليزيد في تعقيد قضيته، فطلب منه الحزب البقاء في ناحية كسب، وقيادة العمل الحزبي فيها.

«هذا التعقيد، وظروف الحرب العالمية الثانية، وطبيعة ناحية كسب، المجاورة لتركيا من ناحية هاتاي (لواء اسكندرونة سابقاً) تضافرت كلّها لجعل وضع جواد خاصّاً جدّاً، مركبّاً جداً، قيل حوله الكثير، ونسجت الخرافات، وحيكت الإشاعات، وجرى التزايد والتضخيم، ولم يعرف الحقيقة سوى حنانيان، وإسحاق وارطانيان، الرجل المهاب، المحترم، المحبوب، البعيد عن السياسة كلّ البعد ظاهرياً، والذي رفض المخترة، رغم وجاهتها، لينصرف إلى عمله الخاص في إدارة مقهاه، والعناية بحقله الذي يعدّ من أجمل حقول الناحية، وأوفرها إنتاجاً، وكذلك بتجارته الصغيرة.

«وكان العمّ إسحاق، أو البارون إسحاق كما ينادونه، يرتبط بعلاقات تجارية مع اسكندرونة وليس مع اللاذقية، وكانت اسكندرونة، قبل أن يحتلّها الأتراك ويطلقون عليها اسم هاتاي،

المرفأ الأكثر ازدهاراً على الشاطىء السوريّ، لكونه الأقرب إلى حلب وشمال سورية، ولأن تجارة الداخل، وخصوصاً حلب، تتمّ عن طريقه، والجالية الارمنيّة في اسكندرونة مسيّسة، وهي الأنشط، وعلاقاتها بالجالية الأرمنية الكبيرة في حلب علاقة مميّزة، ذات وشائج كثيرة ومتينة جداً، فقد كان البارون إسحاق، الذي نجا من مذبحة الأرمن، ينطوي، كغيره ممن نجوا من تلك المذبحة، على كره للأتراك، ورغبة لا شعوريّة بالانتقام، وكان، لذلك، يحبّ بلده أرمينيا، بلده العزيز كما يقول، ويعتبر ييريفان عاصمة الدنيا، مختزلاً، على هذا النحو، كلّ العواصم بعاصمة واحدة، هي ييريفانه، معبودته، التي يتمنى أن يزورها، ولو لمرة واحدة، قبل أن يموت. هذا الحب لأرمينيا، قاده إلى علاقة طيّبة مع سركيس ماخيان، المسؤول عن الجانب الأرمني في منظمة الحزب في اسكندرونة، وكان يلتقيه كلما زار اسكندرونة، وكان يزورها كثيراً، بحكم علاقاته التجارية، ثم صار يزورها ليلتقي الرفيق ماخيان فقط.

«ذات يوم من شهر تموز، دعاه ماخيان لزيارة مصيف «نركزلك» الذي كان قرية أرمنية، تحوّل مع التطوّر إلى مصيف، يرتاده أرمن سورية بعامة، وأرمن حلب بخاصة. وخلال الحديث، حول كأس من العرق، تطرق البارون إسحاق إلى مسألة أرمينيا، كجمهوريّة سوفياتيّة مستقلّة، ضمن جمهوريات الاتحاد السوفياتي، معبراً عن أمله في أن يزور ييريفان قبل أن يموت. ضحك ماخيان وقال:

ـ تستطيع زيارتها متى شئت!

سأل بارون إسحاق:

ـ والإقامة فيها؟

ـ هذه غير مضمونة، فأرمينيا، بوصفها الحالي، لا تستطيع فتح باب الهجرة إليها، إلا أن هذا اليوم سيأتي من كل بدّ.. الأهمّ، الآن، أن نحوّل حبّنا لأرمينيا إلى عمل!

ـ وما هو هذا العمل؟

ـ أن ننشر حب أرمينيا بين الأرمن الذين يعيشون خارجها، وأن نعمل مع رفاقنا العرب، وهذه هي ضمانة النجاح.

ـ عن أيّ طريق؟

ـ صداقة الاتّحاد السوفياتي، بما فيه أرمينيا!

قال بارون إسحاق:

ـ هذا سهل جداً.

قال ماخيان:

ـ لا! ليس بسهل، فرنسا التي تحتلّ سورية ولبنان، ضدّ هذا، وكذلك حزب الطاشناق، وغيره وغيره! ثم إن العمل الفرديّ لا يأتي بنتيجة، الحزب وحده، وبنضاله، يحقّق مثل هذه النتيجة!

قال بارون إسحاق:

ـ أمهلني حتى أفكّر، وأدرس الوضع في منطقة كسب.

ـ افعل ذلك بسرّيّة تامّة.

ـ بسرّيّة ما بعدها سرّيّة، أعرف جيداً هذه الناحية.

«في شهر آب، التقى وارطانيان بماخيان وقاسم رضوان في مصيف آخر، هو «صاووق اولوق»[1]، في الجبال المحيطة باسكندرونة، وسكانه من الأرمن أصلاً، وقد طوّروا القرية التي بهذا الاسم، إلى مصيف شهير، بل أشهر مصيف في لواء اسكندرونة، وهناك تابع الرجال الثلاثة الكلام على الحزب، والنضال، والاستقلال، وجلاء القوات الفرنسيّة عن سورية ولبنان، وكذلك تكلّموا على أرمينيا، والاتحاد السوفياتي، وإنشاء خليّة حزبيّة في كسب، وتطوير هذه المنطقة إلى مصيف، وعن هذا الطريق يمكن اكتساب أعضاء جدد شيئاً فشيئاً.. مع ربط العمل للاشتراكية بالعمل للتحرّر الوطني، أي لتشديد النّضال ضد الاحتلال الفرنسيّ لسورية، لأنه بزوال هذا الاحتلال، يكون الاستقلال، ويصبح الحزب علنياً، أما قبل ذلك فلا!

ـ قال ماخيان:

ـ يجب أن نصبح، ومنذ الآن، جزءاً من حركة التحرّر الوطنيّ في سورية، وكذلك من حركة التحرّر الوطني العربية، وهذا أحد أهمّ بنود برنامج الحزب، لأنه لا تقدّم إجتماعياً بغير تحرّر وطني، ورفاقنا في دمشق وبيروت، يعملون على هذا الأساس،

(١) المكان البارد جداً ـ (تركية).

وبجرأة، وفي الطليعة، دون خوف من فرنسا وبطشها وسجونها، لأن علينا، في المسألة الوطنيّة، أن نكون حزباً صدامياً، مهما يكلّف ذلك من تضحيات.. هل تتابعني؟ وهل يوافق الرفيق رضوان على ما أقول؟ كلّ الموافقة؟ إذن كل شيء على ما يرام!

قال إسحاق وارطانيان:

- أتابعك بارون ماخيان، وأتفهّم كل كلمة تقولها، خاصّة في المسألة الوطنيّة، وكذلك كل كلمة يقولها الصديق رضوان، الذي سررت بمعرفته.

قال ماخيان:

- رفيقنا هايكاز هايكزيان، قاد، مع رفاق عرب قياديين، الإضراب الخمسينيّ ضد فرنسا في دمشق، وقبض عليه وهو في طليعة المظاهرة الكبيرة التي نظمتها الأحزاب الوطنيّة، ومنها حزبنا، للمطالبة بالاستقلال الوطني، وتأمين معيشة الشعب، وضد الغلاء، وهذه المطالب الحقّة، هي المحرّض على الإضراب الخمسينيّ، ورفيقنا في حلب، المحامي بيير شدرافيان، كان يدافع أمام المحاكم المختلطة (محاكم قضاتها فرنسيون وعرب) عن الوطنيين من حزبنا والأحزاب الأخرى، ويطالب، بجرأة نادرة، بالاستقلال الوطنيّ، ورحيل القوات الفرنسيّة عن سورية، لأن وجودها باسم الانتداب، هو وجود احتلاليّ، وقمعها للوطنيين، زعماء وافراداً، وحبسهم في قلعة ارواد، وتعذيبهم، هو ضد شعارات الثورة الفرنسيّة التي

يحتفلون بعيدها في ١٤ تموز من كل عام، وقد سجن الرفيق شدرافيان طويلاً، وعذّب، ومات تحت التعذيب، وهناك، أيضاً، الرفيق ارتين مادويان، وهو من بين قادة الحزب، ومن المناضلين ضدّ الاحتلال الفرنسيّ، وضد النازية والفاشية، وقد سجن، أيّام حكم الفيشيين في سورية، في «الميّة وميّة» مع فرج الله الحلو وعاش ملاحقاً، وكان من أكفأ القادة، في التنظيم وفي النضال السرّيّ، بدأب وجلد وقدرة على الاحتمال والمقاومة، وكان الرفيق الأمين العام يثق به كثيراً.

قال بارون وارطنيان:

- سمعت باسم هايكاز هايكزيان وارتين مادويان وبيير شدرافيان وآخرين، لكنني لا أعرف عنهم إلا ما سمعته منكما يا عزيزيَّ رضوان وماخيان، وبودّي أن أعمل شيئاً، أنا الآخر، لكن لا بد من مساعدتكم لنا، في البدء، كي نقف على أقدامنا.

قال رضوان:

- في البدء دافعوا عن قضايا الناس، اكتبوا العرائض، اجمعوا عليها التواقيع، في سبيل شق هذا الدرب، أو إنشاء ذلك الرصيف، أو تزفيت الطريق إلى كسب من المفرق، أو تحسين الرغيف، وتأمين النظافة، وجعل كسب مصيفاً، وإنشاء فندق أو أكثر فيه، لجلب المصطافين، من اللاذقية والمدن الداخلية، وبهذا وحده تزدهر المنطقة، ويستفيد السكان.

قال وارطانيان:

ـ هذه أفكار جيدة، وأنا معك يا رفيق رضوان، بأن البدء يكون بالدفاع عن مصالح الناس، حتى البسيطة منها، وتقديم عرائض بها إلى بلدية كسب، وبعدئذ إلى محافظ اللاذقية، مباشرة أو عن طريق مجلس المحافظة، لكن ماذا بشأني أنا؟

أجاب ماخيان:

ـ أنت معروف في كسب، ومحترم جداً.. انت بارون..

ضحك بارون وارطانيان وقال مقاطعاً:

ـ من أين لكما هذه المعلومات، عني وعن غيري، وعن وضع منطقة كسب واللاذقية؟ هل لديكم رفاق هنا وهناك؟

ابتسم رضوان وقال:

ـ تريد أن تعرف كل شيء، في جلسة واحدة، يا صديقنا العزيز؟

ـ لا! هذه أمور سرّيّة.. يكفي أن أعرف ما يخصني أوّل الأمر!

ـ ما يخصّك أن تهتم بمطالب المنطقة فقط، في الوقت الحاضر، ودون أيّ كلمة عن أيّ تنظيم حزبيّ، عليك أن تعمل من وراء ستار، وأن تحذر، وتخفي أفكارك ونواياك، وتتخفى جيّداً! أنت مهمّ لنا الآن، ومهمّ أكثر في المستقبل، لذلك نحرص على بقائك في الظلّ.. هل لديك أسئلة أخرى؟

ـ أسئلة كثيرة، ولكنها تأتي في وقتها!

ـ تماماً!

ـ وماذا عن صلتي بكما، هنا في اسكندرونة؟

ـ نحن نجتمع في بيت وليس في مقهى، لدينا رفاق كثر، وبيوت كثيرة، في كلّ منطقة، في كلّ قرية من اسكندرونة، إنما لقاؤنا، بعد اليوم، يجب أن يحاط بسرّيّة أكبر، دَعْ تنظيمها لنا!

«وقف الثلاثة، تعانقوا، شعر بارون وارطانيان بروح جديدة، حركت دورته الدموية، كما بعد مزاولة رياضة ما، وبعد العناق الحارّ، أحسّ أنّه صار غيره، صار مسؤولاً ولديه قضيّة، وقبل أن يفترقوا سأل البارون ماخيان:

ـ هل تحبّ أرمن كسب، ومنطقتها، وناسها؟

ـ ليس كلهم!

ـ لماذا؟

ـ لأن هناك دعاية مضادّة للاتّحاد السوفياتيّ، تقوم على اعتبار أرمينيا جمهوريّة تابعة، أو غير مستقلّة تماماً؟

ـ من يقوم بهذه الدعاية؟

ـ أنت تعرف! واسأل الرفيق رضوان، فقد زار كسب، مراراً، متخفيّاً، وكذلك اللاّذقية، وهو جيّد المعرفة ببعض الناس هناك!

ـ لا أعرف بالضبط!

ـ هذا ما يجب أن تعرفه بالضبط.

أضاف ماخيان:

- هل هناك تنظيم للطاشناق في كسب؟

- ربما!

- ربما هذه ليست جواباً، الجواب يوجد أم لا يوجد!

- في لقائنا القادم ستكون الأجوبة محدّدة تماماً.. نعم! يوجد حزب للطاشناق، متى نلتقي ثانية؟

- أنت تاجر، وتأتي إلى اسكندرونة لأجل أعمالك التجاريّة، وهذا غطاء جيّد.. نحن سنعرف متى تأتي، ومتى يكون ضرورياً اللقاء بك، بين الرفيق رضوان وبيني!

قال بارون وارطانيان:

- كلّ شيء في سبيل أرمينيا يهون، يرفان يجب أن تكون عاصمة دولة كبيرة، دولة عظمى، وماذا ينقصها أن تكون هذه الدولة؟ لا تصدّق يا عزيزي ماخيان، أن هناك أرمنياً واحداً، في كل أنحاء العالم، وسواء كان غنيّاً أو فقيراً، يساريّاً أو يمينيّاً، إلاّ ويضحّي في سبيل أرمينيا، بروحه وماله وأولاده أيضاً، أنا على خطأ أم صواب؟

قال ماخيان وهو يودّعه:

- هذا متروك للمستقبل يا بارون، أرمينيا التي تحلم بها ستكون، لأنها جديرة بأن تكون، لكن ضمن الاتحاد السوفياتي لا خارجه، ضع هذا في أساس عملك لأجل أرمينيا الكبرى،

القويّة، التي يحسب العالم حسابها، أما التضحية فإنّها نبيلة في ذاتها، وكل أرمنيّ في العالم لا يبخل بهذه التّضحية، إلاّ أنّ السؤال هو: التضحية لأجل أيّ أرمينيا؟ نحن، من جهتنا، نعمل لأجل أرمينيا اشتراكيّة لا رأسمالية، وإلاّ فإنّ تضحيتنا ستحتاج إلى تضحية ثانية، إذا ما تطلّب الأمر أن نحقّق العدالة الاجتماعية.. هناك، يا بارون، من هو على استعداد للتضحية بماله، في سبيل أرمينيا رأسماليّة، وخارج الاتّحاد السوفياتي، وعلينا أن نراقب نشاط أمثال هذا المضحّي في سبيل غاية خاصّة، هي نقيض غايتنا، مع السلامة!

«خرج بارون إسحاق وارطانيان، من هذا اللقاء، بفهم جديد لموضوع أرمينيا التي يحبّها، ويريدها قويّة. وفي فندق عيواظيان الكبير، في مصيف «صاووق اولوق»، جلس في الشرفة التي تطلّ على وادٍ عميق، كثيف الشجر، يانع الخضرة، وفكّر، بتأنٍ، حول كل ما سمع من ماخيان ورضوان، حول كسب واللاذقيّة وضرورة الاهتمام بهما، حتى تصبح كسب مصيفاً كهذا المصيف، وحول الاشتراكية وضرورتها لبناء عالم جديد، وحول العمل السرّيّ ضد فرنسا واحتلالها لسورية، وكذلك حول القضية الوطنية، وما قام به أرمن سورية ولبنان لأجلها، وأخيراً حوله هو، كتاجر صغير، وما قد يتعرّض له من أذى إذا انكشف أمره، وتساءل: «كيف يكون هناك تنظيم سرّيّ، لليسار ولليمين، لم أسمع به أنا، ولا أعرف عنه شيئاً؟ فرنسا لا تحارب الطاشناق، فلماذا؟ هل لأنهم معها؟ هل لأنهم ضد أرمينيا كجمهوريّة سوفياتيّة؟ وما هو مصدر

قوتهم؟ الأغنياء الكثر بينهم؟ ولماذا يعادون اليسار الأرمني، والأرمن يجب أن يكونوا قلباً واحداً ويداً واحدة. هذا خطأ؟ هذا صواب؟ هذا عسير الفهم؟ لا! إنني أفهم، لكنني لا أعرف. الطاشناق، في بيروت، حاولوا جذبي نحوهم، واليساريون، في اسكندرونة، يحاولون، الآن، جذبي نحوهم أيضاً؛ لهذا يجب أن أطالع، أن اقرأ بعض الكتب، بعض الصحف، أن أفهم قبل أن أقرّر؛ إلاّ أنّ مسألة الاهتمام بكسب، التي كلّفني بها ماخيان ورضوان، لا علاقة لها بالسياسة، لا علاقة لها بأيّ تنظيم حزبيّ، إنها خدمة اجتماعية، تنفع ولا تضرّ، وماذا يريد أهالي كسب سوى النفع؟ سوى تحسين وضع هذه المنطقة؟ وإذا كان حبّ أرمينيا كما هي الآن، يعني وقوفي مع اليسار، فأنا مع اليسار، على شرط ألاّ تمسّ مصالحي، وخاصة التجارية منها.. هنا «ستوب»! أعبدك يا ربّ طاقتي، وطاقتي محدودة، أتحرّك ضمنها، وضمنها فقط».

«كان سركيس ماخيان، يعرف أن بارون وارطانيان صديق لا أكثر، وأنه ملاّك، وتاجر صغير، وذو مكانة اجتماعية، وهو ينفع، الآن، ضمن هذه الحدود لا أوسع منها، وما دام على علاقة لا بأس بها معه ومع رضوان، فإنه قد يتطوّر في المستقبل، ويمكن، في لقاءات مقبلة، إعطاؤه صحيفة ما، كراساً ما، وليكن القاسم المشترك بيننا وبينه حب أرمينيا الاشتراكية السوفياتيّة، فهذا الحب يميّزه عن الآخرين، عن الذين يريدون، ويعملون، ضد أرمينيا الحاليّة، وقد كلفناه بعمل مفيد لكسب اجتماعياً،

لأنها ذات موقع جبليّ ممتاز، هواؤها جافّ، وطبيعتها خلاّبة، وغاباتها كثيفة، تشرف عليها البلدة من علٍ، من خاصرة الجبل الذي تتدرج البيوت، بقرميدها الأحمر، على مرتفعاته.

«خسارة - قال قاسم رضوان لأعضاء منطقية اسكندرونة - خسارة ألاّ يوجد في مدينة اللاذقيّة، حتى الآن، ولو خليّة صغيرة للحزب، وحتى نقابة واحدة، مع أن فيها تجمّعين كبيرين للعمّال، هما شركة الريجي والمرفأ، وريفها فقير أشدّ الفقر، وليس هناك أيّ تفكير نقابيّ، والسبب أن الشعب، في اللاذقيّة وريفها، غير مسيّس، بخلاف كل المدن السوريّة الأخرى، حتى الصغيرة منها، ولا بدّ من الاهتمام بهذه المحافظة، لأن كسب تابعة لها، ووجود فرع للحزب في اللاذقية، يعطي دفعاً لفرع الحزب في كسب، ولقد زرت اللاّذقيّة مرات عديدة، بقصد الاستطلاع، دون أن أوفَّق إلى التفاهم التام مع أحد من سكانها، بما في ذلك عمال الريجي والمرفأ، إلا أن شيئاً جديداً بدأ يظهر وستكون هناك نقابات، وتكون خليّة حزبيّة، ورفاق حزبيّون ونقابيّون.

سأل رفيق من المجتمعين:

- هل في اللاذقية أرمن؟ وكم عددهم تقريباً؟

قال ماخيان:

- لا أعرف بالضبط، لكن عددهم قليل جداً، وهم حرفيّون غالباً، وهناك «كامب» صغير لهم، فيه كنيسة، وربما مدرسة، إلا أن أحداً منهم لم يفكّر حتى بالدعاية لإنشاء نقابة، فكيف بإنشاء

خليّة للحزب؟ ثم إن خليّة لا تكون من أبناء اللاذقية، ومن العرب خصوصاً، لا تكون فعّالة. . لندع المسألة لرفاقنا المقبلين في هذه المدينة المهمّة.

قال عضو آخر:

ـ حيث لا يوجد حزب، لا توجد حتّى رائحة للفكر الاشتراكيّ! المسألة تتوقّف على خليّة من الرفاق العرب أولاً.

قال رضوان:

ـ هذه كل المسألة يا رفيق، الرفاق العرب نشيطون، ولهم أسبقيّة في هذا المجال، إلا أن رهن المسألة بوجودهم، حصراً، أو عدم وجودهم، خطأ! قد يكون لنا في البدء أصدقاء، أصدقاء نقابيّون فقط، ومن الجميع، لنترك المبالغة.

ردّ عضو آخر، كان صامتاً حتى الآن:

ـ لا مبالغة يا رفيق رضوان، تذكّر أن كثافة النقابيّين في بيروت لعبت دوراً مهماً، وهذا أمر معروف.

قال عضو رابع:

ـ وعدم كثافة النقابيّين في اسكندرونة، لعبت دوراً سيّئاً، فبماذا نفسّر هذا الأمر؟

قال عضو خامس:

ـ بكون النقابة هي التمهيد الضروريّ للفكر الاشتراكيّ، ومن هنا

يجب أن يبدأ العمل في اللاذقيّة أو غيرها!

قال رضوان:

- هذا عنصر في المسألة لا أكثر.. خذوا حمص مثلاً، النقابيوّن فيها يُعدّون على الأصابع، ومع ذلك فيها فرع قويّ ونشيط للحزب، ومن أبناء حمص ذاتها، ومن العرب المسلمين وغير المسلمين.

قال أمين سرّ المنطقة:

- هذا صحيح، من حيث المبدأ.. سوريّة بلد عربيّ إسلامي، ودون ظهور عناصر من قلب البلد، تعتنق الفكر الاشتراكي، لا يمكن أن يتجذّر هذا الفكر!

- وماذا نقول عن حلب؟.. الرفاق الأرمن لعبوا دوراً مهمّاً، بسبب كثافتهم في حلب.

قال ماخيان:

- مرة أخرى أؤكد، وجود الأرمن في حلب عنصر من العناصر فقط، دعونا من المبالغة! لولا الرفاق العرب ما كان هناك حزب.

أضاف:

- حزب الشعب في لبنان، الذي منه انبثق حزبنا، تأسّس عام ١٩٢٥، وقادة حزب الشعب كانوا عرباً، مثل فؤاد الشمالي، وتوفيق ابراهيم يزبك، والشاعر الياس أبو شبكة وغيرهم.

ـ ألم يكن بينهم، في القاعدة، أرمن أيضاً؟

ـ كان من غير شكّ، الأرمن لعبوا دوراً في القاعدة، وأحياناً في القيادة، لنذكر ارتين مادويان.

ـ ولنذكر سليم خياطة، الذي نظَّر للحركة. . في كتبه الكثيرة!

ـ وأنت يا رفيق ماخيان، ألست في القيادة الآن؟

قال ماخيان:

ـ نعم! أنا في القيادة، وقد يكون للرفاق الأرمن الأوائل دور في التبشير، لكن القياديين العرب، وهم معروفون، عرّبوا الحركة، جعلوا من الحزب حزباً عربيّاً نابعاً من الشعب في لبنان وسورية! هذه هي الحقيقة التاريخيّة، والرفيق قاسم رضوان شاهد على ما أقول، إنه من القياديين، ومنظّمة الحزب في اسكندرونة مدينة له بطابعها العربيّ.

ضحك قاسم رضوان وقال:

ـ كلّ هذا النقاش أثاره عدم وجود منظّمة للحزب في اللاّذقية؟ ستكون هذه المنظّمة يوماً ما، وستطلع من اللاذقية نفسها، فلماذا العجلة؟ المهمّ، الآن، أن نهتم بمنظمة كسب الوليدة، والرفيق ماخيان يتولّى هذه المهمة، وأنا واثق من نجاحه، وسيطلعنا، في حينه، على كل جديد في هذا الموضوع، هل أنتم موافقون؟

ـ موافقون!

قال ماخيان:

ـ إذن انتهى الاجتماع، شكراً.

«خرج الجميع من المكتب، باستثناء رضوان وماخيان، لم يكونا قلقين، ومن المستبعد أن تكون هناك حملة اعتقالات واسعة تشملهما، إلا أن الأخبار غير مطمئنة، بعد مظاهرة أمس ليلاً، أمام السراي، حيث رشق المتظاهرون الشرطة بالحجارة، مطالبين بإطلاق سراح زكي الارسوزي، الذي جاء بدعوة من «عصبة العمل القومي» لإلقاء محاضرة في مقرّ العصبة، فداهمت الشرطة، بقيادة مفوّض فرنسي، مقر العصبة، واعتقلت الأستاذ الأرسوزي، وفوراً قامت مظاهرة عفويّة، اشتركت فيها كلّ الأحزاب والقوى الوطنيّة، تجمّعت أمام مقرّ العصبة، وسارت نحو السراي، إحتجاجاً على الاعتقال، وللمطالبة بإطلاق سراح الارسوزي، لأن الاجتماع الذي عقده لم يكن بحاجة إلى ترخيص، والاستاذ الارسوزي لم يكن ممنوعاً من دخول اسكندرونة، والمظاهرة سلميّة ذات مطلب عادل.

«وقد تقرّر، قبل انطلاق المظاهرة نحو السراي، أن يقوم وفد، بين أعضائه قاسم رضوان، وسركيس ماخيان الذي يجيد الفرنسية، وأعضاء من قيادة عصبة العمل القومي، ومن المستقلّين، لمقابلة المستشار، والاحتجاج لديه على الاعتقال، والمطالبة بإطلاق سراح الارسوزي المعتقل فوراً، وعدم تكرار مثل هذه الأعمال القمعيّة، غير الجائزة قانوناً، لكن مفوّض الشرطة الفرنسيّ منع دخول الوفد إلى السراي، ورفض

الاحتجاج، كما رفض إطلاق سراح الأرسوزي المعتقل، وأمام هذا التصرّف الأرعن، ثار المتظاهرون، وأخذ بعض الشباب من بينهم بمحاجرة السراي، فردّ المفوض سيزار، المعروف بقسوته وعدائه، بإعطاء الأمر بإطلاق النار على المتظاهرين مباشرة، وهو ما أوقع بعض القتلى، والعديد من الجرحى، وكان الرفيق خضر العبد الله، من بين القتلى.

قال ماخيان لرضوان، وهما يتداولان في الأمر:

- طيّرنا برقيّة احتجاج إلى المندوب السامي، وإلى وزير الداخليّة في دمشق، وإلى الكتلة الوطنيّة، وفي الصباح التالي أطلق سراح الاستاذ الارسوزي، واعتذر له المستشار شكلياً، إلا أن الشرطة رفضت إطلاق سراح بعض المعتقلين، من بين المتظاهرين، ومنهم عدد من رفاقنا، وزادت فاعتقلت عدداً آخر، وطلبت دفن الشهداء القتلى بغير تجمّعات أو خطابات، فكيف دفن رفيقنا الطالب خضر عبد الله؟

قال رضوان:

- دفن بموكب حافل، وقد أبّنته باسم الحزب في المقبرة، وأبّنه مندوب من العصبة، ومندوب آخر عن الكتلة الوطنية، وكذلك كان دفن القتيلين الآخرين، أحدهما من أعضاء العصبة، والآخر طفل لم يبلغ العاشرة من عمره، دفعه الحماس والرغبة في الفرجة، للاشتراك بالمظاهرة.. المدينة في حالة غليان، ولا بدّ من الحذر.

قال ماخيان:

- هذا صحيح. . هناك شيءٌ ما يدبّر بالنسبة للواء اسكندرونة، لا ندري ما هو بعد، رأيي أن يسافر أحدنا إلى دمشق، لشرح ما حدث، والتشاور مع الرفاق في القيادة، حول هذه الأحداث، وأسبابها، والاتّجاه الذي يمكن أن تتخذه، والاتفاق على خطّة للعمل والمواجهة، إذا ما حدثت.

سأل رضوان:

- هل العمليّة مبّيتة في رأيك؟

قال ماخيان:

- هذا ما أرجّحه، لذلك أرى أن تسافر يا رفيق رضوان غداً صباحاً إلى دمشق، بعد أخذ رأي رفاقنا في اللّجنة المنطقيّة الليلة.

- ألا ننتظر قليلاً لمعرفة التطورات؟

- هذا ما تقرّره اللجنة!

«وفي الليلة نفسها، اجتمعت اللّجنة وقرّرت سفر قاسم رضوان إلى دمشق، في صباح اليوم التالي، وفعلاً سافر رضوان في الصباح الباكر، وكان على شبه يقين، من أنّ امراً ما يُدبّر للواء الاسكندرونة، وأن المعركة ستحتدم حول هذا الأمر، الذي هو مؤامرة، ضالعة فيها فرنسا، ورأسها بريطانيا، التي لن تخسر شيئاً بمراضاة تركيا على حساب سورية!».

ذكريات تتلوها ذكريات، وكلّ شيء أكيد فيها، فقد قصّها عليها البارون وارطنيان، كما جرت معه بالتمام، والثغرات سدّها الرفيق ماخيان، حين التقته بيرانيك في اللاذقيّة، ولعب خيالها دوره أيضاً، فقد كان لها خيال خصب، وكانت أديبة دون أن تكتب الأدب، وفي وسعها، تخييلاً، أن تنشىء من خبر، حادث، مشهد، قصة طويلة، بل طويلة جداً! أما الأحداث الأخرى، فقد تركتها، متعمّدة، لتسلسل وقائعها، كما جرت، وكما وعتها ذاكرتها!

٤

قبل أن يشعل جواد النار في الغابة، سأل ييرانيك:

ـ هل أنتِ واثقة ألا خطر من إشعالها؟

ـ واثقة تماماً!

ـ والفرنسيون الذين يتبعون أثري؟

ـ ينامون الآن في المخفر!

ـ الرقيب الفرنسيّ، رئيس المخفر، كالثعلب، ينام بعين واحدة!

ـ ورفاقنا في كَسَب لا يغفلون عنه ابداً. . إنهم يراقبون تحرّكاته بدقّة.

ـ وهل يعرفون أننا نجونا من مطاردته ليلة أمس؟

ـ يعرفون.

ـ كيف!؟

نظرت إليه ييرانيك ضاحكة وقالت:

ـ «ضربوا في المندل!»

ـ بالنسبة لي، الأمر سيّان، أنا أسأل لأجلك، ولأن..

قاطعته بيرانيك مستغرقة في الضحك:

ـ.. اليقظة الثوريّة ضروريّة!

انزعج جواد من ضحكها، ومن أجوبتها الساخرة، ومن نكتتها حول «اليقظة الثورية» لذلك قال بجدّية بالغة:

ـ «هناك وقت لجمع الحجارة، ووقت لتفريقها!»

سألته دون أن تكفّ عن الضحك:

ـ من هو صاحب هذه الحكمة؟

ـ أبونا الذي في السموات..».

ـ تسخر؟

ـ أنا لا أسخر في مواقف الجدّ، وهذه التي تسمّينها حكمة هي كذلك فعلاً، بصرف النظر عن قائلها.

ـ وهل كنت تعلّمها لتلاميذك؟

ـ نعم! والآن أعلّمك إيّاها!

ـ وإذا كنت غير محتاجة إليها؟

ـ هذا شأنك!

ـ وشأنك أنتَ؟

ـ التعلّم، وباستمرار!

ـ إذن تعلّم مني! عدّ على أصابعك: الرجل الذي رأيناه صباحاً هو رفيق لنا، هذا أولاً؛ وهذا الرفيق كان يراقبنا من الغابة ونحن في الشختورة، هذا ثانياً؛ وبعد أن خرجنا من الماء واتّجهنا إلى الغابة، ذهب ليخبر الذي أرسله أننا نجونا، هذا ثالثاً؛ وأنا أعرف الغابات هنا شبراً شبراً، وهذا رابعاً. .

قاطعها جواد ضاحكاً:

ـ وخامساً؟

ـ الرقيب الفرنسي يغطّ في النوم، بعد أن أنهكناه بمطاردتنا دون أن يستطيع القبض علينا.

ـ وسادساً؟

ـ لنا، نحن، عيون في وجهه، وآذان في رأسه، ومخبرون يختبئون في شعره!

ـ وسابعاً؟

ـ أشعل النار لنجفّف ثيابنا المبلّلة، وبعد ذلك نأكل قليلاً مما معنا!

ـ ومتى نذهب إلى النبع مرّة أخرى؟

ـ القديس أندرياس سيقول لنا! ثم لماذا الذهاب إلى النبع والماء معنا في المطرة؟

ـ لأن الشرب من النبع له لذّة خاصة!

ـ واحتواء خصري بذراعك، له لذّة خاصّة أيضاً؟

ـ هذا متروك لك!

ـ ما دامت الأمور متروكة لي، فافعل كما أطلب منك: أشعل النار، وبسرعة!

ـ ولماذا أشعل النار إذا كنتِ، كما فعلتِ قبل قليل، تطفئينها رويداً، رويداً، رويداً؟

قالت يرانيك ضاحكة:

ـ لأن إشعال النار له وقت، وإطفاءها له وقت آخر!

ـ حكمة من هذه؟

ـ حكمتي أنا!

ـ هذه حكمة أم أمر؟

ضحكت يرانيك وقالت:

ـ هذا قرار!

أضافت وهي تنهض:

ـ هل أنا مخطئة؟ كل فعل يتمّ بقرار عندهم، فلماذا نكسر نحن القاعدة؟

ـ لأننا في الغابة، والجوّ، كما ترين، رومانسيّ جداً. . ألست من أنصار الرومانسية؟

ـ أنا من أنصار الواقعيّة في المهمّات الحزبيّة. . هيّا نجمع الحطب ونشعل النار.

جمعا حطباً كثيراً، خلعت بيرانيك جزمتها وجوربها وقرّبتهما من النار، كانا في أواخر ايلول، وقد بدت ملامح الخريف المبكر على الغابة، وراحت أوراق الأشجار تتساقط، وكانت النسمات الصباحيّة لاذعة البرودة، والعصافير تستيقظ، تزقزق، تتطاير، يخبر بعضها بعضاً أن ثمة ضيفين في الغابة، شابيّن وعاشقين، والشمس تطلع من الشرق في ونى، لتقوم بدورتها المعتادة، الروتينية والمملة، ومن الفجوات، بين أغصان الصنوبر والعرعر والشربين، تبعث بخصلاتها الذهبيّة هدايا للغابة المقدّسة، كطليعة ركب فضّيّ من نور النهار، الذي هزم الليل كعادته كل صباح، والذي ستهزمه الظلمة كلّ مساء، وفق نظام سنّه وطبّقه الكون العجيب! وكان الصمت المرين يعطي مهابة للغابة، ومن هيكل الأشجار المتسامقة، المتجاورة، المتعانقة أغصانها، ينبعث لحن بيزنطي، لجوقة العذارى التي تقدّم تراتيلها الابتهاليّة لسيدة الوجود، ذات الأسماء العديدة، بقدر ما اخترع الإنسان، واجترح من أساطير وخرافات، وثمة نداء عميق، يأتي من أمداء الغابة البعيدة، قائلاً بصوت فيه عذوبة وحنان «تعالوا إلي أيّها المتعبون وأنا أريحكم!».

ولأن جواد وبيرانيك كانا متعبين، فقد جلسا حول النار متقابلين، يفصل بينهما اللّهب والدخان، وكل منهما يخفّف ما تبلّل من ثيابه، محاولاً، قدر الإمكان، غض النظر عن المكشوف من جسم الآخر، مراعاة لحرمة ما ينبغي أن يُخفى، لإحساسهما المشترك بأنهما يقومان بمهمّة حزبيّة، لا بمغامرة غرامية، وأن

عليهما الإسراع، بقدر ما تسمح النار، بارتداء ثيابهما التي جفّفها الوهج، وستزيد في تجفيفها الشمس التي تتسلّق، دون مرقى، البساط الأزرق المكوّر على شكل قبّة من فوقهما.

قال جواد:

ـ للغابة دائماً إغراؤها، لكنني، الآن، أحسّ بهذا الإغراء دون معرفة شكله أو غايته.

قالت يرانيك:

ـ تعلّمت، لكثرة ما وجدت نفسي في الغابات المحيطة، أن أعرف معنى هذا الإغراء وغايته!

ـ هل يمكنني معرفتهما؟

ـ طبعاً لا!

ـ هل هذا سرّ حزبيّ أيضاً!

ضحكت يرانيك وقالت:

ـ هل أصبت بعدوى التنكيت؟

أضافت:

ـ الأسرار الحزبيّة بعيدة عن مثل هذه الإغراءات.. نحن نتحدّث عن الطبيعة وإغراءات الطبيعة، والفارق، هنا، كبير جداً!

قال جواد:

ـ «ربّ تلميذ فاق أستاذه!» ونحن الآن، ومنذ مدّة أيضاً، أمام

وضع كهذا!

- وهل يسوؤك أن أكون، في بعض الحالات، متفوّقة على أستاذي؟

- التفوّق نعم! ولكن العنجهيّة لا!

- العنجهيّة، بمعنى الاعتداد الخالي من الغرور، صفة حميدة.. أنا أحبّ العنجهيّة التي من هذا النوع!

- أنت تحبّين أشياءك كثيراً، وهذا لا علاقة له بالموقف الصحّ! انتبهي إلى هذه النقيصة، وتذكّري، جيداً، من أنا، وفي أيّ بلاء نحن!

قالت وهي تعانقه:

- أنت حبيبي! ألست أنا على حق؟

- لا! أنا رفيقك أولاً! لا تنسي هذا..

- زعلتَ؟

- تألّمتُ!

قالت ييرانيك بنبرة آسف:

- هذا من حقّك!

- ومن حقّي أن أعيد عقلك إلى رأسك من حين إلى حين.. إنني أستعير عبارتك: «نحن لا نلعب!» نعم يا ييرانيك، نحن لا نلعب! إننا أصحاب قضيّة، ومن يكن دون قضية يكن تافهاً،

وقد أثبتِّ، وبنجاح، أنّك صاحبة قضيّة، ومن هنا تقديري لك، تقديري الكبير.

قالت هازئة من انقلابه النفسيّ، واصطناعه الجديّة غير المبرّرة، وغير الصحيحة:

ـ وحبّك لي؟

ـ يأتي بالدرجة الثانية!

ـ دائماً؟

ـ أحياناً!

ـ ولماذا أحياناً؟

ـ لأن هناك، في بعض المواقف، ما هو أهم من الحبّ!

ـ لا تكن دوغمائياً!

ـ هذه الكلمة، في هذا السياق، كلمة بائخة! أنت، بصراحة، غير متزّنة وغير جدّية، لكن ليس دائماً!

ـ ثم ماذا؟

ـ متناقضة بين لحظة ولحظة!

ـ وبعد؟

ـ دعيك من هذه السخرية اللفظيّة، فقد عرفت الكثير منها، صدرت عن رجال ونساء، ولم يكن لها أيّ جدوى ولا أيّ مقابل، لأنها مجانية، والمجاني لا يستحقّ مجرّد الردّ، لأننا

بذلك نعطيه اعتباراً لا يستحقّه!

ـ وهل أفرغت جعبتك من النقد؟

قال جواد:

ـ هذا ليس نقداً، النقد يكون عندما يكون الخطأ، أنا لا أقول إنك مخطئة، لكنك متشوّفة، ولديك ميل دائم إلى السخريّة، إلى العبثيّة، إلى إشعار الآخر بأنك أكثر ذكاءً، وربما أكثر جرأة، وأنا، الآن، لست في موقف نقد، وإنما في موقف إبداء ملاحظات فقط!

قالت ييرانيك:

ـ هل هذا كل ما لديك؟

ـ تقريباً، وفي الوقت الحاضر!

ـ اسمع إذن! أنت حانق، وسبب حنقك معروف، وقد كتمت غيظك لأنني انتقدت بعض التجاوزات، وبعض الكليشيهات، وكثيراً من الجمود العقائدي في الحزب، فجئت، الآن، تزعم أنني ساخرة، وغير متّزنة، وغير جدّية، ومتناقضة في أقوالي، وأن عليك (ولا أدري من كلّفك بهذه المهمة!) أن تعيد عقلي إلى رأسي من حين إلى حين.. تفضّل أعده! لكن اعترف: أنت تريد إحاطة خصري بذراعك، وحتى تقبيلي، وهذا لن يكون، الآن على الأقل!

فكر جواد وهو يسرح في الغابة قائلاً في ذاته: «ييرانيك

انتقدت أشياء كثيرة، قد أنتقدها أنا نفسي، ولم تسبّب لي إنزعاجاً أو حنقاً أو غيظاً أكتمه في ذاتي، ومع أن للانتقاد البنّاء مكاناً وزماناً غير هذا المكان وهذا الوقت، فقد وجدتُ الأمر طبيعياً، والسخرية، أحياناً، أحد أساليب هذا النقد، وكذلك النكتة، عندما تكون في وقتها، إلا أن بيرانيك، ودون مبرّر، عادت إلى السخرية من «اليقظة الثورية» جواباً على سؤالٍ جدّي، حول ما إذا كان الرفاق في كسب يعرفون أين نحن في الغابة، وهل عرفوا، قبل ذلك، أننا نجونا من المطاردة، ولما قلت لها «إن لجمع الحجارة وقتاً، ولتفريقها وقتاً» زادت دعابتها إلى حدّ لا يطاق، فسألت بسخرية: «من هو صاحب هذه الحكمة!؟» مضيفة: «هل تعلّمها لتلاميذك!؟» و«أنا غير محتاجة لتعلمها!» «وأنا متفوقة!» و«أنا أحبّ العنجهيّة» و «هل هذا قرار؟» و«أنت دوغمائي!» لأنني قلت: «إن هناك ما هو أهمّ من الحب أحياناً!» بيرانيك هذه حسبتْ أن نجاحها بالمهمّة التي كُلفت بها، هو انتصار شخصيّ لها، وهذا خطأ يمكن إغفاله، أما اعتقادها بأن «الحبّ أعمى!» وأن حبّها أعماني فهو وهم، قادها إلى الخفّة والاستخفاف، فأبديتُ بعض الملاحظات، وهي موضوعيّة كما أرى، إلا أن بيرانيك اعتبرتها ذاتيّة، قصدها النيل منها، فردَّت بقسوة عليّ، واتهمتني بكوني حانقاً، رافضاً كل ما ابدتْ من آراء، وهذا غير صحيح، وتعرف جيداً أنه غير صحيح، لأنني صارحتها بأن انتقاداتها في محلّها، عندما أبدتها للمرّة الأولى، وبالجدّية اللازمة التي قالتها بها».

بعد قليل توقّف جواد عن التوغّل أكثر في الغابة. أحب وحدته، وجدها مغلّفة بصمت كامل، تكتنفه رهبة كالتي لمغارة جبليّة مهجورة، يدخلها المرء للمرّة الأولى، وهو يكتشف، في كل خطوة إلى أمام، جديداً في تضاريس الحجر، وفي الالتواءات الكهفيّة، وفي بقايا عظام الحيوانات على الأرض، وأعشاش البوم والخفّاش في الجوانب، ويترقّب، بغير قليل من الخوف، أن يرى ضبعاً، أن تنسلّ بين قدميه أفعى، أن يجد رَجُلَ الكهف، ذا اللحية الطويلة، والعظام البارزة، والأظافر السود، وأمامه قصعة فيها كسرات من الخبز اليابس.. وعند هذا الحدّ من التخيّل الوهميّ، للمغارة الوهميّة، تساءل جواد عن ضرورة الأنا للآخر، وعن هذا التفارق النفسيّ العجيب، بين أن يعيش الإنسان وحيداً، راضياً، في غابة، في مغارة، في كهف، وعن شعور هذا الإنسان الممضّ، المعذّب إلى أقصى درجة، حين يجد نفسه في حبس انفراديّ!

«المسألة، فكّر جواد، ليست لغزاً، فكلّ ما يفعله الإنسان بحرّيّة، يجده مريحاً، مرضياً، قابلاً للإستمرار، وكلّ ما يفعله بغير حرّية، وبإكراه، يحسّ بأنّه مضجر، معذّب، لا يُحتمل، بسبب من الانتظار القسريّ الذي يتطاول معه الزمن، ويصبح ثقيلاً، رصاصيّاً، ضاغطاً على الصدر إلى حدّ الاختناق، ولعلّ الاختناق الكاذب، الناشىء عن اكتئاب نفسيّ، هو نفسه إختناق الوحدة، حين لا يكون هناك آخر أو أخرى!».

بيرانيك فكرت أيضاً بالآخر، بالوحدة، بالغربة، بالعيش بغير

حبّ، بغير زواج، بغير إنجاب، وتساءلت ما إذا كانت القضيّة، أيّة قضيّة، أيّ هدف، أيّ طموح، يقوم، في حياة الإنسان، كبديل عن الآخر، الذي يحتاج إليه طول عمره فانتهت إلى النفي! ليلة أمس كانت سعيدة مع الخطر، الآن لا تشعر بهذه السعادة مع انتفاء الخطر، فلماذا؟ هل لأنها تحبّ فقط؟ هل لأنها، في خلاف عابر، أو دائم، مع من تحبّه!؟ المسألة، من الناحية النفسيّة، أعمق من ذلك بكثير، فأن نحبّ، كما يرى فرويد، يعني أننا نحب ذاتنا في هذا الحبّ، وقد يكون هذا صحيحاً، من ناحية العثور على ذاتنا في حبّنا، إلا أن الحبّ ليس لوناً واحداً، إنه ألوان، وحتّى في اللون المقصود، من ناحية العلاقة الجنسيّة، فإن الحبّ لا يلبّي كلّ حاجة الإنسان للآخر، لا لأن هذا الحبّ المتبادل لا يدوم، وإنما لأنه يتحوّل، ومع تحوّله يكون الاغتراب، هذا إذا لم يصبح الشخص الذي كان حبيباً، شريك حياة، وعندئذ تأتي الصداقة الحقيقيّة، في هذا المجال، كتلبية لحاجة بشريّة، لأنها، بالضبط، إنوجاد للآخر، على شكل صديق، وانوجاد للصديق على شكل الآخر. وحتى في التوحّد الزهديّ، وفي التنسّك، والرهبنة، هناك آخر، هو الله، في آخر المطاف، وعند تجاوز القديس، والشفيع، أو الذي نحبّه لأننا نؤمن به، أو نؤمن به لأننا نحبه، فإن العزاء الأخير يكون الله، لأن الرجوع إليه، يحمل للإنسان رجاء لا غنى عنه. «ولأن الأمر، بالنسبة إليّ، قد يختلف ـ قالت في نفسها ـ فإن هذا الاختلاف ليس نهائياً، فربما يأتي اليوم الذي ألوذ فيه بهذا الرجاء نفسه، كوسيلة عزاء في الدنيا، وخلاص في ما يليها».

الغابة جميلة، تغري بسكينتها، بالاصغاء إلى الصمت، وهذا يغري بالتأمّل الداخليّ، وفي التأمّل هذا راحة للنفس المتعبة، لكن إلى متى؟ إلى حين فقط. نعم! إلى حين فقط، وقد انقضى هذا الحين، بالنسبة إلى جواد وييرانيك، فتحرّك كل منهما للقاء الآخر، خاصة وأنهما غير متعبين نفسياً، ورفيقان، وحبيبان فوق ذلك، ويحتاج كل منهما إلى البحث المشترك، حول الوضع الذي هما فيه، وكيفيّة الخروج منه.

تعانقا بغير كلام، بغير عتاب، بغير عودة إلى ما كانا يتحاوران حوله، أو يختصمان من أجله، وقال جواد:

- مع ارتفاع الشمس، واشتداد حرارتها، يحسّ الإنسان بعذوبة طراوة الغابة!

سألت ييرانيك:

- بعذوبة طراوتها فقط؟

- وبالحاجة إلى الصلاة في معبد الصمت!

- وهل صلّيت، في هذا المعبد، بما يكفي!؟

- ولماذا رجعتُ إذن؟

قالت ييرانيك عابثة:

- في هذه الحال علينا أن نفترق من جديد!

قال جواد:

ـ كي نتابع التأمّل، بما في داخلنا، إلى درجة التطهّر؟

ـ كي أؤدّي صلاة الشكر في معبد الصمت مثلك!

ـ أدّيت هذه الصلاة نيابة عنك.

ـ وطلبتَ غفران خطاياي في ختام هذه الصلاة؟

ـ تماماً!

ـ كنت أعرف أنك ستفعل.

ـ وإذا قلت لك إنكِ عارفة بكلّ شيء؟

ـ تكون قد أصبحت عاقلاً كما ينبغي!

ـ دائماً كنت عاقلاً إلاّ معك!

ابتسمت بيرانيك وقالت:

ـ لماذا؟

ـ لأنني أحسّ.. أحسّ، لا أدري بماذا أحسّ، أو لا أستطيع التعبير عن هذا الذي أحسّه!

ـ مع أنه بسيط!

ـ ليس كما تظنّين يا بيرانيك! دائماً يبقى في داخلنا، شيء ما لا يقال، أو يجب ألاّ يقال، لماذا؟ هذا لا جواب عليه! لمسة اليد، نظرة العين، الابتسامة الخجلى، الارتباك المحيّر، وأحياناً، الاندفاع الطائش، الشوق العاصف، الرغبة في الاتّحاد بمن نحبّ، الذوبان فيه، الذهاب معه إلى مكان، أو

إلى لا مكان، وأحاسيس أخرى، وكلمات أخرى، نصمّم، قبل اللقاء، على أن نبوح بها، أن نشرحها، أن نجعل الآخر يعيها.. ثم نسيان كلّ هذا عند اللقاء، كأنما ذاكرتنا قد امّحت، وأصابعنا وحدها تتكلم، لأنها، وحدها، التي تتذكّر، ويمكن، في كل الأحوال، أن تكون حاسّة اللمس، هي الحاسّة الأكبر، التي تترجم عن لغة لا نعرفها، لغة لم تتخلّق بعد.

قالت يرانيك، لمجرّد الدعابة:

- لو كنت مكانك لسجّلت هذه الخواطر على الورق، حتى لا ننساها، أولا نزعم أن الحب يأتي في الدرجة الثانية، عندما نحرد منه!

قال جواد:

- دعينا، يرانيك، من العودة إلى هذا الموضوع.. هناك، الآن، ما هو أهمّ منه: الخروج من هذه الغابة..

قاطعته يرانيك ضاحكة:

- أو البقاء فيها!

أضافت:

- صحيح! لماذا لا نبني عشّاً من قشّ، ونسكنه، هنا، كالعصافير؟ ترى لدى العصفور همّ كالإنسان؟ وفي دنيا الطيور توجد أحزاب كما في دنيا البشر؟ يقولون إن «العقل زينة الإنسان». أنا لست من هذا الرأي! العقل لا يجلب سوى

المتاعب للإنسان، ولو كان الأمر بيدي، لأمرت بتعقيم العقل، حتّى لا يتزوّج وينجب لنا عقولاً أخرى، صغيرة، مثل بعض العقول التي تعرفها!

قال جواد حانقاً:

- هناك من سبقك إلى هذا الرأي.. شاعر قديم قال: «ذو العقل يشقى في النعيم بعقله». أما مسألة التعقيم فقد عبّر عنها فيلسوف عربي اسمه أبو العلاء المعري، ولكن بطريقة أخرى، فقد قال عن نفسه: «هذا جناه أبي عليّ، وما جنيت على أحد!» لأنه لم يتزوّج ولم ينجب. كان تعقيمياً مثلك! احترامي الجزيل لاكتشفاتك النفسيّة!

قالت يرانيك لامبالية:

- درسنا، في الإعدادية، بعض المقطوعات والاشعار لأبي العلاء.. أم نسيت أنني أجيد العربيّة مثلك؟ أبو العلاء كان تقدّمياً، بالنسبة لعصره، وكان أكثر منك جُرأة! إحترامي الأشد لتزمّتك!

ضحك جواد وقال:

- أبو العلاء كان يبارز بالسيف، على طريقة النبلاء، أما أنا فأبارز بالمسدّس على طريقة «الكاوبوي» وهذا هو سبب اختلافي معه.. بماذا تبارزين أنت؟

- احزرا

- بالمسدّس!

قالت ضاحكة:

- خطأ! أنا أبارز بلساني!

- إنه منشار حقيقيّ، ولهذا تكسبين دائماً!

- مع الجميع إلا معك.

- هذا بسبب الحبّ!

- هذا بسبب الزفت.. نكّدت عليّ بهجة الصباح، بهجوم صاعق لم يزد سوى في كشف تحجّرك، وتعنّتك، وغضبك لأنني قلت كلاماً غير مقبول من وجهة نظرك.. اسمع يا جواد، وتذكّر كلامي: أنا حزبيّة، ورفيقة منذ كنت في المدرسة، وقد ناضلت في ظروف شاقّة جداً، وكلِّفت بمهمّات صعبة نفّذتها بنجاح..

قاطعها جواد:

- ومنها مهمّة ليلة البارحة!

- نعم! منها مهمّة ليلة البارحة إذا كان هذا يرضيك.. إنني أتكلّم بأقصى الجديّة، وعليك أن تصغي إليّ بجدّية أيضاً، لأنني سأقول لك كلاماً، ظنّي أن أحداً غيري لم يقله، ليس لأنه الأجرأ، بل لأنه الأصرح. نحن الأرمن، في سورية ولبنان، معروفة أحزابنا، وأفكارنا، والخلافات الحادّة بينها، وكذلك العداوات التي بلغت حدّ القتل من قبل اليمينيين، ويمكن أن تقيس عليها بالنسبة للأرمن في كلّ أنحاء العالم، وحتى في أرمينيا ذاتها، إلاّ أن هذه الخلافات، وحتى العداوات، لم

تمنع، ولا تستطيع أن تمنع، فكرة واحدة نتّفق عليها جميعاً، سراً أو علناً، جهاراً أو خفاء، وهذه الفكرة المتجذّرة في أعماقنا، في صدورنا، هي رؤية أرمينيا دولة مستقلّة، سيّدة، قويّة، وعظمى بالنسبة للدول الأخرى التي بنفس حجمها. هذا هو، إذا بحثت في العمق، حلم كل أرمنيّ، سواء عاد إلى أرمينيا، أو بقي في المغترب الذي هو فيه، وهذا الحلم سيتحقّق يوماً، طال الزمن أو قصر!

قال جواد:

ـ في هذا الكلام، المختصر المفيد، عرفت عن الأرمن أشياء، ما كان بإمكاني معرفتها لو قرأت عنهم مئة كتاب، وفي ضوء هذا الكلام، فهمت الآن ما قلتهِ ليلة أمس، لكن السؤال يبقى: أيّ أرمينيا تريدون، من ناحية النظام الاجتماعي، بعد الاستقلال الذي تتحدّثين عنه؟

قالت يِيرانيك:

ـ هذا متروك لشعب أرمينيا، بعد أن تستقل وتصبح جمهوريّة ذات سيادة، تعترف بها دول العالم كلّه.

ـ تظنّين أنّ هذا الحلم، الحلم الأرمني الكبير، سيتحقّق على النحو الذي تتصوّرين؟

ـ ردّت يِيرانيك بيقين حاسم:

ـ سيتحقّق!

سأل جواد:

ـ ألا ترين معي، أنك تنظرين إلى بعيد جداً؟

أجابت ييرانيك بنبرة حازمة:

ـ أنا معك تماماً! إنني أنظر، ككل إنسان في هذه الدنيا، إلى بعيد جداً، وهذه النظرة قديمة جداً!

ـ تخطّطين لها؟

ـ لا جواب عندي على هذا السؤال!

أضافت ييرانيك وهي تلتهب حماسة:

ـ هل عرفت الآن من أنا؟

ـ عرفت!

ـ وهل ستبقى، بعد الذي سمعته، حبيبي؟

ـ تشكّين في ذلك؟

ـ لا أشكّ في حبّنا، لكن الزواج.. من يدري!؟

قال جواد:

ـ كيف من يدري!؟

قالت ييرانيك:

ـ لندع هذا للظروف، ولنفكر، الآن، بوضعنا في هذه الغابة!

ـ هل نحن في مأزق؟

ـ لا جواب لديّ أيضاً!

٥

بعد رجوع بارون آسحق وارطانيان من اسكندرونة، أكثر من الحديث مع أصحابه، مع زبائنه في الدكان، ومع جلسائه في المقهى، حول ضرورة الاعتناء بمنطقة كسب، وجعلها منطقة سياحيّة، تجتذب المصطافين من كل أنحاء سورية، والسيّاح الأجانب، لأن كسب، بموقعها الجغرافيّ، وهوائها الجافّ، وغاباتها، وخضرتها، وقربها من البحر، تعدّ من أجمل المصايف السورية، إذا ما توفّرت لها العناية اللازمة، واهتمّت بلديّتها برصد المال اللازم، المخصّص لها من محافظة اللاذقية، وباشرت ببعض الإصلاحات الضروريّة، مثل شقّ بعض الطرقات وتزفيتها، والعناية بالنظافة، وبناء، نعم بناء، فندق أو أكثر فيها، وتوفير وسائل النقل، وغير ذلك.

هذا الكلام انتشر بين سكّان المنطقة، وكثر اللغط حوله، بين مهتمّ يرى أن ما يقوله بارون وارطنيان صحيح، ممكن التحقيق، وبين مستغرب، مستبعد أن تتطوّر بلدة كسب، وتصبح مصيفاً يؤمّه المصطافون والسيّاح، وبين فريق ثالث، برئاسة المختار اكوبيان، نظر إلى الموضوع من زاوية المصلحة الشخصيّة لبارون اسحق

وارطنيان، الذي يملك دكاناً، ومقهى، وحديقة أشجار مثمرة، وفي وسعه أن يبني فندقاً، ويصبح مختاراً، وفي المستقبل رئيساً للبلدية، وهذا كلّه قد يجعل منه زعيماً لا ينافس!

وكانت أصداء الحركة الجديدة، أو الأفكار الجديدة تترجّع في كل منطقة كسب، حتى أنها بلغت الفرنسيين، عن طريق «السرجان ميشيل» رئيس المخفر، وطريق مدير الأمن العام، المساعد البرت نوئيل، وطريق المختار اكوبيان، ورئيس حزب الطاشناق في كسب، بارون قره بت شاهنيان وغيرهم، ووجد الفرنسيون أن هذه الأفكار جيّدة، وفي مصلحة المنطقة فعلاً، وأن بارون وارطانيان قادر على المساعدة في التنفيذ، وأنه سبق، بأفكاره هذه، المختار ورئيس البلديّة، ومن الضروري إيلاؤه الاهتمام، وتشجيعه، واستمالته إلى جانبهم، ليكون معهم لا ضدّهم، لأنه رجل يمكن الاعتماد عليه.

وفي إحدى ليالي تشرين الأول، ونحو الساعة العاشرة ليلاً، وبعد مراقبة جيّدة، طُرق باب بارون وارطانيان، الموجود في البيت مع عائلته فقط، بعد أن انصرف ضيوفه كلّهم، ولما فَتح الباب وجد أمامه، على العتبة، العامل في البلديّة دكران، الذي استأذن في الدخول، وألقى تحيّة المساء بأدب، وراح، بعد أن جلس قرب صاحب البيت، يسأل عن الصحّة، والأسعار، والمقهى، والحديقة، دون أن يفصح عن غرضه من هذه الزيارة، في هذه الساعة المتأخّرة نوعاً ما من الليل. لكن دكران، بعد شرب القهوة، وأصبح وحيداً مع بارون وارطانيان، سأل: ـ ما

هي الأخبار؟ وهل سيكون الشتاء قاسياً كالعام الماضي؟

أجابه المضيف:

ـ حسب «الطابون الأرمني» فإن الثلج سيكون غزيراً، وكذلك سيكون المطر جيّداً، والبرد شديداً!

قال دكران:

ـ لا بدّ من الاستعداد، ومن توفّر الطحين والبرغل والزيت والحطب!

ضحك بارون وارطانيان وقال:

ـ فقط!؟

قال دكران:

ـ توفّر هذه الأشياء، بالنسبة للفقير، نعمة، وعلى كل حال وجود الدكان فيه البركة.

ـ هذا صحيح، ولكن لا بدّ من الاستعداد كما قلت، ففي الشتاء تنقطع الطرق بسبب الثلج، ويصبح السفر إلى اللاذقية أو اسكندرونة صعباً.

ـ اللاذقيّة لا تغني عن اسكندرونة، الحركة التجاريّة فيها أنشط، والأسعار مناسبة أيضاً.

قال وارطانيان:

ـ تتكلم يا دكران وكأنك تاجر، ماذا هناك؟

ـ طلب مساعدة فقط!

ـ من الدكان؟

ـ لا! منك أنت!

ـ مني أنا، وفي مثل هذ الوقت؟ تعال غداً إلى الدكان.. ماذا تريد، برغل، رز، زيت؟

ابتسم دكران وأجاب:

ـ وهل تراني أهبل، حتى أطلب هذه الأشياء في مثل هذا الوقت؟

أضاف وهو يخرج ورقة من عبّه:

ـ هذه عريضة لإصلاح المفرق إلى كسب، قبل هطول الثلج!

ـ من كتبها؟

ـ أنا!

ـ لغتك العربيّة جيّدة؟

ـ لا بأس بها! هل أقرأ لك ما في العريضة؟

ـ طبعاً، ودون زيادة أو نقصان، يا ابني يا دكران.

قرأ دكران العريضة الموجّهة إلى رئيس البلدية، كانت مختصرة وواضحة، وكانت لبقة جداً، حتى أن بارون وارطانيان أبدى سروره منها، فأثنى على دكران قائلاً:

ـ ما هو المطلوب مني؟

ـ توقيعك عليها فقط!

ـ وبعد ذلك؟

ـ يصبح من السهل جمع تواقيع الآخرين عليها، بمن فيهم المختار!

ـ وهل تظنّ أن المختار سيوقّع؟

ـ إذا رأى توقيعك سيوقّع، حتى لا تكسب شعبيّة على حسابه!

نظر بارون وارطانيان إلى دكران نظرة متفحّصة وقال:

ـ كنت أحسبك غشيماً، مجرّد عامل في البلديّة، فإذا أنت شيطان يا دكران، مَنْ وراء هذه العريضة؟

ـ أنت!

ـ أنا؟

ـ نعم أنت! هذه أفكارك التي رحّب بها الناس، ووجدت أنا من الضروريّ، جداً جداً، المطالبة بالتنفيذ، ما دام الحديد حامياً!

ركز بارون وارطانيان نظارته على أرنبة أنفه، أخذ القلم ووقّع، نهض دكران شاكراً، ثم انسلّ في غابة الليل، وفي الصباح بدأ جمع التواقيع، بما فيها توقيع المختار، ثم ذهب بعض الموقّعين على العريضة إلى البلديّة، فسلموها إلى الرئيس نيشانيان، الذي سأل:

ـ وماذا بعد التسليم؟

قال أحدهم:

ـ تباشر البلديّة بإصلاح طريق المفرق.

ـ ومن أين المال؟

ـ من خزينة البلديّة!

ـ خزينة البلدية فارغة!

قال آخر:

ـ حوّل العريضة إلى المحافظ في اللاذقيّة، مع تبيان ضرورة التنفيذ فوراً، لأن الشتاء على الأبواب!

ـ وإذا رفض المحافظ؟

قال ثالث:

ـ يكون لكل حادث حديث.. بخاطرك!

وقف رئيس البلديّة نيشانيان مودّعاً، متسائلاً بعجب: «مَن وراء هذه العريضة؟ هل هو عدوّي المختار؟» وبعد أن جلس فكّر: «إذا بدأنا بالعرائض فلن ننتهي.. هذه أفكار بارون وارطانيان، ألا تكفي هذا «البازاوانك»[1] تجارته، ومقهاه، ومزرعته، حتى يتطلّع إلى رئاسة البلديّة؟ وماذا وراء رئاسة البلديّة سوى وجع الرأس؟ ليعطني تجارته فأعطِه رئاستي، وعندئذ يعرف من الكاسب ومن الخاسر. هذا الغبيّ لا يعرف من أنا بعد، يحتاج إلى عمر كامل

(١) السافل ـ (تركية).

حتى يفهم ما أفهم. . أما صندوق البلديّة فإن الريح تصفّر فيه، ويأتي أولاد الكلب هؤلاء، يطالبونني بإصلاح طريق المفرق من هذا الصندوق الفارغ، ويشيرون عليّ بتحويل العريضة إلى المحافظ! لا! العريضة ستُحوّل إلى من بيده ضبط الأمن، إلى المساعد نوئيل، وهو يتدبّر الأمر بمعرفته، وسيكشف من كتب العريضة، ومن هم وراء كتابتها، والذين وقّعوها، ومن جمع التواقيع، وكيف يضبط الأمن قبل أن يفلت من يده!».

بعد هذا المنولوج الداخلي، هتف رئيس البلدية إلى مدير الأمن، طالباً موعداً مستعجلاً لأمر مهم جداً، فسأله:

- ماذا هناك؟

- قضيّة تهمّ الأمن!

- من أيّ ناحية؟

قال رئيس البلدية:

- لا يمكن شرح الموضوع على الهاتف، إنه سرّي جداً، ولا يقال إلا بيننا، نحن الاثنين، فقط.

- إذا كان الموضوع مهماً، وسرّياً، تعال فوراً.

ذهب رئيس البلدية حاسر الرأس، لعجلته وغفلته، فأدخلوه على المساعد، الذي طلب عدم السماح لأحد بالدخول، حتى يقرع الجرس، وبعد أن قدّم سيكارة لضيفه، سأله عن الموضوع الخطير الذي جاء لأجله، فقال رئيس البلديّة وهو يقدّم العريضة:

ـ أنظر سيدي، هذه، في كسب والمنطقة كلها، بدعة جديدة! إنها موجّهة ضدّكم مباشرة! ضحك المساعد نوئيل وقال:

ـ هذا هو السرّ الخطير؟ وضدنا نحن؟ ما هي علاقتنا بإصلاح طريق يا سيّد نيشانيان؟

ـ الذين قدّموها هدّدوا برفعها إلى محافظ اللاذقيّة، إذا لم تقم البلدية بالإصلاح المطلوب.

قال المساعد:

ـ نحن على علم بالعريضة، وبمضمونها، وبالذين جمعوا التواقيع عليها، ونوافق على ما جاء فيها، لأن الطريق بحاجة إلى إصلاح فعلاً، وقبل هطول الأمطار وتساقط الثلوج، وعلى البلديّة أن تقوم بواجبها.

قال نيشانيان:

ـ البلديّة عاجزة عن إصلاح الطريق، لأن صندوقها فارغ تماماً!

ـ وأين ذهبت الأموال؟

ـ لا أموال لدينا أصلاً، كسب بلدة فقيرة، وبلديّتها أفقر، ومساعدة المحافظة لا تذكر.

ـ وماذا علينا، نحن، أن نفعل؟

ـ أن تمنعوا مثل هذه العريضة، حتى لا تكون هناك عرائض أخرى.

ـ حين تكون هناك عرائض أخرى، وضدّنا مباشرة، سنمنعها. . أما الأمور الأخرى فهي من اختصاص الدرك السوريّ، ماذا يفعل هؤلاء الدرك؟ لماذا لا يمنعون تهريب التبغ؟ ثم ما هي أخبار السياسة؟ أهالي كسب مع فرنسا أم ضدّها؟

ـ معها سيدي!

ـ لا! ليس معها كلّهم. . هناك من هو ضدّها، هل تعرف هؤلاء؟

قال نيشانيان:

ـ هذا ليس من اختصاص البلديّة!

وقف المساعد، دار حول رئيس البلديّة قائلاً:

ـ البلديّة تتبع المحافظة، والمحافظة تتبع وزارة الداخلية، ووزارة الداخلية لها علاقة بالمستشار في دمشق، وهذا علاقته مباشرة بالمندوبيّة، فما رأيك؟ من الذي يحافظ على البلاد؟ من الذي يحمي الأمن؟ من الذي يعطي التوجيهات؟ كيف «لا علاقة للبلدية»!؟

وقف رئيس البلدية وقال:

ـ أنتم سيدي تحافظون على الأمن، والبلدية تحت أمركم، أنتم أسياد البلاد!

صاح مدير الأمن:

ـ لا! هذا ليس صحيحاً، نحن لسنا أسياد البلاد، نحن لسنا

بالمحتلّين، نحن نساعد سورية على النهوض، نحن نعمّرها، نؤهّلها، ما عدا ذلك هناك حكومة وطنيّة، هي المسؤولة، صحيح أم لا؟

ارتبك نيشانيان، وجد نفسه في ورطة، لم يعد يعرف ما يقول، وبعد صمت قصير، فكر خلاله بالخلاص، قال:

- الصحيح هو ما تقولونه سيدي.

- أنا قلت أشياء كثيرة، فما الذي تقصده؟

- أقصد أنكم على حق!

- إذن كن مع الحق، كن معنا ما دمنا على حقّ، ابحث عن الذين يعملون ضدّنا، لأنهم يعملون ضدّكم أيضاً.. أريد أسماء هؤلاء المشاغبين، متى تأتيني بها؟

- عندما أحصل عليها!

- وكيف ستحصل عليها؟ ستنتظر حتى تأتي هي إليك؟ أنت رئيس بلدية أنت!؟ المياه تجري من تحتك وأنت لا تحسّ بها! هيّا مع السلامة، لكن تذكّر أنك مسؤول، وأن من مسؤوليتك معرفة أعدائنا المشتركين، مفهوم؟

- مفهوم سيدي!

خرج نيشانيان وهو يلعن الساعة التي ذهب فيها إلى رئيس الأمن المساعد البرت، صار الـ Suretés Générales الفرنسي بغيضاً إليه، لكن البغض لا يحلّ المشكلة التي هو فيها، من أين له

أن يعرف الذين يعملون ضدّ الوجود الفرنسي في سورية؟ كان يظن أن المسألة بسيطة، وأن بعض الشباب، بدفع من بارون وارطانيان، كتبوا العريضة وجمعوا عليها التواقيع، ومنها توقيع المختار، كي يحرجوه لا أكثر، وأن إصلاح طريق المفرق إلى كسب، مسألة مال، وهذا يمكن تدبيره من المحافظة في اللاذقيّة، لكن هذا الكريه، مدير الأمن في كسب، فتح عليه باباً لم يكن يفكر فيه، ولا خطر يوماً له على بال، ففي رأيه، ورأيه صحيح كما يعتقد، أن البلديّة لا علاقة لها بالأمن، إلا أن المساعد ألبرت نوئيل، شرح له بتفصيل واضح، علاقة البلديّة حتى بالحكومة في دمشق، عن طريق التتابع، وهكذا أوقعه في ورطة لعينة!

في المساء، وعلى غير العادة، ذهب نيشانيان إلى بيت بارون وارطانيان، رحّب هذا به ترحيباً حسناً، أجلسه في صدر الصالون، وتحدّث معه بمودّة، وأصرّ عليه، بمناسبة الزيارة الميمونة، أن يشرب معه كأساً من الكونياك مع بسطرمة فاخرة، شُغْل البيت، ولأن رئيس البلدية كان يحبّ الكأس، وهو، الآن، بحاجة ماسّة إليه، فقد شرب عدة كؤوس، وبعد ذلك، وعندما بقي مع مضيفه على انفراد، قال له:

ـ بارون اسحاق وارطانيان. .

قاطعه هذا قائلاً:

ـ العم وارطانيان يا عزيزي، اليوم، في المقهى، طلبت من الجميع مناداتي بهذا الاسم، فقط، قلت لهم: يا أولادي

الأعزّاء! أنا تقدمت في العمر، ومن يتقدّم في العمر يكبر عقله، يفكر في الآخرة أكثر مما يفكر في الدنيا، وأنا فكرت بالآخرة، ووجدت أن عليّ أن أتواضع، وأن أصبح عمّ الجميع، دون تفريق، لأنكم، جميعاً، أولادي، وأرجوكم أن تعتبروني كأب لكم، كعمّ على الأقل، وأن تنادوني يا عمّ وارطانيان فقط.

أدرك نيشانيان أن وراء هذا التواضع أمراً ما، وأن هذا العمّ الذئب، يريد أن يتظاهر بأنه حَمَل، لغرض في نفسه، فما هو هذا الغرض؟ المخترة عُرضت عليه فرفضها، لأنه، وهنا الخبث، يتطلّع إلى رئاسة البلدية، الأصحّ أنه يتطلع إلى صندوق البلدية، وعليّ ألاّ أفوّت المناسبة، وأن أجعله يفهم أن رئاسة البلديّة أصبحت بليّة، وأن أحذّره من عواقب اللعب بالنار، فأجعله يخاف من التورّط في موضوع البلديّة، لأنها أصبحت مسؤولة، بشكل ما، عن الأمن، أي أن الفرنسيين وضعوها في مواجهة صعبة مع الناس، ولا يستطيع، كائناً من كان رئيس البلدية، أن يرضي الأمن والأهالي بوقت واحد!

قال نيشانيان:

- اليوم تلقّيت عريضة عليها توقيعك بارون وارطانيان!

- أرجوك، يا صديقي، العمّ وارطانيان يكفي، هذا أحبّ اسم عليّ، ثم أنت في بيتي، أي في بيتك، فهل يتمسّك الإنسان بالرسمّيات في بيته؟ نعم يا صديقي، وقّعتُ العريضة، ولكن ماذا بشأنها؟

ـ وقّعتها مجاملة للشباب، لأنك لا تستطيع أن ترفض، هل أنا مخطىء؟

ـ حاشاك يا صديقي من الخطأ. . جاؤوني بالعريضة وعليها توقيع المختار، فماذا بإمكاني أن أفعل؟

تصوّر نفسك مكاني!

ـ لكنني هتفت للمختار، فقال إنه وقّع لأنه رأى توقيعك على العريضة، فصار محرجاً!

ـ وهل صدّقت هذا الكلام؟

ـ أبداً! أنا أعرف نوايا المختار، أكثر مما يعرفها هو نفسه. تأمّل! لكن المسألة ليست هنا!

ـ أين إذن؟

ـ مع مدير الأمن العامّ الفرنسي!

ـ وما علاقته بالموضوع؟

ـ إنه مع العريضة وليس ضدّها، وهو يعرف من كتبها، ومن جمع التواقيع عليها.

قال العم وارطانيان:

ـ إذن لا مشكلة!

قال رئيس البلديّة، وهو يشرب الكأس الخامس أو السادس، وقد انتشى، ومدح الكونياك والبسطرمة:

ـ بلى! هناك مشكلة، وكبيرة جداً، مدير الأمن طلب مني، بصفتي رئيساً للبلديّة، أن أكون مخبراً عنده!

ـ مخبراً؟ هكذا بكل وقاحة!؟

ـ نعم! هكذا بكل وقاحة! ومخبراً ضدّ من؟ ضد إخوتي الأرمن، تأمل الحال التي أنا فيها!

أضاف نيشانيان:

ـ يقول نوئيل إن هناك مشاغبين ضدّ فرنسا، في كسب ومنطقتها، وإن عليّ، أنا الأرمنيّ حتى العظم، أن أعرف اسماءهم. وأن أخبره بها، فماذا تقول عمّ وارطانيان؟

ـ أقول إنه لا يعرف الأرمن جيّداً، نحن عظم حوت، لا عظم دجاج، ولكن من كان يقصد بالمشاغبين؟

ـ جماعة العريضة على الأرجح!

ـ هذا استنتاج منك، أم كلامه هو؟

ـ نصف نصف!

ـ يعني هكذا فهمت تلميحاً!

ـ نصف نصف!

نبر العم وارطانيان:

ـ ما هذا النصف نصف بارون نيشانيان؟ فكّر معي: هل هناك، في مسائل السياسة أو مسائل الأمن، نصف نصف!؟

عاد نيشانيان وقد ثقل لسانه، إلى الترديد:

ـ عم وارطانيان، نصف نصف، يعني نصف نصف!

أضاف:

ـ قل لي، ماذا أفعل؟

ـ لا تردّ عليه، أنت رئيس بلديّة محترم، رئيس بلديّة كسب يا هو! وبعد ذلك تخاف!

ـ أنا لا أخاف على نفسي..

قاطعه العمّ وارطانيان.

ـ إذا كنت لا تخاف على نفسك، قدّم استقالتك!

ـ ومن هو رئيس البلديّة بعدي؟ تحسبني سكران ولا أعرف.. هذه اللعبة، عمّ وارطانيان، العبها مع غيري!

ـ وماذا تقصد!؟ هل جننت؟ أنا أقبل برئاسة البلديّة؟ أصير مخبراً عند هذا الكلب؟

هيّا، بارون نيشانيان، إلى البيت، يجب أن تستريح، وغداً نتحدث..

قال نيشانيان مُتعتعاً:

ـ ولماذا غداً؟ قل لي الآن، ماذا أفعل؟

ـ ألم أقل لك؟ أم كنا نصلّي في الطاحون!؟ ابق رئيساً للبلدية إذا شئت، دون أن تسأل عن أحد.. أنت أرمنيّ أم لا؟

ـ أرمنيّ عمّ وارطانيان أباً عن جد! ولكن هذا النوئيل يلاحقني، وإذا لم أفعل ما طلبه مني أروح في الزبالة..

ـ تريد رأيي؟

ـ ولماذا جئت إذن؟

ـ رح في الزبالة أفضل!

ـ أنا أفهمك عمّ وارطانيان، أروح في الزبالة، في السجن، إلى المشنقة، لا يهمّ! ولكن..

ـ ماذا أيضاً؟

ـ الذين يبحث مدير الأمن عنهم؟

ـ يعرف أسماءهم؟

ـ لا!

ـ إذن انتهى الموضوع.. تعال نخرج! الهواء البارد مفيد.. سنمشي قليلاً بغير كلام، إلى أن تصل إلى البيت!

ـ وغداً؟

ـ إلى مكتبك في رئاسة البلدية!

ـ وإذا طلبني هذا العرص؟

ـ قل له: أنت عرص! واقفل سماعة الهاتف!

ـ هذا لا يصير بارون..

قاطعه.

ـ وما الذي يصير إذن؟

ـ هذا ما أريد معرفته.. الآن! ومنك بالذات!

ـ الآن، اذهب إلى البيت.. إمشِ معي بهدوء، سروالك..

قاطعه:

ـ ماذا في سروالي؟

ـ شاي ساخن!

ـ نعم بارون.. شاي ساخن! ولكن من وضعه؟

ـ المساعد نوئيل!

ـ هذا صحيح بارون.. ولكن ماذا أفعل بسروالي الآن؟

ـ ضعه.. في مؤخرة المساعد نوئيل!

توقّف نيشانيان وسأل:

ـ هل هذا ممكن بارون وارطانيان؟

ضحك بارون وارطانيان وقال:

ـ هذا وحده الممكن.. في الوقت الحاضر على الأقل!

٦

ضحك سركيس ماخيان ضحكاً شديداً، وهو يستمع من العمّ وارطانيان حول ما جرى مع نيشانيان، رئيس بلديّة كسب، وكيف هرول إلى مدير الأمن العام الفرنسيّ، وما قال له هذا عن تأييده للعريضة التي تطالب بإصلاح طريق كسب من حدّ المفرق، وما طلبه منه حول «المشاغبين» ضدّ فرنسا، وضرورة أن يأتيه بأسمائهم، ومجيء رئيس البلديّة نيشانيان إلى بيت العمّ وارطانيان خائفاً، وخروج هذا الرئيس الكراكوز في حالة سكر شديد، وتبوّله في سرواله من السكر والخوف معاً!

قال وارطانيان:

- بعد أيام ظهرت عريضة ثانية، تطالب بتوسيع الساحة العامّة في كسب وتزفيتها، دون أن تحمل توقيعي هذه المرة، لأن مقهاي يقع على طرف الساحة، وسيظنّ رئيس البلديّة أنني المحرّض على العريضة لأنني المستفيد المباشر منها.

سأل رضوان:

ـ وماذا كان موقف مدير الأمن العام الفرنسيّ هذه المرّة؟

ـ لم يكن راضياً كالمرّة الأولى، وقد استدعى رئيس البلديّة نيشانيان وهدّده، طالباً منه أن يفعل شيئاً، وأن يعرف من يقف وراء هذه العرائض، ويأتيه، بأسرع ما يمكن، بأسماء الذين يعادون وجود فرنسا في سورية!

ـ وماذا فعل رئيس البلديّة؟

ـ لم يكن خائفاً كالمرّة الأولى.

ـ هذا بفضل تشجيعك له من جهة، وبسبب ارمنيّته من جهة ثانية. . أوقفوا الحملة ضد رئيس البلديّة، بل أيّدوه إلى حدّ ما، من وراء ستار!

أضاف رضوان:

ـ هل هناك عناصر في كسب تعمل لحساب الأمن العامّ الفرنسيّ؟

قال وارطانيان:

ـ طبعاً! هناك عناصر تعمل مباشرة لكونها من الأمن العامّ، وعناصر عميلة غير معروفة بعد.

ـ وهل لديكم أحد موثوق، بين عناصر كَسَب، من الموظّفين في الأمن العامّ الفرنسيّ؟

ـ لا أعرف!

نقر الرفيق رضوان خشب المكتب بقلمه وقال:

ـ وجود مثل هذا العنصر ضروريّ، إنما احذروا «الدوبلة»[1]، هذا هو رأي الرفيق ماخيان أيضاً.

ـ وهذا هو الإشكال بالنسبة إلينا!

ـ لكل إشكال حل.. إذا تقرّب منكم أحد هذه العناصر، اشتروا منه بضاعة سليمة، وبيعوه بضاعة مغشوشة.. لكن انتبهوا إلى نقطة مهمّة: أن تكون صلة هذا العنصر بواحد منكم فقط، ولتكن أنت مثلاً.

ـ أنا شخصياً لا أستطيع، موقفي منكم محدّد: صديق فقط! هذا من جهة، ومن جهة ثانية لا أحتمل الأخذ والعطاء مع أرمني فاسد.

ـ فكّر ماخيان وقال:

ـ أنت لا تريد تحمّل مسؤولية عمل منظّم يا عمّ وارطانيان!

ـ بصراحة: نعم!

ـ ليكن! نحن نحتاج إلى أصدقاء، مثلما نحتاج إلى رفاق.. وعلى فكرة: ما رأيك بفتح مدرسة خاصّة في كسب؟

ـ اقتراح جيّد! كسب، ومنطقتها، تحتاجان لمثل هذه المدرسة، لزيادة حصص تدريس اللّغة الأرمنية، والاهتمام بمادّة التاريخ العربي..

---

(١) إزدواجية الولاء ـ السبق في السيارة وغيرها.

ـ هل أنت على علاقة طيّبة بوجهاء كسب، والطاشناق بينهم؟

ـ علاقتي جيّدة بالجميع!

ـ لا توقع أيّة عريضة بعد اليوم، دع هذه المهمة للآخرين، وضيّق علاقتك بنا أكثر. المدرسة مهمّة جداً، وتستطيع أن تلعب دوراً أكبر في مجلس إدارتها، إذا كانت حصّتك من التمويل أكبر، هل أنت على استعداد؟

ـ كلّ الاستعداد!

ـ لكن المدرسة لن تكون رابحة، يكفي توازنها المالي: دخل الأقساط المريحة جداً للطلاب، كذلك التبّرعات، الحفلات التي تنظّمها المدرسة في المناسبات.. بكلمة: القضّية خدمة التعليم في كسب أولاً وأخيراً، وبعد ذلك نرى..

ـ هذا مفهوم، لكن ماذا بالنسبة لأولاد الفقراء؟

ـ أليس هناك مدرسة ابتدائية حكومية؟

ـ هذه المدرسة موجودة، ونحن نرغب بتعلّم اللغة العربيّة إلى جانب اللغة الأرمنيّة، وهذا العام ستكون هناك صفوف إعدادية، ثم ثانوية في العام القادم، ومن يأخذ الشهادة الثانوية يذهب، إذا كان وضع أهله الماديّ جيداً، لدراسة الطبّ أو الهندسة أو الحقوق أو غيرها من الفروع الجامعيّة.. ازدهار كسب من الناحية السياحيّة، لا بدّ أن يترافق مع ازدهارها العلميّ!

قال ماخيان:

ـ هناك أرمن أغنياء في أوروبا وأميركا، ألا يرسلون مساعدات لبعض أقربائهم في كسب؟

ـ يرسلون!

ـ وإذا علموا بمشروع المدرسة الأرمنيّة الخاصّة، ألا يساعدون؟

ـ يساعدون من غير شك!

ـ يمكن، إذن، تغطية نفقات الطلاّب الفقراء.. كلّ شيء، يا عمّ وارطانيان، يتوقّف على نشاط مجلس إدارة المدرسة، وعلى علاقاته مع الأرمن في المهاجر من جهة، ومع السلطات الرسميّة من جهة ثانية، ويمكن، أيضاً، إيفاد بعض حملة الثانويّة للدراسة في أرمينيا وجامعاتها.. نحن نتكفّل بهذا عن طريقكم كي نبقى نحن في الظلّ، وهذا ضروريّ جداً!

ـ المشروع، بهذا الشكل، سيصبح واسعاً جداً، ويحتاج إلى إمكانات مادّية ومعنويّة، غير متوافرة.

ـ عندما تكون هناك دعاية جيّدة للمشروع، من قبل مجلس إدارة غير حزبيّ، ستتوافر الإمكانات، لذلك خصّص، إذا أمكن، كل جهدك لهذا المشروع، ومنذ عودتك إلى كسب.. ابدأ أولاً بجسّ نبض الذين تتوسّم فيهم الخير.. وسنكون على اتصال.

ـ والترخيص للمدرسة؟

ـ هذا غير صعب، وسيقوم بعض أصدقائنا، في صحف دمشق،

بتهيئة الجوّ المناسب، الدولة ترغب بقيام مدارس خاصّة، إذا تأكّدت أنها غير حزبيّة، والمدرسة التي نتحدّث عنها ستكون غير حزبيّة، فانتبهوا إلى هذه الناحية.

قال العمّ وارطانيان:

ـ سنولي هذه الناحية اهتماماً خاصاً، ولكن ماذا بشأن رئيس البلديّة؟ قد يقبل، تحت الضغط، أن يكون عيناً لمدير الأمن العامّ!

ـ هل هو إنسان جيّد؟ هل يحبّ بلده؟ هل موقفه من الاتّحاد السوفياتيّ موقف عداء؟

ـ لا! لكنه ضعيف الشخصيّة، وأظنّه سيتمسّك بالكرسيّ، وأنت تعرف إغراء الكرسيّ.

ـ هذا مفهوم يا صديقي، لكن الحكم المسبق غير جائز.. راقبوا تصرّفاته جيّداً، اختبروه، وفي ضوء ذلك اتخذوا منه الموقف المناسب.

ـ ومدير الأمن العامّ الفرنسيّ؟ إنّه رهيب!

سأل ماخيان:

ـ وهل نوقف مطالبتنا بإنهاء الاحتلال الفرنسيّ لسورية، لأن مدير الأمن هذا رهيب!؟ كل الفرنسيين الذين يشغلون مناصب في سورية رهيبون، ومع ذلك قامت الثورة السوريّة الكبرى، وقامت ثورات صغيرة متفرّقة، وقد قام الحزب، والأعضاء القياديّون

فيه خاصة، بنضال نشيط، دون أن يستطيع القمع، والملاحقة، والتعذيب، والسجون، أن توقف أو تلجم نضاله! مدير الأمن عندكم، يمكن إيقاف تجاوزاته، لأن هناك من هو أعلى منه، فلماذا الخوف؟ هدّدوه برفع شكوى ضده إلى المستشار الفرنسي في اللاذقية، وعند الضرورة نفّذوا، وليذهب وفد منتقى منكم، يجيد المتكلّم باسمه الفرنسيّة والعربيّة، ويطلب مقابلة المحافظ أولاً، وبعد ذلك المستشار، ولديكم صحف أرمنيّة في بيروت، انشروا العرائض والشكاوى فيها، وهناك صحف عربيّة، في اللاذقيّة وفي دمشق، انشروا العرائض فيها أيضاً، وركّزوا على التجاوزات بصورة موضوعيّة، ومن المرجّح، عندئذ، أن يكفّ عن تجاوزاته، وحتى أن يُعزل.. المهمّ عدم الخوف! هل كلامي واضح؟ شكراً أيّها الصديق وارطانيان، ومع السلامة.

قال وارطانيان:

ـ سنبقى على اتّصال طبعاً!

ـ هذا مرحّب به في كل وقت، لكن بحذر وسرّية.

تعانقا، افترقا، وفي كسب، بعد رجوع العمّ وارطانيان إليها، سمع باعتقال دكران، بسبب نشاطه في كتابة العرائض وجمع التواقيع عليها، وقد تفنّن مدير الأمن نوئيل في تعذيبه، لكن دكران ظل قوياً، ثابتاً، ناكراً أيّ صلة له بأيّ جماعة، مصراً على أنه يكتب العرائض بنفسه، ويقوم بجمع التواقيع عليها بنفسه أيضاً، لأن وضع كسب، وما فيه من إهمال، وما يحتاج إليه من

إصلاح، هو الدافع إلى كتابة هذه العرائض، لذلك اضطر مدير الأمن إلى إطلاق سراحه، لعدم وجود ممسك عليه يكفي لتقديمه إلى المحاكمة، والتدبير الوحيد هو فرض الرقابة الشديدة على دكران.

وقد كان دكران سابقاً، من التنظيم السرّي للحزب، ثم فصل لفوضويته! كان شجاعاً، مندفعاً بجنون إلى الانتقام ممن يعادون الحزب، وكان البارونات والأغوات يحسبون حسابه، لأنه كان لا يتحرّش بأيّ إنسان، أيّ عضو في حزب آخر، وإنما يقصد الزعماء، هؤلاء الذين، حسب رأيه، ضد سورية وأرمينيا، لأنهم ضدّ الاتحاد السوفياتي، ولأن أرمينيا لديه هي فوق كل شيء، وحتى فوق الاتّحاد السوفياتي نفسه، فإنّ من ينالها بسوء، فعلاً أو قولاً، لا بدّ أن يلقى عقابه، وعلى يديه هو! هكذا كان يباغت زعماء الأحزاب اليمينيّة، وهم في المقهى أو الشارع، ويضربهم بقسوة، غير مبالٍ بالدرك أو الحكومة.. كان، باختصار، رفيقاً طيّباً، شجاعاً، لكنه متهوّر على طريقته، وعندما صادف مدير الأمن العامّ الفرنسيّ يسير وحيداً في الشارع، انقضّ عليه، أشبعه ضرباً، ونزع منه مسدّسه، استخلصه بقوّة عضله، وبعد ذلك فرّ إلى الجبال، دونما مراعاة لظروف أحد، حتى عائلته نفسها.. وكان في هذا مجنوناً على طريقته، طريق شجاعة القلب، وقد أدمى المساعد نوئيل، بلكمة على الفكّ، كسرت له اثنين أو ثلاثة من أضراسه، ثم عاجله بلكمة أخرى، طرحته أرضاً، فداس على صدره صائحاً:

ـ خذها، يا ابن العاهرة، من يد رجل لا يهاب الموت.. ويحبّ أرمينيا حتى الموت!

هذه الحادثة رفعت دكران إلى مرتبة البطولة! لم يتوقّف أيّ أرمنيّ عند مسألة فصله من الحزب الذي كان ينتمي إليه سابقاً، أو التنظيم الذي وراءه الآن، أو الجهة التي دفعته إلى كتابة العرائض وجمع التواقيع عليها، بل توقّفوا عند مسألة أهمّ، هي أن دكران أرمنيّ، وقد انتقم لجميع الأرمن في كَسَب، الذين ذاقوا الويلات على يد مدير الأمن الفرنسيّ هذا، لذلك كانت شماتتهم كبيرة بهذا الحقير، وفخرهم كبيراً بهذا البطل الشجاع الذي اسمه دكران، كما كان الناس، في كسب ومنطقتها، يقولون عنه.

وعندما صعد بعض الشباب المتحمّس إلى الجبل، لينضمّ إلى دكران، رفض أن يبقوا معه قائلاً لهم: «نحن لسنا بعصابة، ولن نجعل أهلنا موضع انتقام، يدفعون ثمن ما نقوم به من عصيان؛ عودوا إلى منازلكم، فأنا حالة فرديّة، لا ضرورة لجعلها جماعيّة، لأننا لا نستطيع أن نحارب فرنسا؛ وليس في سورية، حالياً، ثورة كما كانت في العام ١٩٢٥، وعندما يتحرّك الآخرون، نتحرك نحن» وقد أكبر الذين سمعوا بهذا الموقف بعدَ نظر دكران، ونخوته، ورجاحة عقله، هذه المرّة، لأنه قبل أن يدفع الثمن وحده، دون أن يشرك أحداً في المسؤولية معه.

وسواء كان هذا موقف دكران تماماً أم لم يكن، فإن مساعدة أهله لم تنقطع، وكان الذين يقدّمون المساعدات، ويؤثرون العافية، يقومون بها سراً، فيضعون أمام الباب، بعض ما

يستطيعون عيناً، وأحياناً نقداً، وكان بعض هذه المساعدات يصل إلى دكران، بطرق سرّيّة، لم يستطع الأمن العامّ الفرنسيّ في كسب أن يكشفها، أو يمنعها، وقد ضخّمت الصحافة الأرمنية والعربية، في لبنان وسورية، ما أسمته «تمرداً أرمنياً». أو «انتفاضة أرمنية!» في جبال كسب ضدّ فرنسا، وجنّ جنون «المندوب السامي» في بيروت كما قيل، فأوفد مستشار اللاذقيّة، ليستقصي الأخبار، وليطمئن الناس، ونقل عن لسان «المندوب السامي» قوله: «ألا يكفنا ما حدث في الغوطة، وفي الجبل، بقيادة سلطان الأطرش وبعض الزعماء الآخرين، حتى نشعلها في كسب أيضاً!؟

ومن باب الترضية، أو تطويق الحادث، نقل مدير الأمن العامّ في كسب، المساعد البرت نوئيل، إلى لبنان، ولم يصدر عفو من دكران كما كان منتظراً، ولم تستجب المندوبيّة في اللاذقيّة إلى الطلبات، والوفود الأرمنيّة، التي زارتها لهذا الغرض، إلا أن شوكة الأمن العام الفرنسيّ، كما كان واضحاً، قد كُسرت، وعندما أشيع أن دكران سيُقدَّم، من جديد إلى المحاكمة، أرسل محامون عرب وأرمن رسائل تضامن، مع تطوّع للدفاع، إلا أن المحاكمة لم تجر، تفادياً للضجّة التي ستثيرها لو جرت!

في هذه الظروف، وهي مؤاتية في نظر قاسم رضوان وسركيس ماخيان ورفاقهما في اسكندرونة، قُدّم طلب الترخيص لافتتاح المدرسة الخاصّة، ورغم بعض التطويل، والعراقيل الصغيرة، تمّت الموافقة، وافتتحت المدرسة، واختار مجلس الإدارة

المدرّسين، وبينهم جواد صفصافي، صاحب الاسم المستعار، والهويّة المستعارة، الذي زكّته القيادة في دمشق، لتدريس مادّة اللغة الفرنسيّة، وكانت حفلة تدشين المدرسة الجديدة مناسبة كبيرة، حضرها من كسب، ومن اللاذقيّة، وبيروت، بعض الرسميّين، ووجهاء الأرمن في هذه المدن وغيرها، وكذلك ممثلّو الأحزاب الأرمنية، باستثناء الحزب الذي كان صاحب فكرة إنشاء هذه المدرسة، لأن قادته ملاحقون، إلا في اسكندرونة، التي كان لها وضع خاصّ، لوجود مستشار فرنسيّ اشتراكيّ فيها، أيام حكم الجبهة الشعبيّة في فرنسا.

في هذه المدرسة تعرّف جواد إلى بيرانيك لأول مرة. كانت تُدرّس مادّة الرياضة البدنية، وتربط شعرها المضموم من وراء «بريبانة» حمراء، وكانت جميلة جمالاً يلفت النظر، خاصّة فمها الصغير، أحمر الشفتين دون «روج»، والذي يشبه الكرزة الحمراء. وفي حفلة نهاية العام الدراسيّ، إختيرت لإلقاء كلمة أسرة التدريس باللغة الأرمنية، مع معرفتها الجيّدة باللغة العربية، لأنها خريجة معهد الرياضة البدنية الحديث في حلب، وأسرتها معروفة في كسب، من حيث الوجاهة، والتمدّن العصريّ، واتباع الموضة في اللباس وفي الحياة الاجتماعية، مع ما تتطلبه من سلوك ومظاهر خاصّة جداً.

ولأن جواد كان متحفّظ السلوك، محدود العلاقات الاجتماعيّة، قليل الكلام، وله حياة خاصّة جداً، فإن بيرانيك استطاعت، بلباقتها، أن تكون على صلة طيّبة به، إنما في

المدرسة لا خارجها، بذريعة متابعته دراسة الحقوق، لنيل الدكتوراه من الجامعة اليسوعية في بيروت، التي كان يزعم أنه قد تخرج منها قبل سنوات، وفضل متابعة الدراسة على مزاولة مهنة المحاماة. كان يتنكّر، يزعم أنه خرّيج، أو أنه طالب، أو مدرّس لغة فرنسيّة، بحسب الوضع الملائم، في المدن السورية التي تنقّل بينها، وفي اسكندرونة خصوصاً، حيث كان يعيش حياة شبه سرّيّة، بمقتضى الدور الذي كان عليه أن يلعبه، وقد لعب هذا الدور بمهارة، دون أن يدع أحداً من الناس يعرف حقيقته، وهو أنه غير أرمنيّ، ولا يدعى اندريه فازليان كما قال، ويجيد عدّة لغات، ومنها الفرنسيّة والعربيّة خصوصاً، ومكلّف من قبل المكتب السياسيّ، المحصورة علاقته به دون سواه.

في الصيف، خلال عطلة المدرسة، سافر جواد لا يدري أحد إلى أين، إلا أن ييرانيك سافرت معه طيفاً، وأقام هو، مع ييرانيك، طيفاً أيضاً، واستشعر كل منهما أنه يحبّ الآخر، وتكتّم على هذا الحبّ، لأن ييرانيك كانت حزبيّة، وبصورة سرّيّة تماماً، وكان جواد حزبيّاً، وبصورة سرّية مثلها. ولشدّ ما تساءل أحدهما عن حياة الآخر، وفكر فيها، وحاول أن ينساها بغير نجاح، مدركاً، بإحساس خفيّ، أن العاطفة بينهما تكبر مع كل يوم يمرّ، وأن اللقاء المؤجّل لن يظلّ مؤجّلاً، فلا بدّ، أخيراً، أن تكشف العيون ما يسرّه القلب، لذلك اعتزمت ييرانيك أن تخترق، ما إن بدأ العام الدراسي الجديد، جدار صمت جواد، وأن تحاوره، خلال وجودهما في المدرسة، عندما يكونان في قاعة المدرّسين،

بانتظار حصّة الدراسة المقرّرة لكل منهما، وعلى انفراد تماماً.

سألته، بشجاعة المرأة عندما تريد:

- أين قضيت العطلة الصيفيّة أستاذ جواد؟

أجاب بغير ابتسام، وباقتضاب لا يشجّع على الحوار:

- في مدينة مونبلييه بفرنسا، عند أخي الذي يدرس هناك.

- وهل كانت عطلة مريحة كما ينبغي؟

- ليس كثيراً، فأنا أرغب بالحصول على الدكتوراه هناك.

- في أيّ فرع؟

- غير محدّد بعد.

- ومتى سيتحدّد؟

- هذا متروك للمستقبل!

- كيف؟

- هكذا!

- خرّيج بمادّة اللغة الفرنسيّة، ومدرّس، ثم لا تعرف ماذا ستختار؟

قال بجدّيّة:

- أترك هذا للظروف عادة.

- مستحيل!

ـ هذا صحيح!

ـ وتعترف أيضاً؟

ـ أعترف أن كلامك صحيح!

ـ وإذا قلت لك إن هذا غير مستحيل!

ـ أقول لك إن هذا صحيح أيضاً.

ـ عجيب!

ـ ما هوالعجيب؟

ـ أنت!

ـ لماذا؟

ـ لأنك تشعرني بأنني أقحم نفسي عليك في الحديث معك!

ـ أبداً!

فكرت يرانيك وقالت:

ـ هل الخجل طبع فيك، أم أنك تصطنعه؟

ـ وما رأيك أنتِ؟

ـ رأيي أنك إنسان مبهم!

ـ إلى هذه الدرجة؟

ـ وأكثر!

ـ هذا من سوء حظّي!

عندئذ هاجمته ييرانيك من طرف آخر، فبعد ابتسامة لها دلالة خاصّة، سألت:

ـ هل أنت واثق مما تقول؟

قال متهرّباً:

ـ لم أفكر بحسن الحظ أو سوئه!

ـ وإذا قلت لك إنك سعيد الحظّ؟

ـ أقول لك إنني لا أؤمن بالتنجيم!

ـ بماذا تؤمن إذن؟

ـ بالله.

ضحكت ييرانيك ضحكة صاخبة وقالت:

ـ يا لك من ديبلوماسيّ! أنت، يا أستاذ جواد، داهية!

سأل جواد بسذاجة متعمّدة:

ـ بأيّ شيء!؟

ـ ولماذا تسأل؟

ـ حتى أعرف نفسي!

ـ ومتى ستعرف نفسك؟ خلال هذا العام الدراسيّ أم بعده؟

ـ معرفة النفس تستغرق العمر كلّه!

ـ ومن الناحية العاطفيّة؟

ـ حين تكون هناك عاطفة ما خاصّة.

دقّ الجرس، خرج الطلاب للتنفّس، دخل بعض المدرّسين والمدرّسات، قالت پيرانيك:

ـ الانتظار متعب!

قال مدرّس اللغة العربية:

ـ والتدريس متعب أكثر! لا أدري لماذا اخترت تدريس هذه المادّة الصعبة!؟

ـ لا تقل هذا فيزعل زميلنا جواد!

ـ لو كان يدرّس اللغة العربية، لكان موقفه مثل موقفي تماماً!

قالت مدرّسة الحساب:

ـ أنت، يا زميلة پيرانيك، الأحسن حظاً بيننا، تعلّمين الرياضة البدنيّة، وتريضين في الوقت نفسه.. هذا يحفظ رشاقتك.

سألت پيرانيك بخبث:

ـ وهل أنا رشيقة في رأيك؟

ـ أنت رشيقة في نظر الجميع!

قال مدرّس اللغة العربية:

ـ وجميلة أيضاً، لكن دون قلب، مع الأسف!

ردّت ييرانيك:

- قلبي معطّل إلى إشعار آخر!

قالت مدرّسة الحساب:

- يعني في إجازة؟

ضحكت ييرانيك وقالت:

- في إجازة دائمة! خسارة!

- ولماذا الخسارة؟

- لأن العمر يمضي، ونحن نكبر، ولا من يسأل!

نهض جواد قائلاً:

- أستأذن!

ردّت مدرّسة الحساب:

- إذنك معك!

أضافت:

- ما له جواد هذا؟ صامت دائماً، متأمّل دائماً، سابح بين الغيوم دائماً!

قالت ييرانيك:

- يبحث عن حبيبة ما، بين الأرض والسماء!

- ولماذا يبحث هناك، ونحن هنا؟

ـ لأنه يفضّل جنيّة الشمس!

ـ جنيّة الشمس أم القمر؟

ـ اسأليه!

قال مدرّس اللغة العربية:

ـ كفى استغابة.. إنه زميلنا على كل حال!

قالت يرانيك:

ـ وله رأي غريب! إنه يعتقد أن اللغة العربيّة أجمل من اللغة الفرنسيّة!

ـ وكيف هذا؟ إنه، كما سمعت، يكتب باللغة الفرنسية، فهل يعقل أن يعترف هذا الاعتراف الخطير!؟

ـ وما هي خطورته؟

ـ أن يكون الجميع على رأي، وهو وحده على رأي آخر!

ـ مزاج!

ـ هذا صحيح! منذ تعارفنا لم أره يبتسم مرة واحدة! إنه انعزاليّ جداً.

قالت مدرّسة الحساب:

ـ لا أحد يجعله يبتسم إلا يرانيك!

ـ ولماذا؟

ـ هل هذا سؤال؟

ـ وهل أنا طبيبة نفسيّة حتى أعالجه من مرض الاكتئاب!؟

قال مدير المدرسة الذي دخل القاعة:

ـ حلّليه نفسيّاً!

ـ وإذا كان هناك من هو أقدر مني على التحليل النفسي؟

ردّت مدرسة الحساب:

ـ مَنْ تقصدين بهذا الكلام؟

قالت ييرانيك وهي خارجة من الغرفة:

ـ أقصد عشتروت يا صديقتي!

٧

قام مدير الأمن العامّ الجديد، الملازم أول فيليب جوليان، بزيارات وديّة إلى كل من مدير الناحية، رئيس البلديّة، المختار، وبعض الوجهاء في كسب، ومنهم العمّ وارطانيان، في محاولة لمحو الأثر السيىء الذي تركه سلفه، مدير الأمن العامّ نوئيل، وتطمين الجميع أن ما حدث لن يتكرّر، وأن بابه مفتوح للجميع، وأن مهمّته تقتصر على ضبط الأمن، وعدم التدخّل في الشؤون الأخرى، التي هي من اختصاص المسؤولين في كسب.

ومن باب المجاملة، وبعد موعد مسبق، زار مدير الأمن العام المدرسة الأرمنية الخاصّة في كسب، واجتمع بمجلس الإدارة، وتعرّف على أقسام المدرسة ومدرّسيها، وتوقّف قليلاً مع مدرّس اللغة الفرنسية، الأستاذ جواد، مبدياً إعجابه بلغته، لفظاً ومفردات، ولما علم أن جواد خرّيج الجامعة اليسوعية في بيروت، سأله ما إذا كانت لديه كتب فرنسيّة، والروايات خصوصاً، لأنه يحب المطالعة، وقد جاء على عجل، فلم يستطع اصطحاب كتبه، أو شراء الجديد منها، في زيارته الأخيرة للبنان.

ومع رغبة جواد في التزام العزلة، فقد أبلغ مجلس إدارة

المدرسة بما طلبه منه الملازم أول فيليب جوليان، مبدياً شيئاً من عدم الرضى في إقامة أيّ علاقة معه، إلا أن رئيس مجلس الإدارة نصحه بعدم الرفض، لإثبات أن المدرسة مستقلّة، وليس لها أيّ موقف سياسيّ من أحد. وهكذا، ببعض المكر، أنشأ جواد علاقة حذرة مع جوليان، فزاره في بيته، حاملاً له بعض الكتب الفرنسيّة، بينها رواية لأندريه جيد، وديوان شعر لبودلير، فكان سرور جوليان بها بالغاً، وكان سروره بثقافة جواد ولباقة حديثه، وقدرته على الإصغاء، غير قليل أيضاً؛ وقد لاحظ جواد أن جوليان طيّب القلب، ليبراليّ التفكير، وأنه يميل إلى الإكثار من الكلام والشراب، وهذه نقطة ضعفه التي يمكن استغلالها، وقد استغلّها جواد فعلاً، حين أسرّ له جوليان، بعد شهور من التعارف، وفي حالة سكر، أن لواء الاسكندرونة موضع مساومة دوليّة، وأنه سيُعطى، ربما، إلى تركيا، مقابل ضمان حيادها، وعدم انضمامها إلى المحور، الذي هو في طور التشكّل، من المانيا وإيطاليا واليابان!

قال جواد بلا مبالاة:

ـ من يدري، فاللواء أرض سورية، ومن المستبعد أن تتخلّى عنه.

ضحك جوليان وقال:

ـ نحن، مع حلفائنا، مَنْ يقرّر هذا الأمر، وليس سورية!

ـ كيف؟

ـ بالطرق الديبلوماسيّة، ومن المرجّح ألا يتأخّر كثيراً الاتّفاق على ذلك.

أضاف جوليان:

ـ إذا تمّ الاتفاق، وأرجّح أنه سيتمّ، سنجد أنفسنا، نحن هنا في كسب، أمام مشكلة سكانية، فأرمن اللواء لن يبقوا تحت الحكم التركيّ، وسيأتي عدد كبير منهم إلى منطقة كسب، وسيكون الوضع صعباً، ولا بدّ، عندئذ، من قوّة أمن إضافية، ومن مدارس أخرى مستحدثة.

قال جواد:

ـ بُعْد النظر ضروريّ، ولكن سورية لن تسلّم، وسكان اللواء، من أرمن وعرب، سيقاومون.

ـ يقاومون من؟ فرنسا؟ نحن سننسحب!

ـ تتخلّون عن أرض لكم؟

ـ أرض لنا!؟ قل عن أرض تحت انتدابنا، وعندئذ ليتفضّل العرب ويقاوموا تركيا كما قاوموا فرنسا!

قال جواد:

ـ هل نسيت، يا صديقي، أنني عربيّ؟

قهقه مدير الأمن جوليان وقال:

ـ لم أنس، ولكن السياسة هي السياسة، والمصلحة الدوليّة

تفرض علينا ذلك، أما أنت فستكون مديراً لإحدى المدارس الجديدة، أعدك بشرفي العسكري.. ولكن انتبه! وعدي مرهون ببقائي هنا، والاحتمال الأكبر ألاّ أبقى، أقول لك هناك تطوّرات دوليّة، فلماذا لا تصدّق؟ ولماذا أنت سلبيّ تجاه السياسة؟

ـ لأنني لا أفهم فيها، ولا أريد.. الدراسة، الثقافة، الأدب، هذه كلها موضع اهتمامي، وما تبقّى لا علاقة لي به.. هل قرأت «أزهار الشر» لبودلير؟ إنه سوداويٌّ، لكنه رائع! أنت، يا عزيزي، خلقت لتكون أديباً وليس عسكريّاً، وهذا واضح من سلوكك، هناك ارتياح عامّ لوجودك في كسب.. الأمن مستتبّ، كلّ شيء على ما يرام، فماذا يثبت هذا؟ إنه يثبت أن الأمن يدار بالكياسة بأفضل مما يدار بالكرباج، ياه! تأخرتُ، شكراً، عليّ أن أصحّح وظائف طلابي قبل النوم.

قال جوليان:

ـ أنا سعيد لأن كلّ شيء، كما تقول، على ما يرام في كسب.. لكنني أهتمّ بأشياء أخرى، هي خارج دائرة اهتمامك!

قال جواد:

ـ هذا صحيح مع الأسف!

ـ ولماذا تأسف؟ أنت فهمتني أكثر من كل الآخرين، قلت إنني خلقت لأكون أديباً.. نعم! هذا هو، إلى اللقاء!

خرج جواد من عند جوليان وهو يتساءل: «من أين له كل هذه المعلومات؟ إنه يتنبأ بأشياء خطيرة، فلماذا اختارني أنا ليقولها لي؟ عليّ أن أحذر، فقد يكون هناك فخّ لاصطيادي؟ وقد تظاهر جوليان بأنه مسرور منّي، وأنه صدّق أن الأمن في كسب مستتبّ، فهل بلع الطعم؟ ربما نعم، وربما لا! عليّ أن أكون حذراً». توقّف جواد فجأة، استدار نحو جدار طينيّ، بذريعة قضاء حاجة، لكنه، وهو يفعل ذلك، نظر إلى وراء، إلى ما حواليه، ليرى ما إذا كان جوليان قد أرسل وراءه من يراقبه، لم يجد أحداً، لكنه، في بيته، راقب من غرفة غير مضيئة، الطريق، وبعض الأشجار التي تحيط بالبيت، وانصرف، بعد ذلك، للقراءة.

في اليوم التالي، التقى بيرانيك في غرفة المدرّسين، كأنها، وهي بمفردها، كانت تنتظره. حيّاها بعيداً، فتح كتاباً ليقرأ وهو يتساءل: «أتكون هي!؟» أضاف: «من المحتمل جداً أن تكون عين جوليان عليّ!» تابع القراءة وهو يفكّر فيها، ويفكّر، أيضاً، بمدير الأمن، الذي كان لطيفاً معه بالذات، أكثر من كلّ المدرّسين الآخرين، وقد استراب بهذا اللطف، لأنه، جواد، لا يرتاح إلى اللطفاء جداً بطبعه، وقد قرّر أن يكون أكثر مرونةً مع بيرانيك، ليعرف ماذا يدور في رأسها حوله، لذلك تجاهل وجودها لبعض الوقت، فلما سألته:

ـ ماذا تقرأ؟

أجاب:

ـ مدام بوفاري لفلوبير!

وبعد أن أغلق الكتاب وإصبعه على الصفحة، سأل بدوره:

ـ قرأت هذه الرواية؟

أجابت:

ـ منذ أيام الدراسة الثانوية، لكنني أرغب في قراءتها ثانية، إذا أعرتني إيّاها!

ـ بكل سرور.. تجيدين الفرنسيّة طبعاً!

ـ هذه لغتي الثالثة، بعد الأرمنيّة والعربيّة.

أضافت وهي تبتسم:

ـ الفرنسية لغة العائلة أيضاً، بعد اللغة الأرمنيّة.

أبدى إعجابه وقال:

ـ هذا جيّد جداً، الثقافة معيار حضاريّ!

ـ نحن عائلة على الموضة.. كما يقولون!

ـ هذا واضح من كلّ شيء فيك!

ـ يسرّني هذا الاطراء.. ومنك أنت بالذات.

قالت بنبرة استغراب:

ـ ولماذا منّي أنا بالذات؟

ـ لأنك.. كيف أقول؟

ـ انطوائيّ!

ـ ليست هذه بالكلمة المناسبة. . لكن الزملاء المدرّسين يقولون هذا.

ـ وأنتِ؟ من رأيهم طبعاً!

ـ ولماذا هذا الافتراض؟

ـ هذا ليس افتراضاً. . إنه حقيقة!

ـ وما سببها؟

ـ طبع!

أضاف وهو يفتح الكتاب من جديد:

ـ شكراً على كل حال!

قال ذلك وتظاهر بأنه يقرأ. . كان يفكر ببيرانيك وعائلتها، التي لغتها الثانية هي الفرنسيّة، والتي هي، كما يُقال، على الموضة، وهذا ما زاد في شكّه، لأن صلة الفرنسيين، بهذه العائلة، لا بدّ أن تكون جيّدة، إذا لم تكن متينة، وهذا أمر يهمّه من الناحية السياسيّة، وقد ارتاح لمرونته في الحديث مع بيرانيك، وجعْلها تطمئنّ إليه نوعاً ما، وهذا يكفي لهذا اليوم، لذلك نهض قائلاً:

ـ كان بودّي البقاء أكثر، لكنني أعتذر. .

قاطعته ضاحكة:

ـ الاعتذار المعتاد طبعاً!

قال:

ـ أرجوكِ، لا تأخذي فكرة سيّئة عنّي!

قالت:

ـ سآخذ فكرة حسنة عنك، إذا كان لديك وقت للقيام بنزهة قصيرة.

ـ لديّ وقت قليل.

قالت من فورها:

ـ هذا يكفي، إذا سمحت لي بمرافقتك!

شعر جواد وكأنه وقع في المصيدة، ولا سبيل إلى الرفض، لذلك قال لها:

ـ تفضّلي!

خرجا من المدرسة إلى الشارع، كان جواد حذراً بأكثر مما يجب، لهذا بدا مرتبكاً قليلاً. لزم الصمت للوهلة الأولى، ثم قرّر أن يلعب دوره بإتقان، فسأل:

ـ هل أنت مرتاحة في عملك معنا كزميلة؟

ضحكت وقالت:

ـ هذا سؤال موجّه إليك، ومن كل الزملاء، فهل أنت مرتاح في تدريس مادّتك؟

ـ ليس كثيراً!

ـ هذا واضح!

أضافت:

ـ اللغة الفرنسيّة صعبة، والمهمّ، في هذه المدرسة، اللغة الأرمنيّة.. لكننا، في كسب، نتكلم العربيّة والتركيّة.

قال جواد:

ـ من سوء الحظّ..

قاطعته:

ـ دائماً من سوء الحظ؟

قال بسذاجة شفّافة:

ـ أعذريني، يبدو أن هذه العبارة أشبه باللازمة بالنسبة لي..

قالت بيرانيك:

ـ وأنا أعتذر عن هذه النكتة البائخة.. ماذا كنتَ تقول؟

ـ من سوء الحظ..

صاحت:

ـ أيضاً!؟

ضرب جواد على رأسه براحة يده وقال:

ـ إنني لا أتكلم الأرمنية أو الانكليزيّة، هذا ما أردت قوله، قبل هجومك عليّ.

ـ هل أزعجك كلامي؟ يا إلَهي! كم أنت طيّب، ورقيق الإحساس.. كالزجاج تماماً!

ـ التربية البيتيّة، والتشكّل النفسيّ، هما السبب في خجلي ورقّة إحساسي كما تقولين.

سألت ييرانيك:

ـ هل أُغضبك إذا قلت لك إن سلوكك غريب، وإنه مستهجن من قبل كلّ الزملاء.

قال جواد:

ـ وماذا أفعل إذا كان هذا طبعي؟

ـ تعلَّمْ أن تكون جريئاً؟

ـ كيف؟ وعلى يَد من؟

ـ عن طريق المباشرة، وعلى يديّ.

ـ هذا شرف كبير، لا أستحقّه.. مع ذلك سأجرّب أن أتعلّم منك، والآن أعتذر، لديّ عمل مستعجل..

ـ لا بأس!

تصافحا، افترقا، ضحكت ييرانيك من بلاهة جواد، ابتسم هو من خبثها، قال في نفسه: «هذا أول الطريق! لكنني سأصل، سأعرف، ولن تكون ييرانيك هذه أكثر براعة ممن عرفت من النساء!». اشترى، وهو في طريقه إلى البيت، بعض ما يحتاجه

لأجل الطعام، وعند مروره بدكان الحدّاد اواديس حنانيان، سقط الكتاب الذي كان بين الأغراض، فانحنى والتقطه، ثم ذهب إلى البيت مباشرة، ولم يخرج منه. لم يشعل الضوء ليلاً، اكتفى بإشعال شمعة في المطبخ، وأخذ يروح ويجيء، بانتظار أن تحلّ الساعة العاشرة ويُطرق الباب عليه، كي يخرج من البيت، لأوّل مرة منذ وجوده في كسب، إلى المجهول الذي ينتظره. لبس ثياباً وجدها في صرّة قرب الباب، هي عبارة عن شروال أسود، وقميص من نفس اللون، وزنّار، وقلبق من جلد السمور، وفوق هذا كله عباءة من جلد الخروف الأبيض، كعادة الفقراء من سكان كسب ومنطقتها. تأمّل نفسه في المرآة، ألصق، فوق شفته العليا، شارباً اسود ضخماً، دون أن يحمل أيّ سلاح، واستعدّ للخروج ما إن يطرق الباب.

كانت المواعيد، في مثل هذه الظروف، دقيقة جداً، وحين تجاوز الوقت العاشرة والربع دون أن يُطرق الباب، بدأ القلق ينتابه، وفي العاشرة والثلث، سمع نقراً على النافذة، وهذا مخالف للاتفاق، فلم يفتح الباب، لكن النقر على النافذة تكرّر، وفق الإشارة، ففتح الباب وخرج، سائراً بخطى معتادة لمن يمشي في الليل، وراء شخص ملثّم، دار به عدّة دورات، قبل أن يتّجه إلى بيت أمامه حظيرة ماشية، في منطقة بعيدة عن الساحة الرئيسيّة، وعن الاسواق، وبيوت الأثرياء والوجهاء من سكّان مدينة كسب.

توقّف الشخص الملثّم، وأشار داعياً جواد إلى الدخول، وعلى

ضوء شمعة، موضوعة قرب الباب الداخلي، نزل درجاً خشبياً أفضى به إلى قاعة أشبه بالقبو، الذي يخصّص عادة للمؤونة! كان الحدّاد حنانيان على العتبة ينتظره، فأخذه بين ذراعيه وعانقه، ومضى أمامه إلى غرفة داخليّة، صغيرة، مضاءة بفانوس كاز، وعندما خلع جواد عنه جلد الخروف، ونزع الشارب المستعار، وخلع القلبق، صدرت شهقتان في وقت واحد، إحداهما عن بيرانيك، والأخرى عن جواد! تجمّدا من الدهشة، لم يصدق كل منهما ما يرى، وعندما خرجا من حالة الذهول الومضيّة، تعانقا، وعاد أحدهما ينظر إلى الآخر وهو يبتسم، وفي العينين تشعّ نظرات غريبة، فيها فرح وفيها دمع متحيّر، إلى أن هدأ خفقان القلبين، وقال اواديس حنانيان معرفاً:

ـ الرفيق العزيز أندريه فازليان!

ثم عرف الرفاق الآخرين، الواحد بعد الآخر، وعندما جاء دور بيرانيك، قال حنانيان:

ـ بعد العناق، لم تبق حاجة للتعريف.

قالت بيرانيك:

ـ ولكنني لا أصدّق، أرى ولا أصدق، هذه مفاجأة العمر!

قال جواد ضاحكاً:

ـ من سوء الحظّ..

قاطعته بيرانيك:

ـ هذه المرة، من حسن الحظ! كنت رائعاً يا رفيق اندريه، لعبت دورك كمدرّس بشكل يدعو إلى الدهشة والإعجاب!

في هذه اللحظة دخل شابّ متنكّر، كان هذا دكران، دكران بكل كيانه ورجولته، فعانق الجميع، وقال لأندريه بعد أن قبله عدة مرات:

ـ حصل تأخير بسيط في الموعد، لأن رفيقنا في الأمن العامّ، تأخر في إعطائنا إشارة الخروج، بسبب وصول المستشار من اللاذقيّة، والاحتياطات الأمنيّة غير العاديّة التي اتّخذت في كسب لحمايته . .

قال جواد:

ـ قدرت أن هناك طارئاً، لأن مواعيدنا، في مثل هذه الظروف، دقيقة! لكن أنت دكران بعينه!؟

ـ أنا مواطن أيضاً، أقوم بواجبي!

استغرب جواد. شرب الجميع كأساً من الكونياك، على شرف الرفيق فازليان، وفوراً قال دكران:

ـ المنطقة محروسة جيّداً . . إنها تحت إشرافي المباشر، وكذلك جوليان ورجاله، وأنا أستأذن، لأن عليّ أن أكون في الخارج.

قال حنانيان:

ـ لنبدأ الاجتماع، أيّها الرفاق، وفوراً . . الرفيق فازليان يترأس هذا الاجتماع، المخصّص للتعارف، ولسماع تقرير منه، عن

المستجدّات السياسية وغيرها.

قدم جواد، أو «اندريه فازليان» تقريره.. كان يتكلّم بهدوء، وثقة وتكثيف شديد، وبشكل متسلسل وواضح، وقد فوجىء الجميع عندما قال لهم: أيها الرفاق! النبأ غير المريح، هو أن لواء اسكندرونة قد أعطي لتركيا، وانتهى الأمر تقريباً.. إنها مؤامرة دوليّة، وينبغي الاستعداد جيّداً، وإبلاغ القيادة بالتفاصيل.. مجيء المستشار الفرنسيّ إلى كسب الليلة، له علاقة بهذا الموضوع.. فرنسا باعتنا لتركيا! وأحسب أن القيادة في دمشق تعرف هذا جيّداً، مع ذلك لا بدّ من إبلاغها!

سرت همهمة بين الجميع. كان الخبر صاعقاً. تركيا، بعد استيلائها على لواء اسكندرونة، ستصبح على حدود كسب، إذن ما العمل؟ خيّم صمت على الجميع، ومع أن «اندريه فازليان» فتح مجال المناقشة، طالباً الاختصار ما أمكن، فإن أحداً لم يعلق، سوى الرفيق حنانيان الذي قال:

ـ كانت هناك، لدى قيادة الحزب، علامات استفهام حول هذا الموضوع، وكانت الصحف الأجنبية قد نشرت بعض الأخبار عنه، إلا أنها مُنعت من الدخول، وكذلك مَنعت الرقابة في سورية نشر أيّ خبر أو تعليق حول هذا الموضوع، في الصحف السوريّة..

أضاف:

ـ كنا ننتظر تقريراً من القيادة، يتضمّن وجهة نظرها، وتقديراتها،

وتوصياتها، حول هذا الموضوع الخطير، ونحن الآن في وضع عكسيّ، إذ علينا نحن أن نوصل تقريراً مفصلاً للقيادة، مع رفيق أمين مجرّب وغير معروف، لأنني أثق، بحكم الخبرة والعمل المشترك، أن الرفيق «فازليان» لا يقول أشياء غير واثق من صحّتها مئة بالمئة. . وعلى كل فإن إبلاغ القيادة، حتى لو كانت أكثر مما نعرف نحن، هنا في كسب.

قال رفيق آخر:

- إنني لا أطلب من الرفيق «فازليان» أن يكشف لنا مصدر هذه المعلومات، لأن هذا من اختصاص القيادة، إلا أنني ألاحظ أن هذه المعلومات مضخّمة، وأن موضوع لواء اسكندرونة لم ينته، لذلك أطلب التريّث قليلاً.

قال رفيق آخر:

- أنا مع التريّث، لأننا اعتدنا على تسريب أخبار من قبل السلطات الفرنسيّة، غايتها جسّ النبض، ومعرفة ردود الفعل. . فإذا كان لا بدّ من إطلاع رفاقنا على هذه المعلومات، فلنطلع رفاقنا في اسكندرونة، لأنهم في قلب الأحداث، مع ترك الحريّة لهم في التصرّف.

قال حنانيان:

- المعلومات صحيحة في رأيي، لأن أحد الرفاق أبلغني اليوم، أن المندوبيّة في اللاذقيّة تقوم بتحقيق سرّيّ، حول الطاقة السكّانية في منطقة كسب، وقدرتها على الاستيعاب.

قالت يبرانيك:

- أنا من رأي الرفيق حنانيان، لأننا نحن، هنا، في مركز اطّلاع ملائم، لقربنا من اللواء، وفرنسا تولي الأرمن في اسكندرونة، وفي منطقتها، اهتماماً خاصّاً، لاعتقادها أنهم سيقاومون تسليم اللواء لتركيا، وهذا اعتقاد في محلّه تماماً، فنحن لن نقف مكتوفي الأيدي، حتى تقع ضدّنا مذبحة أخرى على أيدي الأتراك.. علينا ألاّ ندع الزمن يسبقنا، وأن نأخذ الأمور مأخذ الجد، ونقوم بالاستعدادات اللازمة، بعد التشاور مع قيادة حزبنا في دمشق، فما تقرّره نلتزم به تماماً.

أضافت:

- المسألة، في رأيي، تتعلق بالوضع السياسيّ العالميّ، وقد سمعنا من الرفيق «فازليان» أن جوّ الحرب العالمية الثانية يخيّم على أوروبا، وهذا ما تنشره الصحف، وتذيعه بعض الاذاعات بحسب التقرير الذي استمعنا إليه، إذن المسألة هي على الشكل التالي: هل هناك احتمال قيام حرب عالميّة ثانية؟ فإذا كان الجواب بنعم، فإن الجواب على مؤامرة إعطاء اللواء لتركيا، بقصد تحييدها، هو نعم أيضاً!

تحدّث «اندريه فازليان» من جديد، فلخّص المناقشات، ووجهات النظر قائلاً:

- كل الآراء مجمعة على أن هناك خطراً جدّياً، والاختلاف الوحيد هو: نخبر القيادة فوراً أم نتريّث؟ ننتظر حتى يسبقنا

الزمن، وتقع مذبحة أخرى، أم نسبق الزمن ونحتاط؟ المسألة مطروحة على التصويت برفع اليد، حول مسألة الإسراع بابلاغ القيادة: مَنْ مع الاسراع؟ ومن هو ضده؟

رفع الذين مع الإسراع أيديهم فكانوا الأكثرية، وعلّق رئيس الجلسة قائلاً:

- بقي علينا أن نسمّي الرفيق الذي يسافر إلى بيروت، حاملاً تقريراً شفهيّاً، إلى الرفاق في قيادة حزبنا مباشرة، فمن تقترحون؟ أنا أرشّح الرفيق حنانيان، لأنه اعتاد، بحكم عمله كحداد أفرنجي، أن يسافر إلى حلب، إلى اسكندرونة، إلى دمشق، إلى بيروت، وغيابه لمدة يومين أو ثلاثة لا يلفت النظر، خاصة إذا بقي العمل مستمراً، والورشة مفتوحة، وهذا سهل، لأن الذين يعملون معه من رفاقنا، هذا أولاً، وثانياً: على الرفيق حنانيان أن يمرّ بدمشق، فإذا وجد الأمين العام فيها، يقدّم له التقرير، ويحمل إلينا التوجيهات وهذا أسهل، ما رأيكم؟

أجمعت الآراء على سفر الرفيق اواديس حنانيان إلى دمشق أولاً، فإذا لم يجد الأمين العامّ يتابع إلى بيروت، على ألاّ يغيب أكثر من يومين أو ثلاثة أيام، وإذا سئل الرفيق الذي يدير ورشة الحدادة في غيابه فإن الجواب هو: ذهب ليحضر بضاعة للورشة.. انتهى الاجتماع، شكراً.

٨

أربع عيون لم يغمض لها جفن، هذه الليلة، إلا بعد وقت طويل من الاستلقاء، في محاولة للنوم ولو قليلاً: عينا بيرانيك، وعينا جواد! كانت أعصاب بيرانيك مستيقظة، من فرح واندهاش، لأنّ الذي لا يصير قد صار. كان جواد، في الاجتماع، غيره تماماً في المدرسة والشارع والحياة الاجتماعيّة، إن له سمة القائد الواعي، المطّلع، القدير على إدارة اجتماع، دون إطالة، مع إفساح المجال للرفاق المسؤولين في كسب منطقتها، كي يُبدوا رأيهم في الموضوع الخطير: لواء اسكندرونة، والمؤامرة الدوليّة حوله. وقد لفتتْ بيرانيك قدرةُ جواد على الإصغاء، وعلى الاستيعاب، ثم تلخيص النقاش، وطرح ما اتفق عليه على التصويت، واتخاذ القرارات المناسبة. «هذا الانسان الأبله، الخجول، الصموت، الانعزاليّ، خدعنا جميعاً، طوال العام الدراسي الماضي. لا أنكر ميلي الشعوريّ نحوه، لكنني كنت أشفق عليه، متمنّية، كل يوم، أن يتغلّب على عقدته النفسيّة: الانكفاء!

وعندما انضم إلى أسرة التدريس، باقتراح من العمّ وارطانيان،

عجبت للموافقة على هذا الاقتراح، وبررت ذلك بإجادته اللغة الفرنسيّة، مع أن أحداً من زملائنا لم يتوقّع له النجاح، ولم يُعرف عنه إلا أنه خرّيج الجامعة اليسوعيّة في بيروت، وأنه يذاكر لنيل الدكتوراه من فرنسا، دون تحديد الفرع الذي سيختاره بعد. لم يخطر لي على بال أبداً، أنه على صلة بالتنظيم السرّيّ للحزب في كسب، وأن علاقته محصورة بأواديس حنانيان، وأنه كان يدْرس الوضع السياسيّ والاجتماعيّ لهذه المنطقة، وهو الذي كتب العرائض كما أرجّح، وعندما سقط الكتاب منه أمام دكان حنانيان، وانحنى لالتقاطه، كدت أضحك من ارتباكه، دون أن يخطر في بالي أن هذه إشارة منه، مفادها موافقته على الاجتماع الليلة!».

جواد فكّر، قبل النوم، بالمفاجأة أيضاً. كان يجتمع بحنانيان في جوّ من السرّية التامّة، لحرص قيادة الحزب على بقاء التنظيم الخاصّ، في كل مكان، سرّياً، لأن له دوراً مستقبليّاً مهماً، في الوضع الدولي المعقّد، وإنعكاساته على منطقة الشرق الاوسط! هذا إذا ما نشبت حرب عالميّة جديدة، وقد بات من الواضح أنها ستنشب، بعد وصول كلّ من هتلر وموسوليني إلى الحكم، والتلويح بمطالب جغرافية من قبل دول المحور، الذي انضمّت اليابان إليه سرّاً. «كنت عارفاً، من العام الأول للمدرسة، أن بيرانيك تتحرّك، داخل المدرسة وخارجها، وفق هدف محدّد، وأنها بجمالها، «والريبانة» الحمراء التي تربط بها شعرها، وحضورها الطاغي، قادرة على التأثير في مجلس إدارة المدرسة،

وأن هناك توافقاً بينها وبين العمّ وارطانيان، أرجعتُه أنا إلى إعجابه بها، وربما إلى حبّ يكنّه لها دون أن يبوح به، وكانت محاولاتها للتحدّث معي موضع تساؤل، انقلب إلى شكّ بعد أن أعلمتني أن عائلتها «مودرن» وأن لغة العائلة الثانية هي الفرنسيّة بعد الأرمنية، واقتراحها الجريء بالتنزّه معاً، وفرض نفسها عليّ، في المرافقة، ونحن نغادر المدرسة! كل هذا رسّخ الشكّ في نفسي، فقرّرت أن أسأل عنها، الليلة، الرفيق حنانيان، وإذا بي أفاجأ أن ييرانيك ليست حزبيّة فقط، وإنما قياديّة أيضاً، وأنها رفيقة موثوقة ومجرّبة، ولم نُبْدِ، لا هي ولا أنا، تحفظاً أمام الرفاق الآخرين، وكان عناقنا ينمّ عن سعادتنا نحن الاثنين، وعن إعجاب أحدنا بالآخر. لكن ماذا بشأن المستقبل؟».

رأسان، وسادتان، وسؤال واحد: ماذا بشأن المستقبل؟ المغامرة ليست نصف الوجود، إنها الوجود كلّه، والحبّ ليس نصف الحياة، إنه الحياة كلّها. وتأتي المفاجأة، حين لا نتوقّعها، فرحة عمر كامل، بالنسبة للمرأة والرجل معاً! وعندما تحدث المعجزة، أو يساعد القدر، أو الحظّ، أو المصادفة، على حدوثها! تكون هذه الفرحة الليلة حدثت معجزة، ولا يهمّ من ساعد على حدوثها. حدثت في ظرف، هو نفسه، بحجم هذه المعجزة، لأنه ظرف لا يستبطن الليل وحده، إنما سرّ الليل معه. ففي النضال السياسيّ، تكون للعمل السّريّ رهبته، ومن هذه الرهبة يتولد سحر هذا العمل، فإذا انضاف إلى السحر الأكبر: الحب! يغزل الكون، من حولنا، قصيدة ناره الأبدية، التي تشيع

الدفء في قلوب ظن سَدَنتها أن هيكل الرب رفض ذبيحتهم.

لذة الهوى في الهوى نفسه! وعندما يكون هذا، ترفع الأرض ترنيمة المحبّة إلى السماء، وتتوهّج حتى النجوم الناعسة، مصغية، في يقظة حلمها، إلى ما يقوله حلمها، إلى ما يقوله وهمها، ففي الوهم يبحث الإنسان، النجم، القمر، الشمس، الكائنات، عن ذاك الذي يُحسّ إحساساً غامضاً، والذي هو الزاد، بين محطّتي سفر، نعرف متى بدأ، لكننا نجهل متى ينتهي. وفي هذا السفر إلى المبهم، تكون هناك، في الدرب الطويل، إشراقات سعادة، تلتهب معها الشفاه، في جحيم سعيرها؛ ومن الشفاه، والأصابع، والعيون، والحواسّ جميعاً، ينسرب هذا السعير، فيتحول الجسد، والجسد المقابل، في اتحادهما، إلى جحيم أرضيّ، هو الجحيم الذي يُفتقد، في كل مراحل العمر، ويُطلب، لذاته، في كل مراحل العمر أيضاً، نشداناً للاحتراق في مقاربة اللّذة في الألم.

الليلة اكتشف جواد، واكتشفت بيرانيك، أن الإبحار في الظلمة ممتع، فأبحرا، دون أن يسأل أيّ منهما إلى أين، فاشتياق السؤال ينبت وردُه في رماده؛ وكانا، على غير اتفاق، يستنشقان، من خلال مسام جسديهما شميم ورد الرماد هذا، المستقطر من الأحلام المعذّبة، في ليالي السهاد والحرمان، وعندما استيقظا صباحاً، لم يكن في كفّيهما ذلك الورد الرماديّ، إنما شميم ذكراه، ومعه استعاد كلّ منهما، وبطريقته الخاصّة، ما مرّ معه في ليلة نادرة، من ليالي حياته التي عاشها حتى الآن.

لم يكن جواد يرغب في أن يكون رجلاً غامضاً، أو تطلق عليه صفة الغموض، لأنها تشي بما وراءها، وقوس التأويلات، في هذا المجال، واسعة جداً، وقد اتخذ، منذ وصوله إلى كسب، أسلوب الرجل الجدّيّ، المنصرف إلى التدريس والدراسة معاً، وصار معروفاً أنه يحضّر للدكتوراه، دون تحديد الفرع، غير أن عليه، منذ اليوم، أن يقول، مغتنماً أيّ مناسبة، أنه اختار فقه اللغة، للحصول على الدكتوراه في مونبلييه، وبعد ذلك تدريس هذه المادّة في أيّ جامعة، ولو كانت في فرنسا ذاتها.

وعندما، في قاعة المدرّسين، التقى بيرانيك، كان تصرّف كلّ منهما طبيعيّاً، عاديّاً، لا يشي، كالعرار بشميمه، ولهذا لم يلفت نظر أيّ مدرّس أو مدرّسة، وحتى انطباع مدير المدرسة عنه، ظلّ هو هو، وكان انطباعاً إيجابياً، لأنه، جواد، عرف كيف يضبط الصفّ، ويحسن تعليم مادّته، في كثير من الرفق، وكثير من الحزم، عند الضرورة، ولم يتلق المدير بحقّه أيّ شكوى، سوى رفضه إعطاء الدروس الخصوصيّة، لأيّ طالب، من داخل المدرسة أو خارجها، وهذا موقف جيّد، يختلف عن موقف بعض المدرّسين، الذين وافقوا على إعطاء دروس خصوصيّة، لأبناء عائلات من الوجهاء.

وكيلا يلفت الأنظار، غيّر، شيئاً فشيئاً، جوانب من علاقته بمدرّسة الحساب، بما فيه الجبر، الآنسة سوزان، المعروفة بميولها الطاشناقية، فصار يحدّثها، أو يتبادل الحديث معها، حول أمور كثيرة، ولبّى طلبها إلى التنزّه معه، كما لبّى، مع مضيّ

الوقت، طلبات أخرى أيضاً، مثل تبادل الكتب، لتقوية لغتها الفرنسيّة، بمساعدته. وقد ثار لغط، في المدرسة، وفي بعض الأوساط، عن هذه العلاقة، بين جواد وسوزان، وراجت إشاعات حول الحبّ المتبادل بينهما، الحبّ الذي سيفضي إلى الخطوبة فالزواج.

ومع أن بيرانيك تعرف الحقيقة، وهي مطّلعة على خطّة جواد الجديدة، المتعمّدة، المرسومة بإتقان، فقد أخذ يساورها القلق، المتنامي يوماً بعد يوم، حتى كاد أن ينقلب إلى غيرة، لولا أن الأحداث تلاحقت، وبدأ تحرّك جماهيري، بتحريض ومساندة من الأحزاب الوطنيّة العربيّة، ضدّ مؤامرة سلخ لواء اسكندرونة عن سورية، المؤامرة التي ظهرت، بكل أركانها، إلى العلن، فراحت الصحف العربيّة بعامة، والأرمنية، في لبنان بخاصة، بمهاجمة المؤامرة والمتآمرين، وشنّ حملة شديدة على فرنسا، رافقتها عرائض، برقيات، تصريحات، منشورات، صادرة عن الأحزاب ورجال السياسة، في سورية ولبنان معاً، وخرجت المظاهرات الضخمة، في اسكندرونة، انطاكية، ارسوز، ضد محاولات سلخ اللواء، وللمطالبة بوقف المؤامرة، تبعتها مظاهرات، في دمشق وبيروت وسائر المدن السوريّة واللبنانيّة، أكثر ضخامة، وسافرت وفود إلى باريس لشرح القضية، وللاحتجاج، وكسب تأييد القوى اليساريّة والتقدّميّة، للموقف السوريّ الرافض والغاضب، إلا أن المؤامرة كانت قد دخلت حيّز التنفيذ، ولم يجدِ الاستفتاء المزوّر أيّما جدوى، وعلى الأثر دخل، عام ١٩٣٨، الجيش التركي إلى

اسكندرونة، وأعلنت الأحكام العرفية في اللواء، وفي وقت لاحق دخل الجيش التركي إلى إنطاكية أيضاً!

«كارثة!» بهذه الكلمة لخّص سركيس ماخيان المؤامرة، أمام قيادة الحزب في بيروت وقال أيضاً: «في رأيي أن أرمن اللواء، هم المعرّضون للخطر، بما فيه الانتقام التركي، لأسباب تاريخية، منذ المذبحة الكبرى، ولأنهم يشكلون طليعة سكان اسكندرونة مقاومةً، وتجمّعهم في اللواء العربي هو، من حيث الكثافة، بعد تجمّعهم في بيروت مباشرة، فما العمل لدرء هذه الكارثة، أو للتخفيف من أثرها على السكّان، وعلى الحزب، الأكثر نشاطاً وعلانية في اسكندرونة، منه في دمشق وبيروت وكل البلاد العربية!؟ لذلك، وخشية تحرّك أرمنيّ مرفق بتحرّك عربيّ مماثل، فرضت الأحكام العرفية، وفي محاولة لتهجير الأرمن خاصّة، والعرب عامّة، سرّب المستشار الفرنسيّ الجديد، الذي زوّر الاستفتاء بأمر من قيادته، إشاعة مفادها بأنّ الأتراك قد يهاجمون الأحياء الأرمنيّة في أيّ وقت، وستكون مذبحة الأرمن على أيديهم، أشدّ فظاعة من مذبحة الأرمن في الاعوام ١٩١٦-١٩١٨ وما بعدها، على أيدي الأتراك أيضاً، وهذه الأخبار غايتها بثّ الذعر، وهو ما حدث فعلاً، فجرى تشكيل دوريّات مسلّحة من الأرمن والعرب، لحراسة الأحياء المتوقّع استهدافها، وتطمين السكان على أرواحهم بالأقلّ.

وقال اواديس حنانيان، في الاجتماع ذاته:

- معلومات الرفيق «اندريه فازليان» التي نقلتُها إلى القيادة، كانت

صحيحة، ومتطابقة مع معلوماتها تماماً، والخوف من أن يسبقنا الزمن كان في محلّه أيضاً، وها نحن نجد أن الزمن قد سبقنا، وكان التحرّك ضدّ المؤامرة الدوليّة على اللواء متأخّراً، ولا بدّ من تحديد المسؤولية.

أيّد ممثّل الحزب في حلب، الرفيق عبد الجليل سيريس، طلب تحديد المسؤولية، وكذلك فعل ممثّلو المنطقيّات في أكثر مدن سورية ولبنان، فاعترفت قيادة الحزب بأنها مسؤولة عن التأخير، وعن التقصير، وعن حشد أوسع الجماهير في وقت مبكر، لكنّها أوضحت أن ما جرى كان مقرّراً دوليّاً، ومن الصعب الحيلولة دونه، وأن فرنسا وبريطانيا اتّفقتا، في جوّ من السرّيّة الكاملة والمشدّدة، على إعطاء لواء اسكندرونة لتركيا، لقاء تحييدها بالنسبة للمحور، وكانت هذه ذريعة، فيها الكثير من التنازل، أمام الموقف الصحّ، وهو المجابهة، لكن السلطات اليمينيّة في باريس ولندن، وربما في دول حليفة أخرى، وبواسطة إعلامها، برّرت هذا الموقف التخاذليّ، المتّفق عليه في ميونيخ، من قبل تشمبرلين ولافال وغيرهما؛ ومعلومات رفاقنا في هذه الدول، أن ثمة تنازلات أخرى، ستسرّع في نشوب الحرب العالمية الثانية، وهنا الخطر الكبير، الخطر الذي علينا أن نواجهه، وهو القمع الشديد الذي سيمارس ضدّنا، والذي يضطرنا، منذ الآن، إلى اتّخاذ الترتيبات اللاّزمة، والمتلائمة، مع ظروف العمل السرّيّ، من القاعدة إلى القمّة، وبأقصى ما يمكن من السرعة، وبكثير من التكتّم، والحذر، ومراقبة العناصر المشكوك، ولو بحدّ أدنى، في

إخلاصها الكامل للحزب، أو غير المدرّبة، وغير المجرّبة، وغير القادرة على الصمود أمام الملاحقة والتعذيب. . طبعاً هناك مفاجآت، وهناك حالات طارئة، لا بدّ من المرونة في التعامل معها، وكذلك من الصلابة، المرونة التي لا تصل إلى حدّ فقدان المبادىء، والصلابة التي لا تبلغ درجة الانقصاف، وأنتم تعلمون أن لكل موقف ملموس، تحليلاً ملموساً، إنما علينا أن نرى الغابة التي وراء الشجرة، والعكس صحيح أيضاً، وأن نكون على يقين تامّ بأنّ عدوّنا ليس أقلّ ذكاء منا، أو أقلّ قدرة على التحليل، وحتى التحليل المادّي، فلسفياً وتاريخياً، أو أن ننسى أن هذا العدوّ القويّ لديه دراسات، وتقارير، وملاحظات، وكذلك مخطّطات، عن سكن كلّ منا، وعن تحرّك كل منا، وكذلك عن الناحيتين الفيزيولوجية والسيكولوجية لكلّ منا، أقصد الأعضاء النشيطين في مرحلة النضال العلنيّة، لتحديد نقاط القوّة والضعف في هذا العضو المعروف، أو ذاك. . أرمن اللواء سيرحّلون، وعرب اللواء أيضاً، ولكن بدرجة أقل. . لن يُطلب من أحد أن يرحل، سواء من الأرمن أو العرب، إلاّ أن الإشاعات عن المذابح، ووقائع التاريخ القريب، وما لاقاه الأرمن على أيدي الأتراك، ستجعل كلّ أرمني يرحل، ولدينا معلومات أن وسائط الرحيل أصبحت جاهزة، وعن طريق البحر، وإلى أيّ مرفأ سوريّ أو لبنانيّ. أما عرب اللواء فلن يرحّلوا كما الأرمن، وستترك لهم حريّة البقاء أو السفر، وعليهم، أي على الراغبين من العرب في الهجرة من اللواء، أن يجدوا وسائط سفرهم بأنفسهم، وستقدَّم لهم مساعدات بسيطة جداً من قبل السلطات الفرنسيّة، في المدن

التي يسافرون إليها فعلاً، وستتاح لكل مهاجر، أرمنياً كان أم عربياً، أن يختار بين الجنسيتين: السوريّة أو اللبنانيّة، وهذا كل ما لديّ من معلومات في الوقت الحاضر.

قال حنانيان:

ـ هناك معلومات إضافيّة، من مصادر موثوقة في تنظيم كسب، تفيد أن الترحيل من مرفأ اسكندرونة، سيبدأ في شهر نيسان أو أيار ١٩٣٩ غالباً، وبواسطة سفن فرنسيّة ستصل تباعاً إلى هناك، ومن يرحل بعد ٣٠ تموز ١٩٣٩، لن يعطى المساعدة المقرّرة، وسيرحل الأرمن الذين يقطنون قريباً من كسب، إلى منطقتها الجبليّة، لأن الاحتلال التركيّ للّواء سيشمل بلدة «أوردي» القريبة، وسيكون المفرق هو الحدّ الفاصل بين سورية وتركيا، أو بين سورية واللواء السليب، بحسب التعبير السياسيّ الدارج الآن، وسيسمّى اللواء «هاتاي»، أي أن الأتراك سيكونون على بعد أمتار منا، لأن مخفرهم الأمامي سيكون في المفرق، على مفصل الدربين: درب «أوردي» ودرب كسب، وهذا يعني أن الخطر علينا سيكون على مرمى حجر منّا!

أضاف حنانيان:

ـ طبعاً لا أحد من أرمن كسب سيرحل، لن يترك بيته وأرضه ويرحل، إلا في حال استعمال القوّة، وهذا خارج الاتّفاقية ـ المؤامرة حتى الآن، إلاّ أن الأرمن المُهجّرين ستستقرّ غالبيتهم في لبنان، في قرية عنجر التي ستتحوّل إلى مدينة كبيرة، يجري

التخطيط لها في الوقت الحاضر، وبأقصى سرعة. إننا في وضع استثنائي جداً، فكسب محاصرة من الأتراك في المفرق، ومن التركمان الذين هم بينها وبين اللاذقية، وقد يسلّح الأتراك هؤلاء التركمان، ليحولوا بين أرمن كسب والوصول إلى اللاذقيّة، وهكذا يصبحون بين نارين، لذلك علينا أن نتسلّح نحن أيضاً، وأن يتوافر لنا المال ومصدر السلاح، وإلا فإنّ العاقبة وخيمة!. أمر آخر لا يقلّ أهمية: كيف نرتّب المساكن، الخيام، لاستقبال الأرمن النازحين إلى كسب، من أنطاكية، من أوردي، ومن القرى المجاورة، التي احتلّها الجيش التركي؟ وماذا بشأن الطعام والماء والحاجات الأخرى؟ وهل هناك أمل بعودة لواء اسكندرونة إلى سوريّة قريباً؟فقد صرّح فارس الخوري: «أن اللواء كان عربيّاً وسيبقى عربيّاً!».

أجاب مسؤول القيادة:

- أنت، يا رفيق حنانيان، وجّهت أسئلة كثيرة، ودفعة واحدة، والجواب على بعض هذه الأسئلة يحتاج للرجوع إلى القيادة، وبعضها الآخر، مثل وضع الأرمن النازحين إلى كسب، وما تحتاجه منظّمتها من مساعدات للتغلّب على مصاعب إيوائهم وإطعامهم، فهذا قابل للبحث الآن، فما رأي الرفيق ماخيان؟

ابتسم ماخيان وقال:

- تسألونني أنا، الذي سأكون في عداد الأرمن المهاجرين من اسكندرونة؟ ما قاله الرفيق حنانيان في محلّه تماماً: لا بدّ من

التسلّح والاستعداد، حتى لا تكون مذبحة جديدة للأرمن، وإن كنت أرى أن سلخ لواء اسكندرونة عن سوريّة، وإعطاءه لتركيا، سيُكتفى بهما الآن، وأن اللواء قد سُلب نهائياً، وإلى زمن طويل. فالعرب، مع وعد بلفور، سيواجهون مشكلة جديدة، هي فلسطين، التي ستشغلهم طويلاً جداً. والمهمّ، بعد، أن نكون حَذِرين، وأن نعدّ، كل في منطقته، المخابىء اللازمة للحياة السرّيّة، حتى لا تفاجئنا الأحداث، وأن نهيّىء، منذ الآن، الكوادر من رفاقنا غير المعروفين، الذين سيتولّون القيادة بالاتّفاق معنا، والذين سيجدون، في ضوء المستجدّات، الطريقة المأمونة للاتصال بنا، وللاجتماع مع بعضنا، على الأقل، عند الضرورة القصوى، وأن يكون هؤلاء الرفاق ممن أثبتوا كفاءة قيادية، والأهمّ أن يكونوا متمرّسين، مجرَّبين، قد أعطوا برهانهم، سابقاً، في الإفلات من الرقابة الأمنية التي ستفرض، كما أرجّح، عليهم، عند الاشتباه بهم، وأن يكونوا ممن امتحن إخلاصهم، وقدرتهم على احتمال السجن، وعلى الصمود في وجه التعذيب، الجسديّ والنفسيّ!

قال بغوص ستراك، من منطقيّة حلب:

ـ وماذا بشأن الرفاق الذين طُردوا من الحزب شكلياً، بقصد التمويه؟ هؤلاء سيكونون مفيدين لنا.

قال ممثّل القيادة:

ـ الطرد الشكلانيّ من الحزب لعبة قديمة، وربما مكشوفة،

فالأمن العامّ الفرنسيّ ليس بالمغفّل، وكلّ عضو حزبيّ، حتى مع إعلان طرده في نشراتنا السرّيّة، أو في بعض الصحف العلنيّة، الصديقة لنا، له «فيش» عند هذا الأمن، وسيكون موضع مراقبة. والنفع الوحيد منه، هو قياس «البارومتر» السياسيّ، أي معرفة المناخ السائد في أوساط الشعب، ومدى التحوّلات الفكريّة والنفسيّة الطارئة عليه، وهذه أمور تدخل في التنظيم، تبحثها كلّ منطقية وفق ما يجري حولها على الأرض، وما أريد أن أبلغكم إيّاه هو الآتي: استراتيجية الحزب، وأنتم تعرفونها، تضع مسألة الاستقلال الوطنيّ في رأس مهمّاتها، وهذه المسألة، في الظروف الراهنة والمقبلة، تأخذ بعداً جديداً، بعداً استثنائياً. فإجلاء فرنسا عن سورية ولبنان، ضرورة وطنيّة من الدرجة الأولى، وعلى هذه النقطة يجب أن نركّز جهدنا. فاستخلاص السيادة، التي يغتصبها الاحتلال الفرنسيّ، هو باب الخلاص، وفي مطلق الأحوال، ومهما تكن التطوّرات، فإننا سنعود إلى هذه النقطة: الاستقلال الوطنيّ، وبعد الاستقلال، لا قبله، يكون النضال للتقدّم الاجتماعيّ الذي هو إحدى غاياتنا، ويمكن، أو يجب، أن نقرن بين النضال التحرّري، والنضال للتقدّم الاجتماعيّ. لذلك علينا أن نهتمّ، أقصى الاهتمام، بمطالب الشعب، مهما تكن صغيرة، وبذلك يحقّق الحزب شعبيته المطلوبة، حتى في ظروف العمل السرّيّ الذي قد نضطر إليه، إذا أعلنت الحرب العالمية الثانية، وفي رأي القيادة أن هذه الحرب بدأت نذرها منذ الآن.. هل من ملاحظات؟

قال حنانيان:

ـ ومسألة الهجرة من اللواء؟

ـ هذه تدخل في التكتيك، ونحن نتكلّم على الاستراتيجية.. من رأيي أن يبقى الرفيق حنانيان في بيروت، ليوم أو يومين إضافيين، وخلالهما يبحث مع القيادة طرق معالجة هذه الهجرة، وهجرة الأرمن من اللواء إلى كسب خصوصاً. إلاّ أن الأمور، في هذا الشأن، معقدّة، فالغالبية من أرمن اللواء، ستستقرّ في بيروت، وبدرجة أقل في حلب.. انتهى الاجتماع، شكراً.

٩

الغابة ليست بيتاً، ولكنها يمكن أن تصير، عند الضرورة القصوى، بيتاً مؤقّتاً وآمناً. بيرانيك لم تكن تغزل من الإبر الصنوبريّة خيوطاً لفستان عرسها، وجواد لم يكن يبني من كيزان الصنوبر أيّ جدار لبيت الزوجيّة المقبل، كانا يعيشان الطبيعة، يفترشان الغابة، يتغذّيان بالصمت، يصغيان إلى السكينة، في نشيدها الأبديّ المهيب، وكل منهما يفكّر: ماذا بعد؟ لقد شهدت كسب قوافل الأرمن المهجّرين إليها، المدفوعين بالذعر من حكم الأتراك، وكان منظرهم، وهم يصلون كسب بالسيارات، بالعربات التي تجرّها الحمير أو البغال، أو سيراً على الأقدام، يحملون ما يستطيعون من أمتعتهم، ويحملون، فوقها، الأطفال الرضّع، أو يجرّون الصبيان والبنات من أيديهم، ويسندون العجائز، الذين لم يجدوا وسيلة للركوب فوق الأمتعة في العربات، أو في السيارات العتيقة القليلة، وأكثرهم يبكي، كأنما سكاكين الأتراك على وشك الحزّ في رقابهم، كان هذا المنظر المروّع، أكثر فجائعيّة مما توقّعوا، وكان الكبار من أرمن كسب، الذين نجوا من مذابح الأتراك السابقة، في مدن وقرى القوقاز،

ثم في إقليم ڤان، وبحيرة أورميه، والقرية الجميلة «زيتون» خصوصاً، هذه القرية التي اشتهرت بمقاومتها الضارية، ثم بلدات دارون وموش وصاصون، حيث أحرقت البيوت بساكنيها، واغتصبت النساء أمام ذويهنّ، وجُمع الجرحى وألقوا في النار.

من جهة أخرى، راح العم هاروتيان، المعمّر نسبياً، الذي نجا من هذه المذابح، يبكي قائلاً لمن حوله:

ـ أنتم لم تعيشوا مثلي، لم تروا، لم تعرفوا ما أعرف، ولم تقاوموا كما قاومت، لم تروا الدماء وافتضاح الأعراض، لم تسمعوا صراخ النساء، وعويل الأطفال، وأنين الجرحى، وكيف كانوا يلقون أحياء في النار، أو يموتون اختناقاً في الدخان، أو تُشوى أجسامهم داخل البيوت التي أُحرقت وهم داخلها، دون أن يسمح لهم بالخروج منها.. لقد عشت ورأيت، قاومت كغيري، وعندما لم تبق لدينا ذخيرة، هربنا عبر الجبال، ولكن إلى أين!؟

الذين وجدوا، صدفة، حول العم هاروتيان، كان يبكي بعضهم، يبكي الرجال مثل النساء، وقد أغمي على امرأة نَصَف، بعد صراخها:

ـ كفى! كفى! لم أعد أحتمل!

لكن العمّ هاروتيان تابع كلامه، لا للمباهاة بأنه يعرف ما لا يعرفه غيره، وإنما كي يروي، كي ينفّس عن صدره، كي يحرّض على المقاومة إذا ما هوجمت كسب، كي يرقّق القلوب ليهبّ

الجميع إلى مساعدة إخوتهم الأرمن، هؤلاء الذين كانوا يصلون على شكل قوافل، في حال من الإعياء والعجز والمرض، وكان بعضهم، ما إن يصل حدود كسب، حتى ينحني ويقبّل الأرض، أو يرسم الصليب على صدره، أو يصيح:

ـ ساعدونا! كرمى لله، هناك من هم بعدنا، على الطرقات، وهناك جثث، وعُجّز انهاروا من التعب، وهناك نساء حوامل، ومرضى من كل الأعمار، وصغار ليس في وسعهم متابعة المشي، وأيضاً من عجزوا عن حمل أمتعتهم، فتخلّوا عنها لينجوا بأرواحهم.. الماء! الماء! لا نريد طعاماً بل ماء، نبلّ به حلوقنا العطشى التي نتنفس منها لهيباً، ساعدونا يا إخوتنا.. أيّها الطيبّون.... باسم الرب الرحيم، باسم المسيح والعذراء مريم..

وكانت كسب المستنفرة تساعد، تساعد، تبذل ما في وسعها، ما هو في طاقتها وفوق طاقتها، غير أن قوافل النازحين إليها تواصل، والسؤال ذاته يتكرّر:

ـ هل هناك مهجّرون بعد؟

والجواب ذاته يتكرّر:

ـ نعم! نظن! رأينا بعض الآتين وراءنا.. لا نعرف العدد، لكنه كبير، أسرعوا لنجدتهم، يا إلٓهنا! ما هذه الكارثة!؟ ما هذا المصير الفاجع!؟ ما هذا الحظّ الأسود!؟ ولماذا، نحن الأرمن بالذات، تلاحقنا المصائب!؟

والعم هاروتيان يحكي، كأنما ليؤكّد، لنفسه أولاً، وللآخرين ثانياً، أنه لم يخرف، ولم تتخرّب ذاكرته بعد، وأنه يقرأ، كما في الإنجيل، كما في رؤيا يوحنّا، ضارباً الأرض بعصاه، إنتقاماً لا يدري ممن، ولماذا، ولأيّ سبب ينكأ الجروح، هو الذي كان صامتاً، ضاغطاً على جرحه كيلا يتفجّر الدم، وكان الذين حوله، من الرجال الأصغر سناً، ومن الأولاد اليافعين، يستزيدونه، وحتى الصغار، الذين لا يفهمون تماماً ما يقول، استهوتهم الفرجة، فأقبلوا يتدافعون، رغم زجر الكبار لهم، ومطالبتهم بالابتعاد، بعدم التشويش، بالعودة إلى البيوت، بعد أن ليّل الليل، ولا بدّ أن أهلهم، الآن، يبحثون عنهم؛ وكان هذا الزجر، والنصح، يذهبان سدى، ففي ضوء القمر، يحلو السمر، وتحلو الفرجة، والذين كانوا يأتون لأخذ أولادهم، يبقون هم أنفسهم، سائلين مع غيرهم:

ـ وبعد يا عمّ هاروتيان!؟

فيسألهم بدوره:

ـ إلى أين وصلنا؟

ـ إلى المذبحة الكبرى!

ـ هِمْ.. دعوني ألفّ سيكارة، من هذا «التتن» القاراضوراني!

ـ خذ سيكارة من عندنا!

ـ لا! أنا لا أدخّن إلا من علبتي، ومن القاراضوراني فقط!

قال له متشوّق منهم، نافذ الصبر:

ـ أنت قاصّ ماكر يا عمّ هاروتيان!

اكتفى العمّ هاروتيان بحركة من شفتيه الغائرتين في فمه الأدرد، وقال.

ـ لماذا تريدون، بهذا الإلحاح، سماع بقية القصّة، هل أنتم خائفون؟

صاحوا بما يشبه الإجماع:

ـ الأرمن لا يخافون.. أنت تعرف نهاية جمال السفاح!

ـ أعرفها، بارك الله فيكم، جمال الخنزير، لاقى جزاءه، والأتراك..

ـ فعلوا الكثير!

قاطعهم بإشارة من يده:

ـ ليس كلهم، ليس كلهم، مذابح الأرمن رتّبها، ودفع إليها، جماعة الاتحاد والترقّي. كانت مؤامرة كبيرة، أيدي الأجانب ليست بريئة منها! الفرنسيّون والانكليز..

صاح أحدهم مقاطعاً:

ـ الموت للفرنسيين:

صاح آخر:

ـ والإنكليز أيضاً!

قال العم هاروتيان:

- نعم! هذا جيّد، هذا صحيح، الويل لهم، هم الذين، مرّة أخرى، تآمروا علينا، باعونا، باعوا لواء اسكندرونة، عرّضونا للذبح، عرّضوا الأرمن للسكاكين، وأشياء أخرى..

- مثل ماذا؟

- الهجرة! ألا ترون!؟ ليتني أستطيع البكاء وأنا أرى هجرة الأرمن الجديدة، لكن دمعي نشف، الماء في جسمي نشف، من الشيخوخة وهول ما رأيت..

توقّف العم هاروتيان هنيهة، كأنما ليداري ألمه، يستعيد رباطة جأشه، وبعد أن أخذ نفساً طويلاً، عميقاً، من سيكارته القاراضورانية قال:

- في ليلة ٢٤ نيسان ١٩١٥ وما بعدها، اعتقل الجندرمة ١٢٥ شخصاً من رؤساء وأدباء ومفكري الأرمن في استنبول، ثم ارتفع العدد إلى ٦٠٠، وساقوهم إلى أنقره. ومن هناك أُرسل قسم منهم إلى أياتن، وقتلوا هناك، وأُرسل قسم آخر إلى تشانكر، حيث أبيدوا بطريقة وحشيّة، وأرسل الباقون إلى دير الزور.. وهؤلاء سلموا.. إلا أن عمليّة الإجلاء والإبادة ذبحاً، كانت قد بدأت على نطاق واسع في الأناضول والمناطق الشرقيّة.. وفي حزيران، من نفس العام، بدأ الجلاء والذبح الكبير، في المناطق الأناضوليّة، والمناطق الشرقيّة، وشمل الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥- ٧٠ عاماً، هؤلاء الذين طلب

منهم أن يتجمّعوا أمام مقرات الحكومة في مناطقهم، ثم أبيدوا، وأخذوا إلى السجون وبعد ذلك رحلوا في قوافل لم يعودوا منها! أما في مناطق البحر الأسود، فإن الأرمن أجبروا على ركوب السفن، وأخذوهم إلى أعماق البحر وتركوا هناك للغرق!

علت همهمة الغضب، بكى بعض النساء، سأل شابّ يغلي الدم في عروقه:

- كيف تُركوا للغرق؟

- وهل كنت هناك لأعرف يا ابني!؟ سمعت أن الحديد ربط بأرجلهم، ودفعوا إلى البحر دفعاً، فأغرقوا!

- ثم ماذا؟

- كانت سورية والبلاد العربيّة تحت حكم العثمانيين، فرحّل الأتراك قوافل من الأرمن، رجالاً ونساء وأطفالاً، عبر الأناضول، باتجاه حلب، وكانت القوافل، في برّ الأناضول، تتعرّض إلى هجوم العصابات التركيّة عليها، وإلى السلب، والقتل بالرصاص، أو الذبح بكل بساطة، تحت سمع وبصر الجنود الاتراك، الذين أُمروا بعدم التصدّي لأحد من المغيرين! وفي حلب، مركز التجمّع، توقّفت أعمال القتل والنهب، بفضل السوريّين العرب، ومن حلب وُجّهت قوافل الأرمن إلى دير الزور والرقّة ورأس العين، وهكذا سلموا، إلا الذين ماتوا، في مسالك الصحراء من المهجّرين، بسبب الأوبئة والإنهاك، موتاً

طبيعياً.

صاح أحدهم:

ـ يعيش أخوتنا العرب السوريّون!

ردّد الآخرون الهتاف بقوة، كانوا منفعلين إلى أقصى درجة، أستغلّ نوبار، العامل في ورشة الحدادة لدى حنانيان، هذا الانفعال فقال:

ـ الأمر هكذا تماماً يا إخوتي، المذبحة الكبرى التي تعرّض لها الأرمن في هذا اليوم، ٢٤ نيسان ١٩١٥، كانت مذبحة رهيبة، وكان الذين فرّوا من مرسين وترسوس وأضنه ودياركر وغيرها، قبل المذبحة، كثيرين جداً، فاجتازوا الحدود إلى سورية، من عدة نقاط، بينها المالكيّة في الشمال، والقرى الأخرى، نزولاً إلى الجنوب، إلى اسكندرونة، والقرى الساحلية، فهبّ العرب السوريّون، سكان الحدود، إلى استقبالهم، وإخفائهم، وتقديم المساعدات لهم، ثم ترحيلهم، سرّاً، إلى حلب، إلى الشام، إلى لبنان، وبيروت خصوصاً، وإلى كسب. نعم إلى كسب، وقبلها إنطاكية والسويدية، وصولاً إلى اللاذقية وقراها قسطل معاف وما حولها، وكل القرى الجبليّة التي تحصّن فيها الأرمن الناجون، وسكنوا، وأقاموا، وأخذوا يبنون حياتهم، على مهل، كما فعلنا، أو فعل آباؤنا وأجدادنا، هنا في كسب، أليس الأمر، يا عمّ هاروتيان، كما أقول؟ ثم كيف ننسى ما فعله إخوتنا، عرب سورية، لأجلنا؟ لقد كانوا كرماء، وكانوا حماة

لنا، وضحوا من أجلنا، فأنزلونا في بيوتهم.

رد العم هاروتيان:

ـ تماماً يا نوبار! أنا نفسي وصلت إلى اسكندرونة، هارباً من المذبحة عن طريق أضنه والجبال، وبعد اسكندرونة، حيث نجوت أنا وآخرون، توجّهنا إلى الجبال، هناك اعتصمنا، أنشأنا القرى: ناركزلك، صاووق اولوق، فنارجك، وغيرها الكثير، لكن أقربائي كانوا في كسب، سرت ليلاً إلى انطاكية، السويدية، ومنها إلى «ساشْسِزْ ضاغ» (الجبل الأقرع) العالي، العاري من الغابات، وقد تسلّقنا هذا الجبل، ومشينا في دروبه الوعرة، ومنه، حيث استرحنا على قمته، هبطنا إلى سفحه الآخر، إلى منطقة كسب، وفيها كان استقرارنا إلى اليوم! لماذا الأرمن، يا نوبار، يسكنون الجبال العالية، وهناك يبنون بيوتهم، كما أعشاش الطيور؟ إنه الخوف يا نوبار، يا ابني لقد عشنا في خوف متواصل، منذ المذبحة، وها نحن أمام خوف جديد، من مذبحة جديدة، على أيدي الاتراك، أعدائنا! ماذا نفعل؟

ردّ نوبار:

ـ نقاتل!

سأل شاب:

ـ والسلاح يا نوبار؟

ـ موجودا. في كل بيت أرمنيّ، وفي الجبال خصوصاً، قطعة سلاح، مهما كان صاحب هذا البيت فقيراً.

ـ والذخيرة؟

ـ سيتأمّن السلاح، وتتأمّن الذخيرة. لا تخافوا. إنهم يبحثون هذه الأمور، هناك..

ـ أين هناك هذه؟

ـ ليس في «شانرجق» طبعاً!

ضحك بعض الحاضرين، قال رجل في زناره مسدّس:

ـ هذه الأمور لا يتكلّمون عنها علناً، المهمّ أن يكون في يدنا، في زنّارنا، تحت الثياب، شيء ما!

قال العم هاروتيان:

ـ هذا صحيح!

قال نوبار:

ـ وأن يكون في رأسنا عقل!

ـ وهذا صحيح أيضاً.

سأل رجل كهل:

ـ إلى أين تريد أن تصل يا نوبار؟

ـ إلى النقطة المهمّة!

ـ وما هي؟

ـ أن نناضل مع رفاقنا العرب لإجلاء فرنسا عن سوريّة!

ـ هذه سياسة يا نوبار!

ـ وهذه الهجرة، أليست سياسة؟ قولوا أنتم!

ـ هذه مؤامرة!

ـ صحّ النوم! مؤامرة دون سياسة؟ ومن صنَعَ لنا هذه المؤامرة؟ الريح؟ الشجر؟ الحجر؟ إنها فرنسا وبريطانيا وتركيا، وماذا فعلت هذه الدول؟ كانت تلعب؟ كانت تقامر؟ وهل قامرت سوريّة وخسرت لواء اسكندرونة؟ المؤامرة تمّت من وراء ظهرها، فلماذا؟ لأنها السياسة، ولإرضاء تركيا حتى تقف عى الحياد، في الحرب المتوقّعة، وهذه الترضية القذرة هي المؤامرة، والذين تآمروا كانوا يشتغلون بتكسير الحطب!؟

قال شابّ طويل ضامر:

ـ بتكسير رؤوسنا يا نوبار!

قال نوبار وهو ينهض لينصرف:

ـ لذلك علينا، في المقابل، أن نكسر رؤوسهم، أن نشتغل مثلهم بالسياسة، أن نطردهم من سورية! كفى هذه الليلة، لديّ نوبة حراسة حتى الصبح، سنصعد الجبل للمراقبة، وأنتم؟ أليست لديكم مهمّات؟

قالت امرأة تُدعى خاتون:

- بلى يا نوبارا بارك الله فيك، كلّ رجل، كلّ امرأة، وحتى كل صبيّ أو صبيّة، لديهم مهمّات، من نوع آخر، ربما، حسب توجيهات العمّ وارطانيان، المفوّض من قبل أهالي كسب، والذي لم يبخل بشيء: المال، الطعام، اللباس، البيت، لإيواء المهجّرين، وحتى المقهى الذي امتلأ مع حديقته الواسعة.. لقد فعل كل شيء، هذا العمّ الطيب.

قال الرجل، حامل المسدّس في زناره، تحت الثياب:

- هذا ما يسمونه الواجب يا خاتون، لم يبق شيء إلا فعلناه، نحن أهالي كسب، وهذا من حقّ إخوتنا، الأرمن المهجّرين، علينا. فلو كنّا مكانهم، لا سمح الله، لفعلوا نفس ما نفعل، لفتحوا بيوتهم، وقدّموا الطعام، ومدّوا الفُرش، والبُسط، والسجّاد، واعتنوا بالجميع، والأطفال الرضّع خصوصاً، ولم ينسوا أحداً. أطبّاء كسب يعملون ليلاً نهاراً، وكذلك الممرّضات، ولكن بتنظيم دقيق، وهذه أهم صفات الأرمن، أينما كانوا: التنظيم!

قالت خاتون:

- مع ذلك، مع ذلك، هناك بعض المقصّرين، بعض الكسالى، وبعض الجبناء أيضاً، لنعترف بالحقيقة!

وقالت ييرانيك، وهي تستعرض، في الغابة، ما جرى:

ـ خاتون هذه رفيقة رائعة. . علينا ألاّ نخجل من الاعتراف بالحقيقة كلّها، مهما تكن مؤلمة! ومن جهة أخرى، فإن العم وارطانيان لم يكن الوحيد في ما فعل. الآخرون، الأغنياء، وبعضهم، فعلوا مثله. نعم! الكارثة كانت كبيرة، ولكن التضحيات كانت كبيرة أيضاً، والتنظيم ضَمِنَ النجاح، في كلّ الترتيبات المتّخذة. اسحق حنانيان، هذا الحدّاد، رفيق نادر: بارد الأعصاب، حسن التدبير، شجاع، يعرف كيف يخفي أنه حزبيّ نشيط، وأنه قائد منظمة كسب، دون أن يكتشف ذلك أحد!

نظرت في ساعتها، جلست بعد استلقاء، مشت إلى حيث يتكىء جواد بظهره، على جذع صنوبرة هرمة، ضخمة، أرضها مفروشة بالعشب اليابس، والمسلاّت الصنوبرية، وهو يفكر بدوره. . سألته:

ـ ماذا ترى؟ الإشارة بالخروج من الغابة لم تأت، والطعام لا يكفي. . أنا قلقة!

قال جواد:

ـ أعرف! راقبتك وأنت تفكرين، مستلقيةً على العشب، بالمصير الذي ينتظرني. . هل تخافين عليّ إلى هذا الحد؟

ابتسمت ييرانيك وقالت:

ـ لم تحزر يا جواد، يا رفيقي وحبيبي، كنت أفكّر بما جرى، بما عشته، ورأيته، وسمعته من الآخرين. الرفيق حنانيان قال في

اجتماع سرّي مصغّر: «المعمّر هاروتيان ناضل بأكثر مما ناضلنا كلنا، هذا الانسان محرِّض من الدرجة الممتازة. كان يروي، وكأنما لنفسه، ذكرياته عن مذابح الأرمن في العام ١٩١٥، وما قبلها وما بعدها. إنه ساحر، وكان الذين يسمعون كيف جرت تلك المذابح، يتأوّهون، يتألّمون، وبعضهم يبكي، وهناك امرأة أغمي عليها، وقد جاء الكثيرون ممن كانوا يصغون إلى تفصيلات تلك المذابح اليّ، أو إلى غيري، وطالبوا بالسلاح، بالذخيرة، وقدّموا تبرعات نقديّة وعينيّةً وُزّعت على المهجّرين، الذين كانوا يصلون كسب في الرمق الأخير.. آه يا جواد كم بكيت، أنا الرفيقة المجرّبة، والمناضلة المسؤولة، دون أن أدع أحداً من أهلي، أو من رفاقي، أو من الناس العاديين، يراني في لحظات ضعفي.. في تلك الأوقات، وأنا صلة الوصل بينك وبين الرفاق العلنيّين، ذبحت قلبي بيدي، دمّرت عواطفي، صرت أنت رفيقي فقط، قائدي في المنظمة، وقد فهمتني جيّداً، فلم تحاول تقبيلي، أو حتى تطويق خصري، أو إمساك يدي بدفع من شوق.. تحجّرتَ، لعبت دور القائد المنضبط، المتفرّغ لمهمّته المكلّف بها فقط، وقد أحسنت إدارة المعركة، وعندما كنت تخرج ليلاً، متنكراً بألبسة وأشكال مختلفة، كان الخوف يضغط على صدري، فلا أشعر بالراحة، أو الطمأنينة، حتى تعود إلى مخبئك المتنقّل.. هل كان ذلك كله بفضل تجاربك؟

قال جواد:

ـ نعم! تجاربي، يا رفيقتي، والآن يا قائدتي..

قاطعته بيرانيك:

ـ قل يا حبيبتي!

ـ يا حبيبتي بيرانيك، تجاربي نفعتني من غير شكّ، لكن خوفي عليك، أنا الآخر، لم يكن قليلاً، كنت معرّضة، في المدرسة، إلى انكشاف أمرك، وكنت معرّضة، في الليل خصوصاً، إلى خطر كبير، فكيف أدّيت مهمّتك بهذا الاتقان، وهذه الشجاعة؟ تجاربك، أنت أيضاً، نفعتك..

قاطعته بيرانيك:

ـ تجاربي وحبّي..

قال جواد:

ـ هذا جيّد.. أنا أيضاً نفعني حبّي، وعندما اتّخذت اللجنة المنطقيّة في كسب، قراراً بعودتي إلى الحياة السرّيّة، كان ذلك صعباً عليّ، لكن القرار اتّخذ، فذهبت، كالعادة، إلى المدرسة، وفي نهاية الدوام اجتمعت بالمدير، وأبلغته أنني اعتزمت السفر إلى فرنسا، للحصول على الدكتوراه، ولشدّ ما كان مفاجئاً قول المدير:

ـ لا نستطيع الاستغناء عنك، إلى أن نجد مدرّساً لمادّة اللغة الفرنسية بدلاً عنك، وكان هذا البديل جاهزاً، من رفاقنا في حلب، حسب الخطّة المرسومة، وقد رشحته، زكّيته، وكيلا

أثير أيّما شك، طلبت من المدير اختباره، فخضع للاختبار ونجح بعلامة ممتازة، وكان هذا متوقّعاً، لأن «ڤاهي» كان عائداً من فرنسا لتوّه، وهو يجيد العربية والفرنسيّة، وكان رفيقاً مجرّباً، لعب دوراً نشيطاً في منظمة الحزب في ليون؛ والأمر المريح أنه منضبط، وقد تقبّل المهمّة بغير اعتراض، وجاء، كما هو متّفق عليه، إلى كسب. وبذلك قُبلت استقالتي، إلا أن المدير والمدرِّسين، وأنتِ منهم، أو في مقدمتهم، أصرّوا على إقامة حفلة وداع تكريمية، وكنتِ أنت حزينة، وهذه نقطة غير إيجابية. تداركتُ الأمر، ودّعت مسرعاً، معتذراً، متذرّعاً، بأن السيارة بانتظاري، وعليّ أن أصل بيروت بسرعة، مروراً باللاذقية وحلب، كيلا يفوتني موعد الطائرة.. لكنني، في الليلة نفسها، نمت في كسب..

صاحت ييرانيك:

- كيف؟ ألم تسافر ويرك الناس في الكراج؟

- سافرت فعلاً، وتعمّدت أن يراني الناس في الكراج والساحة، لكنني عدت، متنكراً، في الليلة ذاتها، ولا داعي لتفاصيل أكثر!

- هذا صحيح، كيف عدت، وبأيّة طريقة، وبماذا تنكرت، هذه أمور لا تقال، ولا ضرورة لها، إلا أنّ المفاجأة أذهلتني، حين طُلب مني توصيل رسالة، إلى الرفيق انترانيك، المسؤول الجديد عن المنظمة في كسب، ومتى؟ حوالى منتصف الليل،

وقيل لي: الحراسة مضمونة، وكذلك اكتشاف الطريق! وأنهم ينتظرون الجواب الفوريّ! قبلت المهمّة دون تردّد طبعاً، تنكّرت بثياب رجل، ولما طرقت الباب، حسب الإشارة المتّفق عليها، ورأيتك أنت، تمنّيت أن ألقي بنفسي بين ذراعيك، غير أنّك اتّخذت موقفاً غريباً بعض الشيء، موقفاً جامداً، فتناولت الرسالة، وطلبت مني أن أنتظر في مدخل البيت، وبعد نصف ساعة تقريباً، سلّمتني الجواب بالجديّة نفسها، وقلت لي: «احرصي على الرسالة، يجب ألاّ تقع في يد أحد، إلاّ الرفيق الذي أرسلك، مهما تكن الظروف!» قمت بالمهمّة وأنا أشعر بالمسؤولية الكبيرة، سالكة طريقاً آخر، غير الذي جئت منه، حسب التعليمات، ولم أعرف، حتى الآن، ماذا كان في الرسالتين.

ابتسم جواد وقال:

- كانت الرسالة الأولى تحمل خبراً سيئاً: الحرب العالمية الثانية أعلنت في ٢ أيلول ١٩٣٩، خطّة العمل تبدلت، ماذا بشأن الخطّة الجديدة؟

سألت يرانيك:

- وبماذا أجبت أنت؟

- بأنني أحبّك!

ضحكت وهي تضرب بقبضتها على صدر جواد، قائلة:

- نسيتُ أن هذا سؤال لا يسأل، ولكن حتى الآن، ورغم تغيّر الظروف لا يُسأل أيضاً؟

قال جواد:

- الظروف صارت أصعب! فمع دخول الجيش الألماني باريس، أُعلنت حكومة فرنسيّة جديدة، برئاسة بيتان، سُمّيت حكومة فيشي، وفوراً انضمّ إليها الجنرال دانتز، المندوب السامي الفرنسي في بيروت، وقائد جيش الشرق في سورية ولبنان، مع كل المؤسّسات الفرنسية التابعة للمندوبيّة، وفي رأسها الأمن العام الفرنسيّ! وأنت تعرفين ماذا يعني هذا!

- أعرف.. الفرنسيّون الموالون لألمانيا سيحكمون سوريّة ولبنان، وهذا ما صار فعلاً! كان هؤلاء الفرنسيّون القذرون، أسوأ من الألمان النازيين أنفسهم، وعلى هذا الأساس اتّخذت، في الخطّة الجديدة، الاحتياطات المشدّدة: اختفى الرفاق المعروفون في كسب ومنطقتها، وفي المقدّمة الرفيق حنانيان، وتبدّل مدير المدرسة، وبدأ التحقيق مع المدرّسين المشكوك فيهم، ومن بينهم أنا، وتولّى العم وارطانيان رئاسة البلديّة، ولا يزال.. كيف هذا كلّه؟

ردّ جواد:

- هذا كله، مثل هذا كله، أنت المسؤولة عنّي الآن.. تصرّفي، ولكن قبّليني أولاً، فقد لا يرى أحدنا الآخر، بعد خروجي من هذه الغابة!

ـ تظنّ!؟

ـ ربما!

ـ وحبّنا؟

ـ حب الوطن أكبر: سوريّة، أرمينيا، لكننا، الآن، في وطننا الثاني: سورية! وهذا جيّد جداً، سورية أمّنا أيضاً، لكن نضالنا صار شاقّاً جدّاً: ضد الاحتلال الفرنسي، وضد الفاشية والنازية معاً!

تعانقا: جواد وبيرانيك، شدّ ذراعيه على ظهرها، أفلتت منه وهي تقول:

ـ لا أكثر من القُبَل، ولو كنا وحيدين في الغابة!

أضافت:

ـ هذا لأنني رفيقة، ومسؤولة عنك. .

قاطعها جواد مازحاً:

ـ وأرمنية أيضاً!

جارته في مزاحه قائلة:

ـ ومن أنصار انفصال أرمينيا عن الاتّحاد السوفياتي. . لكن هذه مسألة مؤجّلة الآن! وإن كان لا بدّ من تحقيقها مستقبلاً.

ـ هذا حلم ليلة صيف!

ـ ولماذا لا يكون حلم ليلة ربيع!؟ اسمع! سأذهب الآن، تخفّ

أنت جيداً، لا تستعمل مسدّس إلا في حالة الخطر الأكيد على حياتك، فإذا لم أعد ستأتي رفيقة أخرى..

ـ وأرمنية أيضاً!

عبست يرانيك وقالت:

ـ دعنا في الجدّ! الرفيقة التي ستأتي اسمها ماراتيان، طبعاً هذا اسم مستعار، وستتظاهر بجمع الحطب من الغابة، وكلمة السرّ «تزوجت الشمس» ثم لا كلمة عني.. انتبه لنفسك جيداً، أخفِ المسدّس بمهارة، ودعه في متناول يدك، فقد يكون هناك من يتبع هذه الرفيقة، دون أن تحسّ به.. إلى اللقاء!

١٠

لم تكن كسب، بالنسبة للهجرة الأرمنيّة من اللواء، إلاّ محطّة! فالسلطات الفرنسيّة، في اللاذقية وغيرها، دفعت تعويضات للذين خرجوا من لواء اسكندرونة قبل ٣١ تموز ١٩٣٩، والذين قبضوا تعويضات غادروا كسب إلى حلب، إلى بيروت، إلى عنجر، وقلّة منهم إلى دمشق، أو اللاذقية ومن تبقى منهم في كسب، وعددهم محدود، لقي الترحاب والمساعدة، فاستقرّ فيها نهائياً، وبذلك لم تعد هناك مشكلة مهجّرين، أو خوف من هجوم تركيّ، أو وقوع مذبحة أرمنية جديدة. الأمن العام الفرنسيّ راقب الوضع جيّداً، عرف نشطاء الأرمن، وذوي النفوذ بينهم، ومن قدّم مساعدات، واكتشف أن هناك منظمة حزبية جيّدة التنظيم، هي التي تولّت، وحدها تقريباً، ترتيب الأمور، وأن اسحق حنانيان هو العقل المدبّر، المخطّط لاكثر الترتيبات، وأن الأرمن، وهذا معروف عنهم، يجيدون ذلك.

بعد إعلان الحرب العالميّة الثانية، اختفى حنانيان وآخرون، وكانت طبيعة منطقة كسب، حيث الجبال والغابات الكثيفة، مؤهّلة لمثل هذا الاختفاء، ومن الصعب ملاحقة المطلوبين، أو

معرفة من تولّى الأمور الحزبيّة بعدهم. ولم ينفع في شيء، القبض على بعض المشبوهين، أو تعذيبهم، لأن أحداً منهم لم يعترف بما يفيد الأمن العامّ، منكرين أيّة صلة لهم بالحزب. ولم ينفع هذا الأمن، وضع بعض الذين أخلي سبيلهم تحت المراقبة، فالأرمن متّحدون، حَذِرون، ومن شبه المستحيل، أن يجد الفرنسيون متعاونين، مخلصين في تعاونهم، مع أجهزتهم. ولا خير في استقدام، أو استخدام غير الأرمن، في هذه الأجهزة، وخاصّة من الغرباء عن المنطقة.

الطاقم القديم من الفرنسيين، الذين كانوا يتولّون قيادة الدرك، والأمن، والأمن العام للمنطقة كلّها، سرعان ما استبدلوا، بعد وقت قصير من انضمام الجنرال دانتز إلى حكومة فيشي، والعمل مع الألمان بخاصّة، وعناصر دول المحور بعامّة. والفرنسيّون الذين كانوا في سورية، وتحت امرة السلطة الدانتزية، لم يكونوا كلهم مع هذه السلطة، وهؤلاء تخفّوا جيّداً، ورغم أن بعضهم أبعد عن المناصب والمراكز الحسّاسة، إلا أنّ التوجّه العام، بينهم، كان ضدّ المحور، وتالياً ضد الجنرال دانتز. وقد أخذ هروبهم إلى فلسطين، حيث الانكليز، يزداد، لذلك شدّدت الرقابة عليهم، هم أيضاً، ومن هؤلاء الملازم فيليب جوليان، مدير الأمن العامّ في كسب، الذي عُزل من منصبه، وعيّن مكانه الملازم أوّل جيرار ميشيل، المتعاون، قلبا وقالباً، مع الجنرال دانتز، وبه حقد شديد على الحزبيين والاتّحاد السوفياتي معاً. وقد عرف، في ما بعد، أن فيليب جوليان، قبل الاستلام

والتسليم مع خلفه جيرار، قام بحرق بعض التقارير، كيلا يستفيد منها الفيشيون، ومن هذا التقارير كلّ ما يتعلق بقيادة المنظّمة في كسب، وما يتعلّق بصديقه «اندريه فازليان» مدرّس اللغة الفرنسيّة، في المدرسة الأرمنيّة الخاصّة في كسب، وبعض الآخرين ممن أظهروا حميّة، وبذلوا نشاطاً في استقبال المهجّرين من اللواء.

«نقطة ضعفنا، قال جواد وهو يدور في الغابة حذراً، هي اللاذقيّة! لماذا لم يستطع الحزب، أو لم ينتبه، إلى ضرورة وجود منظّمة في هذه المدينة الساحلّية!؟ هذا إهمال! مرفأ اللاذقيّة، بعد فقدان مرفأ اسكندرونة في اللواء، سيتمركز العمل فيه، وقد يزدحم، يوماً بعد يوم، بالصادرات والواردات، لأنه المنفذ البحريّ الوحيد للمدن الداخلية السوريّة الكبيرة: حلب، حمص، حماه، دير الزور، ناهيك بدمشق نفسها، وقد نَقَلَتْ، كما علمت، بعض شركات الملاحة البحريّة، نشاطها إلى اللاذقية، وأنشأت فروعاً لها فيها، إذا كانت مراكزها في بيروت، أو إذا لم تنتقل هذه المراكز نفسها، إلى هذا المرفأ السوريّ المهمّ، في المستقبل القريب. وتبعاً لذلك، ستكبر الحركة في مرفأ اللاذقيّة، وتتضخّم تدريجياً، وستكبر أعداد العمّال الذين يشتغلون فيه، وتتضخّم بدورها، وستكون الحاجة ماسّة إلى إنشاء نقابة لهم، فإذا لم تكن هناك منظّمة حزبيّة، تسعى، تحرّض، تنظّم، قيام نقابة كهذه، فمن يفعل ذلك!؟ إهمال! إهمال فظيع، المسؤولية عنه تتحمّلها القيادة. نعم! القيادة. وعلى فرض أنه لا يوجد تفكير، استعداد، لإنشاء هذه المنظمة من أهالي اللاذقيّة، فإن

إمكانية الاعتماد على رفاقنا العرب الذين هاجروا إليها من اللواء، جديرة بالبحث، بالمناقشة، وبالتنفيذ أيضاً، وعندئذ نسدّ ثغرة قائمة، ويسهّل الاتّصال بين كسب وغيرها، ولا نحتاج، مثلنا الآن، إلى إجراء هذا الاتّصال بالواسطة، بالتبادل، حيث يقوم رفيق من حلب، أو دمشق، أو بيروت، بحمل الرسائل والمنشورات والتعليمات، وتسليمها، في مكان ما متّفق عليه، إلى رفيق موثوق من كسب، يعمل، ظاهرياً، سائق تكسي مثلاً!

قال ذلك بغير صوت، وتساءل: «ولكن ماذا بشأني أنا؟ ييرانيك لن تعود، هذا ما أرجّحه، لديها مهمّات أخرى، وطريقة وداعها وشت بذلك. قالت: «إذا لم نلتق!» وفي هذا كفاية، هي تعرف أننا لن نلتقي كما يبدو، إلا أنها تماسكت، موّهت الأمر ببراعة، مضت دون أن تلتفت، خشيت أن تضعف إذا ما التفتت، وعندما غابت، انتابني شعور بالوحدة غريب، لم يصدف أن شعرت بمثله. مع ذلك لا بأس، هذه هي الحياة: لقاء وفراق! وفي النضال تكون الحياة أقسى: لقاءات كثيرة، فراقات كثيرة، لا مع الرفاق فحسب، بل مع الناس الذين نحبّهم أيضاً، وعليك يا جواد أن تمدّ حبل صبرك طويلاً، أن تألف الوحدة، المطاردة، الاختباء، الانتقال، وكذلك المواجهة عند الضرورة، ويأتي التوقيف، التعذيب، وفي النهاية السجن، حيث الراحة، لأن أحداً لا يستطيع أن يلاحقك، أن يسجنك، وأنت سجين!

«هذه الغابة كانت أمنية وأنا مختبىء! الشارع، أيضاً، كان أمنية: أن تسير دون حذر، دون خوف في أيّ مدينة، وأن

تستعرض، في سيرك، الناس، واجهات المخازن، الدكاكين، المقاهي، المطاعم، الحدائق، والأطفال. أن تتذكّر، أن تنسى، تجنّباً للحنين، وللحنين المَرَضي في الغربة خصوصاً، وأن تحسّ أنك محروم مما هو مباح للآخرين: المرأة! أو تحس، المرأة الملاحقة أو السجينة، أنها محرومة من الرجل كالأخريات، وأن توضع، هي أو أنت، في سجن منفرد، في زنزانة رطبة، مظلمة، نتنة الروائح، وأن تتأمّل الدنيا، بالخيال لا بالنظر، وأن تسافر، جائباً هذه الدنيا، وأنت في موضعك، وأن تكتب على راحة كفّك، أو على أضلاعك، من الداخل، ما ينبغي ألاّ يراه، يقرأه، أحد، ثم، عند التفتيش، عند الاستجواب، أن تمحو ما كتبت، وتتناسى كلّ عواطفك الحنون، هذه التي تؤدّي، إذا لم تنسَها، إلى وهن في العزيمة، تفشي سرّه عيناك، ويجب عليك، في الصمود، أن تمحو هذا المكتوب: على راحتك، على أضلاعك، على بياض عينيك، لأنه لا يجوز، لا يجوز بأيّة حال، أن يقرأ المحقّق الثعلب، هذا الشوق الإنساني، وأن يتشمّم حتى رائحته!

توقّف جواد، ليستمتع بالأزيز، المنبعث من مكان ما، حوله، في الغابة. فجأة صفّق طائر بجناحيه وانطلق، من شجرة فوقه، أجفل جواد وابتسم! الغابة، أيضاً، كنز مرصود، كنز خضرة رصاصيّة، أو فاتحة الخضرة قليلاً، على نضارة بهيّة، وفي الوسع، إذا ما أحسنت التعامل مع هذا الكنز، أن ينفتح لك، أو ينغلق دونك، إذا لم تعرف كلمة السر: إعطاء النفس كلّها للطبيعة، للأم الأولى، المنذورة، كالقدّيسة، للابتهال والتضحية،

وان تصغي، تسمع: هناك، في أعماق الغابة، تراتيل، تبدأ خافتة، ناعمة، ملساء كالحرير، مريحة كالضوء في الفجر، محبّبة كإشراقة الشمس الأولى، وبعد ذلك ترتفع النغمات رويداً رويداً، من جوقة في دير ما أسطوري، تجهل أين هو، بينما، في اليقين النفسيّ، تعرف أين هو: في ذاتك أنت!

قال جواد، في حوار بين هو والآخر من نفسه:

ـ الغابة معبد مهجور، مأهول، يأخذك إليه مأسوراً بنداء الروح.

قال الآخر:

ـ نداء الروح هنا يغتسل بالندى، ويتنشّف بأريج الصنوبر، فيتطهّر من آثامه.

قال هو:

ـ الآثام الظاهرة أم المستترة؟ هناك دائماً، في كلّ نفس، نقطة بيضاء ونقطة سوداء، وكذلك الآثام.

قال الآخر سائلاً:

ـ هل الحبّ إثم؟

قال هو:

ـ الحب ألوان، والآثام ألوان، عن أيّ حبّ تسأل؟

ـ حبّ الأم!

ـ هذا خالد مثلها، وبغير قياس، كالضوء!

ـ وحب القلوب العاشقة؟

ـ تسبيح قبرات في وقت السحر.. لكنه، مع الأسف، يولد، يكبر، يموت، ولا فائدة، بعد، من وضعه في غرف الإنعاش، ولو كانت معقَّمة كالشمس الظّهور.

ـ وهل يبقى الحبّ، بعد الموت، كالسريرة!

ـ السريرة؟ وماذا تقول، إذن، بالحبّ الذي هو فيض؟

ـ سراب يتيم، ينتحر كلما اقتربت منه!

ـ وبحب الزوجات والأبناء للآباء؟

ـ فيه، أحياناً، عداء، ينبغي الحذر منه!

ـ وحبّ المال؟

ـ عبوديّة نفسيّة لا شفاء منها!

ـ وجمع المال؟

ـ يورث الأحزان!

ـ وحبّ الملكية؟

ـ كلما ازدادت ملكية المرء، نقصت إنسانيته.

ـ أضجرتني!

ـ وأنت أتعبتني!

ـ أليس من حبّ باقٍ؟

ـ حبّ الطبيعة الذي أنت فيه الآن!

ـ وحبّ الكفاح؟

ـ أزليّ أبديّ، وفيه وحده الفرح الإنسانيّ.

خشخش الدغل، انزاح جواد ناظراً إلى ما أمامه: كان، وراء الدغل، أفعيان، ذكر وأنثى، ينجدلان، يعتصران، يتعاركان بعنف، يمارسان الحب بشبق اغتلامي! تركهما جواد ومضى، مدركاً الآن، لماذا نُدعى، نحن البشر، أولاد الافاعي. وبعد تطواف قصير، عاد إلى مكانه الأول، حيث عليه أن ينتظر! فكّر، كأنما لينسى الحاضر، بما مضى: الأخبار، بعد سيطرة الجنرال دانتز، كانت سيّئة: اعتقل بعض الرفاق القادة، وبعض كبار الوطنيّين، ووضعوا في سجن «المية ومية» في جنوب لبنان، وعلى منظمة كسب، كالمنظمات الأخرى، أن تفعل شيئاً: كتبَ منشوراً يفضح نازية السلطة ويطالب بإطلاق سراح المعتقلين، طبعه على الجلاتين، وُزّع في كسب ومنطقتها كلّها. ثارت عصبيّة مدير الأمن العامّ في كسب، استدعى المختار اكوبيان، ورئيس البلدية نيشنيان، وبعض وجهاء كسب، وبينهم العمّ وارطانيان، قال لهم، وهو كالثور الهائج:

ـ أريد الفاعلين منكم!

قال المختار:

ـ أنا كغيري، وجدت المنشور، صباحاً، تحت الباب!

وقال قره بت شاهنيان، رئيس حزب الطاشناق:

ـ أنا أيضاً وجدت المنشور تحت الباب، صباحاً!

وقال العم وارطانيان:

ـ مثلي كمثل الآخرين، وجدت المنشور على العتبة.

ـ وأين الفاعلون؟ من هم؟ ما هي أسماؤهم؟

قال العمّ وارطانيان برصانة وصلابة:

ـ لماذا نُسأل نحن بالذات عنهم؟ وهل يصحّ أن تعتقدوا، ولو للحظة، أننا نعرفهم؟

قال مدير الأمن:

ـ كل من وُجد عنده منشور، أو قرأ ما فيه، سيوقف ويحاكم ويسجن.

أجاب العمّ وارطانيان:

ـ إذن اسجن كسب كلها!

صاح الملازم جيرار:

ـ كسب كلها؟ تقول، أيها السيد العجوز، كسب كلها؟ هذا استهزاء، جزاؤه التوقيف الفوريّ!

قال العم وارطانيان:

ـ سمعت جوابي جيّداً، هذا كل ما عندي، ولأنك اعتبرتني

موقوفاً، فإنني لن أتكلم أبداً!

- وتتحدّى أيضاً؟

- لم أقل هذا، دافعت عن كسب، التي تهدّد بسجنها كلّها؟

- إذن كن ضيفنا الليلة.

قال العم وارطانيان بارد الأعصاب:

- الليلة وكلّ ليلة! وسنرى من الذي سينتصر: أنت أم كسب؟

ضرب مدير الأمن على مكتبه بقبضته وصاح:

- أنا من سينتصر! سأذيق كسب السمّ لأنها ضدّ فرنسا!

سأل العم وارطانيان بهدوء:

- وهل أنت، أيها السيد الملازم، مع فرنسا!؟

كان السؤال هو الضربة القاضية. كان اتهاماً صريحاً بأنه مع الألمان، الذين يحتلّون باريس، وفرنسا كلّها، فليست حكومة فيشي إلا ألعوبة بيد المحتلّين الألمان، وأنه هو، مدير الأمن العامّ، والذين عيّنوه في هذا المنصب، أزلام الألمان في سورية! وقد خرج الملازم جيرار عن طوره، فصفع العم وارطانيان صفعة شديدة، وكان الجواب بسيطاً:

- ستدفع ثمن هذه الصفعة!

- وتهدّدني أيضاً، يا كلب؟

قال ذلك ورنّ الجرس، ولما دخل الحارس أمره: خذ هذا

العجوز إلى السجن!! أما أنتم، والتفت إلى الحاضرين فيمكنكم الانصراف، على أن تعودوا غداً لإثبات الوجود.

صعب على البارون قره بيت شاهنيان، أن يتقدّم عليهِ جرأةً، العم وارطانيان، أمام كل الحاضرين، الذين يعرفون ميول كلّ من الرجلين، ويعرفون أنه هو، قره بيت شاهنيان، رئيس حزب الطاشناق في كسب، لذلك وقف وقال:

ـ اسمح لي، حضرة الملازم، أن أعرف السبب في هذا الإجراء!

زوره بغضب وقال:

ـ ألم تعرفه بعد؟

ـ ما عرفته لا يستدعي التوقيف، أرجوك! فكّر في الأمر ودعه يذهب معنا.

نهض البارون أوسبيان وقال:

ـ إنني لا أرجو، بل أحتجّ على هذه المعاملة السيّئة، الموجّهة إلينا جميعاً، نحن الأرمن، سكان كسب، الذين كنا، وسنبقى، موضع احترام أنفسنا، على الأقل!

أمسكه مدير الأمن من ياقة سترته، وهزّه بقوة صارخاً:

ـ وأنت أيضاً؟ من أنت حتى ترفض الرجاء، وتحتجّ أيضاً؟

قال سركسيان:

ـ أنا إنسان بسيط. أرمنيّ من كسب، هل يكفي هذا؟

ـ وإذا كنت أرمنيّا؟ ومن كسب أيضاً؟ ماذا يعني هذا!؟

ـ يعني الذي يعنيه، لن أقدم إيضاحات لكلامي. . إنه مفهوم! أنا متضامن مع العمّ وارطانيان، وأعتبر نفسي موقوفاً!

سأله مدير الأمن وهو يدور حوله:

ـ سمعت بقلعة أرواد؟

ـ وبالباستيل أيضاً!

ـ وأنت غير خائف؟

ـ طبعاً لا!

في هذه اللحظة ناح، في المقعد الخلفي، الثريّ الأرمنيّ، خاشكيان قائلاً:

ـ نحن غير مسؤولين عما يقال، سيّدي الملازم.

قال الملازم جيرار:

ـ هذا جيّد، هذا موقف فيه تعاون، لا تهديد أو تطاول. . يمكنك الانصراف، بارون!

نهض الباقون والغضب على وجوههم، قالوا بصوت واحد:

ـ هذا السافل خاشكيان ليس منا، إننا نتبرّأ منه، متضامنين مع العمّ وارطانيان، فإما أن نسجن معاً، أو يطلق سراحنا جميعاً!

ـ هكذا إذن!

- نعم!

- لا بأس! ستبيتون عندنا الليلة، وسنقبض على غيركم، حتى نعرف من كتب المنشور، ومن طبعه، ومن وزّعه أيضاً.. مفهوم!؟

-...

- لماذا لا تجيبون؟

-...

- تضربون عن الكلام،

- وعن الطعام أيضاً!

- سنرى!

قال الملازم جيرار ذلك، وأمر الحرّاس:

- خذوهم جميعاً إلى السجن، توصّوا بهم جيّداً.

قال رجل أمن فرنسيّ، كان ملاكماً:

- هذا مفهوم، سيّدي الملازم!

جلس الملازم جيرار وراء مكتبه تعِباً، كانت هذه جولته الأولى، وكان هذا تعارفه الأول مع أرمن كسب، ولم يكن مرتاحاً للنتيجة، إلا أنه أصرّ على تأديبهم، وراح يفكّر بطرائق هذا التأديب، ومنها إرسال السجناء، بعد تعذيبهم والاعتراف، إلى جزيرة أرواد أو «الميّة وميّة»، لكن ذلك يحتاج إلى اذن من

المستشار الفرنسيّ في مندوبيّة اللاذقية، وهو ضامن أنه سيحصل عليه، مع ثناء وربما ترفيع، وحين رنّ جرس الهاتف، كان السؤال مباغتاً:

ـ ماذا تفعل؟

ـ ما هو مطلوب سيدي الكولونيل: قبضنا على الرؤوس الكبيرة!

ـ هذا تعبير جيّد: الرؤوس الكبيرة! لكن الرؤوس الكبيرة، يا ملازم جيرار، لا تطبع أو توزّع منشورات، الذين يفعلون ذلك غير هؤلاء. ابحث عنهم جيّداً، لتكن لك عيون. استعمل بعض الأرمن، هؤلاء، إذا جنّدتهم، تحصل على ما تريد.. المنشور وُزّع في اللاذقيّة أيضاً، تعرف ذلك؟ لا؟ إذن إليك خبراً جديداً: أنشئت في اللاذقيّة خليّة حزبيّة، بين أعضائها عرب، هؤلاء لوائيّون، وقد وزّعوا منشوراً ضدنا، منشوراً نارياً، يتهّموننا فيه بالعمالة للألمان، وقيل إن بعض هؤلاء تسرّب من انطاكية إلى اللاذقيّة، هل لديك معلومات عن هؤلاء؟ لا؟ إذن تهانينا! «المية ومية» وجزيرة ارواد للزعماء يا حضرة الملازم، وليس للأفراد العاديين، هل تفهم ما أقول؟ كفى! ومرة أخرى كفى، وإلى الجحيم أنت وأمثالك! غبيّ!

١١

توقّفت يبرانيك عن السير في الغابة، تلّفتت إلى وراء، ودّت لو أن جواد خرج على المألوف في العادات، بين الرفاق والرفيقات. إلامَ تكبت عواطفها؟ وإلامَ يكبت عواطفه؟ ثم ماذا بعد هذا الكبت العاطفي كله؟ العمر يمضي، سفينته تمخر عباب اليمّ، دون أن تلقي المرساة وتقف. ليتها، في الحقيقة أو الخيال، تتوقّف مرّة واحدة، مرّة واحدة تحدث معجزة من هذا النوع، ولماذا لا تحدث معجزة من هذا النوع، في الدهر كلّه!؟ لقد قرأت يبرانيك كثيراً عن المعجزات، وعن الخرافات، وسمعت، في صغرها، الكثير من الحكايات، وقرأت، في كبرها، الكثير من القصص والروايات، لكنها لم تسمع، لم تقرأ أبداً، عن حكاية، عن قصّة، عن رواية، تتحدّث عن توقّف سفينة العمر، في التاريخ كله، وربما في الدهر كله! حتى بحيرة لامارتين، في امنية الأماني، لم تتوقّف هذه السفينة فيها! اعترف لامارتين قائلاً: إنها تمضي، ولا نلقي، نحن، المرساة، ذلك غير جائز، هناك من ينتظر مرور الزمن، فالناس ليسوا كلّهم عشاقاً!

«لكنني، أنا عاشقة، والعشق ليس عيباً، والمرأة عندما تعشق، عندما تحب رجلاً، وتفشل معه، تحسّ، تعتبر، أنها فشلت مع جميع الرجال. إذن أنا فاشلة، فاشلة، فاشلة، أما هو، جواد، فإنه لا يستشعر شعوري. الرجل، كما يقال، عندما يفشل مع امرأة، لا يعتبر أنه فشل مع جميع النساء، وهذا هو الفارق! ترى بماذا يفكر جواد الآن؟ كان يتمنّى أن أكون له، وكنت أتمنّى أن يكون لي، غير أنني امتنعت عليه، ولست بنادمة، إنما، في الأعماق، الإحساس يختلف، فهل أعود إليه؟ وماذا يقول عنّي عندئذ؟ أنا لا أبحث عن الوفاء، ليذهب كلّ هذا إلى الشيطان، الوفاء لا يتجزأ، وكي أكون وفيّة للمبدأ، عليّ أن أكون وفيّة للحبّ، وأحسب أن هذا ما يفعله غيري، ببساطة شديدة، خاصّة أن ممارسة الحبّ غير ممارسة الجنس، وهو يفهم هذا، كل ما فعله أنه وضع ذراعيه حول خصري، ورغب أن يضمّني إليه، أن يقبّلني في فمي مرة أخرى، وربما أن يمصّ شفتي، وكنت أنا أيضاً راغبة، وأحسّ، الآن، هذه الرغبة ناراً تكوي ضلوعي، إلا أن الأوان فات، وعليّ أن أتابع سيري، في هذه المهمّة السريّة التي لا تخلو من لذّة، هي الأخرى، اللّذة التي ليست بديلاً. لا شيء يعوّض عن شيء، لا شيء يكون بديلاً عن شيء، أن نناضل فليس معنى هذا أن نَتَرهْبَنْ. هذا ليس شرطاً، لم يقل أحد أنه شرط، الناس يحبّ بعضهم بعضاً في الحرب، في الجبهة ذاتها، قبل الذهاب إلى النصر أو الموت، ويحبّ بعضهم بعضاً في النضال، علنيّاً كان أم سرّياً، وقد ينتهي هذا الحبّ بالزواج،

خلال العمل السرّيّ نفسه. فلماذا فاتني هذا كله؟ لماذا لم أبحث أمر الزواج مع جواد؟ هل لأنني مناضلة؟ لا! الحقيقة ليست هنا، الحقيقة مضحكة، الحقيقة هي كوني أرمنية! ولكن الأرمن يحبّون، يعشقون، يتزوّجون، يمارسون الحبّ كغيرهم، فِلَم جرّدتهم أنا من إنسانيتهم؟ لِمَ جعلتهم من صنف الملائكة!؟ هل لمجرّد ارضاء غرور الرجل الأرمني؟ ومن هو هذا الرجل، أليس ذكراً في مجتمع الذكور هذا؟ ألا يحب، يعشق، يمارس، وحتى يخون زوجته، أحياناً، كالآخرين، ككل الرجال!؟ المبرّر الوحيد لموقفي هذا، كوني رفيقة، وفي مهمة حزبيّة، طرفها الآخر رفيق أيضاً، ما عدا ذلك فإن كل كلام آخر لغو، فَشَر في فَشَر، لا أكثر ولا أقل.

مضت يرانيك في طريقها بين أشجار الصنوبر، بين الأدغال، هزّت رأسها، تعبيراً عن أسف، ابتسمت من أفكارها التي تليق بفتاة مراهقة، بينما هي خرّيجة جامعة، ومدرِّسة، وقياديّة في الحزب، وعليها أن تصل في الموعد، لتتسلم البريد السرّي، المرسل من القيادة في دمشق، إلى الرفيق اسحاق حنانيان، المختبىء في كوخ حارس الغابة، في الطرف الآخر، البعيد نسبياً عن كسب، بينما الأمن العام الفرنسي، يبحث عنه في كسب ذاتها! «هنا معقل، كسب معقل، محاط بالجبال والأدغال، وفيها اختبأ رفاق قادة، ملاحقون في مناطقهم، وليس هناك ضرورة لبقائهم في هذه المناطق! الرفيق حنانيان كان على حق، حين قال لها، غداة توقيف العمّ ورطانيان والآخرين:

ـ مدير الأمن العامّ الفرنسيّ، الملازم جيرار ميشيل، أهبل! لا يعرف العصفور من ريشه، فشل في القبض على العصفور فقبض على الريش! سَجَنَ وجهاء كسب، فطار صواب المستشار الفرنسيّ في اللاذقيّة، سخر منه في نفس الليلة، قال له: «تهانينا يا ملازم جيرار!» رفيقنا، عامل السنترال، نقل لنا ما دار في المكالمة الهاتفية. خدعناهم، كانوا يظنّون كيوورك، عامل السنترال، لا يعرف الفرنسية، أو الأصح يعرف بعض الكلمات، لتمشية الحال فقط. عندما هاجر من اسكندرونة، كنا نعرفه جيداً، طلبنا منه أن يعمل سائقاً على خطّ كسب ـ اللاذقيّة، قام العمّ وارطانيان بالمساعي اللازمة، مع المختار ورئيس البلدية، لكن المسعى الأهمّ، قام به رفيقنا «أندريه فازليان» مع صديقه الملازم فيليب جوليان، مدير الأمن العام الفرنسيّ السابق. قال له لدينا صديق من أرمن اسكندرونة المهجّرين، اسمه كيوورك، عاطل عن العمل الآن، وكان قبلاً يعمل في مصلحة الهاتف في اسكندرونة، ثم عمل سائقاً هنا، إلى أن استغنى عنه صاحب السيارة، لأن رجله المكسورة، بحادث سير، شفيت، وعاد إلى سياقة سيارته بنفسه، فهل يمكن تدبيره بعمل ما، في الهاتف أو غيره، حتى لا يجوع مع عائلته؟ إنه يعرف الفرنسية قليلاً.. وكنا نحن قد أوعزنا، في هذا الوقت، لرفيقنا الذي يعمل سانتراليست، أن يطلب مساعداً له، وهذا ما تمّ، رغم أن المختار اكوبيان لم يكن مرتاحاً لذلك، لأنه يريد أن يعيّن قريباً له!

قالت يبرانيك:

ـ خطّة محبوكة جيّداً، فيها بعد نظر يا رفيق حنانيان.

قال هذا:

ـ كيوورك يجيد الفرنسية، إنه خرّيج مدرسة «الفرير» بتفوّق في اسكندرونة، وكنّا بحاجة للاطّلاع على المكالمات الهاتفية، بين المندوبيّة في اللاذقيّة، والفرنسيّين هنا.

أضاف حنانيان:

ـ هذا يحدث يا رفيقة يبرانيك، العقل المدبّر كان الرفيق «اندره» إنه حادّ الذكاء وشجاع، ويعرف عدة لغات، بينها الفرنسيّة والعربيّة، وبإتقان تامّ. . أما الملازم فيليب فقد كان طيّباً، كان، في فرنسا، من الحزب الاشتراكي، وأرسل إلى سورية أيام حكم الجبهة الشعبيّة برئاسة ليون بلوم، لكنهم عزلوه مع الأسف، وحلّ مكانه الملازم جيرار ميشيل، هذا النازي العتيق، المعتبر من «الطابور الخامس» الفرنسيّ. . لقد ضايقنا كثيراً، أرسلوه ليكسّر رؤوسنا، فكسّرنا رأسه خلال مدة قصيرة. . تعرفين لماذا أقول لك هذا كلّه؟

ـ لماذا؟

ـ كي تقيمي صلة مع رفيقنا كيوورك هذا، كلمة السر: «الغابة يبست!». . ولكن ماذا عن الرفيق «اندريه» أو الرفيق جواد كما يفضّل هو أن يُدعى!؟

ـ إنه بخير!

ـ هذا يكفي، والآن؟ ماذا لديك؟ أيّ الأخبار الأخرى غير البريد!

قالت بيرانيك:

ـ هناك خبر سيىء، اعتقلوا الرفيق بدروس قره بتيان!

ـ كيف؟ هناك وشاية أم خيانة في التحقيق؟

ـ غير معروف حتى الآن.. الحظّ لعب دوره، كان الرفيق جواد سيختبىء عنده!

ـ تدبير من هذا؟

ـ تدبيري!

ـ هذه خطيئة كبيرة!! الحظّ، ربما، لعب دوره كما تقولين، لكنك كنت رائعة، إذا تركنا هذه الخطيئة جانباً، فقد قدت عملية إنقاذ الرفيق جواد بمهارة.. كيف خطرت لك فكرة المركب؟

ـ مصادفة! رأينا المركب، في العتمة، راسياً قرب الشاطىء، يتلاعب به الموج.. جواد مَنْ اقترح أن نهرب بالمركب، بعد أن حاصرنا رجال الأمن.

ـ كنت قلقاً طول الليل، وفي الصباح جاءني الخبر المفرح.

ـ رأيت الرفيق الذي كان يراقب الشاطىء، ومنذ رآنا اطمأننت أن الخبر سيصلكم بسرعة، وإلاّ لجئت بنفسي.

ـ أبلغنا الرفيقة ماراتيان ليلاً، أن بدروس قره بتيان قُبض عليه، فقد وصلني الخبر فوراً ولم أبلغك أياه.

ـ هل هذا مؤكّد؟ كان يجب أن أعرف، وجواد خصوصاً!

ابتسم حنانيان وسأل:

ـ تخافين على الرفيق جواد إلى هذا الحدّ؟

قالت ييرانيك:

ـ ألم تصفه بالعقل المدبر؟

ـ هناك، في حزبنا، بعض العقول المدبّرة أيضاً!

ـ لكنني لا أعرفها!

ـ مجرّد المعرفة لا تدعو إلى هذا الخوف!

أطرقت ييرانيك وقد احمرّت وجنتاها قليلاً، تفرّس فيها حنانيان بعطف وإشفاق، سألها:

ـ هل تحبينه، رفيقة ييرانيك؟

قالت:

ـ سأبتعد قليلاً، ريثما تكون أنت قد اطلعت على البريد.. هناك من ينتظر ليعرف، ما إذا كان سيحمل جواباً أم لا.

ـ أنتِ في هذا على حقّ، دعيني لوقت قصير، ولكن لا تبتعدي كثيراً.

ضحكت ييرانيك وقالت:

ـ ها أنت تخاف عليّ أيضاً! ما معنى هذا؟

ـ معناه أن لكل منا مهمّته الآن!

ساءها الجواب، كان جافّاً، توقّعت أن يتابع الحديث معها حول جواد، أن يقول لها: «هناك فرق بين خوف وخوف!» وعندئذ كانت ستعترف: «نعم! أحبّ جواد» وهذا، بالنسبة إليها كان كافياً، جديراً بأن يخفّف عنها ما بها، إلا أنه أغلق هذا الموضوع، كأنما ليس له قلب، هو الآخر! لماذا الأرمنيّ، أحياناً، صارم إلى هذا الحدّ؟ حنانيان كهل، أعطى نفسه للقضيّة، وهو معذور لذلك، لكن ماذا بشأن الآخرين؟ قال لها أحدهم يوماً: «رفيقة ييرانيك! في النضال علينا أن نكون جدّيين، أن ننسى أنفسنا ما استطعنا، ألاّ ندع مجالاً للعواطف الصغيرة، هذا، في مثل ظروفنا، تَرَف!». وقد فكّرت، بعد ذلك، في هذه الكلمات فوجدتها صحيحة، لكنها قيلت بنبرة وعظيّة، تعليميّة، تربويّة، كأنما هي طالبة صغيرة، وهو أستاذ كبير، صارم.. الأرمن كلُّهم على هذه الشاكلة: منظّمون، دقيقون، يتكلّمون بجدّية، صارمون في المسائل العمليّة، مسائل العمل، فكيف بمسائل النضال!؟ إنهم قساة، الأرمن المتزمتون هؤلاء، وماراتيان هذه، هل وصلت في الوقت المناسب؟ ماذا سيفعل جواد الآن؟ سيبقى في مكانه، ينتظر التعليمات، وستبقى ماراتيان معه، ومن يدري!؟ أف! إنها سمراء، خشنة، ولها، تحت الأنف، ما يشبه الشاربين.. مع ذلك، مع ذلك، تبقى أنثى، وفي

الغابة، وهي صبيّة، وغير قياديّة، وربما كانت ليّنة بعض الشيء.. وعندئذا؟ آه! كم مضى الوقت سريعاً، عليّ أن أعود إلى الرفيق حنانيان، ربما كانت هناك مهمّة جديدة، وهو ينتظرني، بينما أنا أفكّر بأشياء خسيسة! لا! ليست خسيسة، لماذا، أنا أيضاً، صارمة مع نفسي؟ وربما مع غيري، هل هذا بطبيعتي الأرمنيّة اللعينة!؟ لا! لا! ليس هذا، إنني عكرة المزاج، هذا هو السبب!

قال لها الرفيق حنانيان:

ـ هناك رسالة، إليك بها، أوصليها وعودي، دون أيّ كلمة.

سألت پيرانيك:

ـ هل الأخبار سيّئة؟

ـ إلى حدّ ما! أسرعي..

أسرعت بقدر ما استطاعت، لكنها توقّفت فجأة: سمعت أصوات عيارات ناريّة! أنصتت جيّداً، كي تتأكّد من الجهة التي يأتي منها دويّ الرصاص، سمعت طلقات أخرى، ساد الهدوء بعدها! ارتبكت للحظات، خلعت جوربها، أخفت الرسالة تحته، غيرّت طريقها من باب الاحتياط، قالت: «أن أموت فهذا سيىء، ولكن أن تقع الرسالة في أيدي رجال الأمن أسوأ!». هناك احتمالان: أن يكون في الغابة صيّادون، أو رجال أمن، والاحتمالان ليسا في صالحها، هي الفتاة الصبيّة، الوحيدة في غابة مقفرة، لذلك عليها أن تكون حَذِرة أكثر من المعتاد، وأن تسلك طريق السلامة ولو كانت طويلة نسبياً، وعندما وصلت إلى

حيث ينتظرها المرسال لم تجده! هذا أقلقها، اختبأت في دغل كثيف والمسدّس في يدها، افترضت أن الرفيق حامل البريد السرّيّ، قد سمع مثلها صوت إطلاق النار، فاختبأ، أو أحاط به رجال الأمن فهرب، وعندئذ أطلقوا عليه النار، وفي الحالين هناك خَطَر، إلا أن الرسالة يجب أن تصل، بطريقة ما! قرّرت التغامر، خرجت من الدّغل، مشت باتجاه الطريق العامّ، وبعد أن انكشف لها الدرب، رأت سيّارته، وهو يحاول إصلاحها. سألت:

- ماذا حدث؟

أجابها:

- لا شيء، كان هناك صيّادون ومعهم سيارة، راقبتهم وأنا أتظاهر بإصلاح سيّارتي، وبقيت هكذا حتى مضوا في سيارتهم بسرعة مجنونة. . أعتقد أنهم سكارى. . وأنتِ؟

- إليك بهذه الرسالة!

- هذا كلّ شيء؟

- ولا كلمة أخرى. . بسرعة!

وضع الرجل الرسالة في جيب سرّيّ، داخل سترته، وانطلق هو الآخر بسرعة، في حين عادت بيرانيك إلى الرفيق حنانيان، سالكة الطريق الأقصر، فوجدت حارس الغابة بانتظارها، وهو قلق أيضاً. ولما أخبرته أن الذين أطلقوا النار صيّادون، بان

الارتياح على وجهه، إلاّ أن الرفيق حنانيان تأخر في الظهور، خشية أن يكون هناك من يتبعها.. قال لها:

ـ خفت عليك اليوم، للمرة الثانية!

سألته مازحة:

ـ من أيّ نوع كان خوفك؟

ـ من النوع الرفاقيّ، جداً جداً!

أضاف:

ـ لديّ أخبار طيّبة، الرفيق جواد في أمان.

ـ مع تلك الرفيقة!؟

ـ طبعاً!

اكفهرّ وجه بيرانيك، راقبها حنانيان بودّ وإشفاق، قال لها مازحاً:

ـ وماذا في ذلك؟

ـ لا شيء!

ـ لا! هناك شيء!

أضاف:

ـ المرأة هي المرأة يا رفيقة بيرانيك.. ليس من السهل تغيير الطبيعة البشريّة.. والآن تعالي، سنأكل وراء ذلك الدّغل قليلاً

من الطعام: كونياك وبسطرمة، من النوع الممتاز.

ـ كونياك أرمينيا؟

ـ لا، مع الأسف! كونياك فرنسا، ماركة نابليون.. حصلنا على بعض الزجاجات من ذلك النازي، الملازم جيرار.. الفضل في ذلك يعود إلى رفيقنا غير الانضباطيّ..

ـ دكران!

ـ حزرتِ!

ـ وهل ما زال في الجبل؟

ـ ومعه آخرون.. جيرار كان غبيّاً، كان فاشيّاً مئة بالمئة، وغبيّاً مئة بالمئة أيضاً! وهذا من حظّنا. فقد رفض إطلاق سراح الموقوفين، وفي اليوم التالي خرجت مظاهرة نسائيّة، على رأسها الرفيقة نوباريان، التي هتفت بسقوط الجنرال دانتز..

ـ دفعة واحدة!؟

ـ هذا الذي حصل.. الرفيقة نوباريان لا وسطيّة عندها، ومن أجل ذلك اعتقلها مدير الأمن العامّ، ومعها بعض النساء المتظاهرات، وأبلغنا القيادة بالذي جرى في الليلة نفسها. وفي الصباح التالي خرجت مظاهرات نسائيّة في دمشق، حلب، بيروت، عنجر، وغيرها، ونشرت الصحف الأخبار دون تعليق: اعتقال الوجهاء والنساء في اللاذقية وكسب، فاتصل المستشار الفرنسيّ في اللاذقية بالملازم جيرار هائجاً:

ـ ماذا تفعل أيّها الغبيّ، تعالى إلى اللاذقيّة فوراً!

ذهب الملازم جيرار، قدّم تقريره، شدّد في التقرير على شتم الجنرال دانتز بالاسم. جرت بعض الاتصالات بين اللاذقيّة، دمشق، بيروت. ثار الجنرال دانتز، أمر بإبقاء المقبوض عليهم من الوجهاء والنساء في السجن، واعتقال كل المشبوهين أيضاً، وأمر بترفيع الملازم جيرار إلى رتبة ملازم أوّل، لأنه تصرف على هذا النحو الأخرق، وهكذا أُسقط في يد المستشار في اللاذقيّة، وخرج مدير الأمن العام في كسب منتصراً، واحتفالاً بهذا النصر، جلب معه، في طريق عودته إلى كسب، صندوقاً كاملاً من الكونياك، وآخر من الشامبانيا، وصندوقاً من المعلّبات الفرنسيّة، غير أنه لم يصل سالماً، ولا احتفل بانتصاره، لأن دكران وبعض الشباب المسلّحين، قطعوا عليه الطريق، هو ومن معه، واضطروهم إلى الفرار، تاركين السيارة التي خرق الرصاص عجلاتها، فأفرغ دكران حمولتها، قبل أن تصل النجدة الفرنسيّة من كسب، وكان هذا الكونياك من غنائم تلك المعركة.

قالت بيرانيك:

ـ لكن هذا لا يجوز رفيق حنانيان، نحن حزب ولسنا قطّاع طرق.

قال حنانيان:

ـ طبعاً لا يجوز، وقد شجبنا الحادث، إلا أن دكران هو دكران، ولم يكتف بذلك، بل هاجم البارون خاشيكيان، الذي بكى عند توقيفه، وتبرّأ من الآخرين، بمن فيهم العمّ وارطانيان، كي

يكون خاشيكيان عبرة لسواه.

ـ وهذا لا يجوز أيضاً!

قال حنانيان:

ـ المسألة الثانية فيها نظر، لا بدّ من تأديب الخونة يا رفيقة يبرانيك. . والآن توجّهي إلى كسب خفية، وهناك اتّصلي سراً بالرفيق كيوورك السنتراليست. كوني حذرة، تظاهري أنك كنت مريضة، فإذا سئلت في المدرسة قولي: كنت في اللاذقيّة للمعالجة!

ـ وغير ذلك؟

ـ انتظري التعليمات الجديدة!

ـ ألا تخاف عليّ؟

ـ طبعاً!

ـ وأنا من حقي أن أخاف على جواد؟

ضحك حنانيان وقال:

ـ ماكرة!!

١٢

حلّقت الطائرات الالمانيّة فوق اللاذقيّة وضواحيها، ألقت قصاصات تطايرت في الهواء، تخاطفها الناس، قرأوها، تداولوها، انقسموا حولها. الذين مع المحور كانوا معها: عدوّ عدوّي صديقي!» والذين مع الحلفاء، وهم قلّة، كانوا ضدّها: «المانيا احتلّت أوروبا، والنازية صنّفت العرب في قائمة الشعوب ذات الدم غير النقيّ!» وعندما وصلت بعض هذه القصاصات إلى كسب، ردّت عليها المنظمة الحزبية بمنشور، فنّدت فيه مزاعم الألمان، «أعداء الشعوب هؤلاء!» وتحرّكت لدعم «جمعية مقاومة النازيّة والفاشيّة» برئاسة عمر فاخوري، في لبنان وسورية، ولجمع التبرعات لأهالي السجناء، من المناضلين ضد أعوان فيشي، وضدّ الفرنسيين الموجودين تحت إمرة «طغمة دانتزا!».

كانت الظروف صعبة جداً: الألمان يتقدّمون نحو موسكو، الجيش الأحمر يتراجع، رومل يقترب من العلمين، الطائرات الالمانية تقصف لندن، رشيد عالي الكيلاني يعلن الثورة ضدّ الانكليز في العراق، «لافال» يتولّى السلطة في فرنسا الفيشيّة، تركيا تخرج عن حيادها الشكليّ، بدفع من السفير الألماني في

انقرة «فون باون»، كازابلانكا (الدار البيضاء) تعجّ بعملاء النازية، الطيران الألماني يقصف القاهرة، النحاس باشا يتولّى رئاسة الوزراء في مصر، برغم القصر وفاروق، أنصار هتلر وموسوليني يكشفون عن وجوههم في كل مكان، يظهرون إلى العلن فجأة: «قريباً تسقط موسكو» ويأتي النصر والتحرير مع «ثعلب الصحراء»! بعض الأفراد في كسب، من الذين درسوا في المانيا، يروّجون الشائعات المعادية، بتشجيع من الملازم جيرار ميشيل، مدير الأمن العام مباشرة! «انتظروا المفاجأة!».

تذكّر جواد كلّ هذا، وهو ينتظر مختبئاً في الغابة، يراقب ما حوله بدقّة، بانتباه تامّ، يعجب لتأخّر الرفيقة ماراتيان، التي ستحمل إليه الأخبار والطعام. فقد قاربت الساعة الواحدة بعد الظهر، والمثل الفرنسي القائل: «لا أخبار، أخبار طيبة!» فَقَدَ دلالته وصدقيّته. «هناك حدث ما، قال في نفسه، حدث سيِّىء كما أرجِّح، وهناك مراقبة شديدة، ولهذا تأخرت ماراتيان، فإذا لم تستطع الوصول، عليّ أن أتصرّف، أن أبدّل مكاني بعد ساعة على الأكثر، أن أستعد لقضاء الليل في الغابة، وفي الصباح أعود إلى مكاني هنا، ليس إلى المكان ذاته، فالحذر ضروريّ، لكن إلى دغل قريب، أرى منه دون أن يكون في وسع أحد أن يراني، من الذي أطلق العيارات النارية؟ صيّادون أم درك أم رجال أمن؟ وهل وصلت بيرانيك بغير صعوبات في الطريق، أم أنها اختبأت، بدورها، في مكان ما؟ كل شيء جائز، الاحتمالات كثيرة. ينبغي ترتيب أفكاري، وأوّلها تذكّر ما إذا كنا قد تركنا دليلاً ما في

المركب، أو خلّفنا أيّ أثر يدلّ علينا، سواء على الشاطىء أم عند مدخل الغابة. ظنّي أن بيرانيك لا تفوتها هذه الأمور، هي المدرّبة، المجرّبة، التي أثبتت بكفاءة عالية، تصل إلى درجة قتْل القلب لتغليب العقل. بيرانيك، ولا أدري كيف، تعيش بلا قلب، بلا عاطفة، إنها جدّية وصارمة معاً، وهذا مطلوب في بعض الأوقات، بعضها لا كلّها، التشنّج، هنا، بليّة، إنه مرض! أخشى أن تكون مصابة بالبرود الجنسي، أو أنني مصاب بالالتهاب الجنسيّ، بسبب طول الحرمان. يبقى أن موقفها صحّ من الناحية الرفاقيّة، سواء بالنسبة للتعامل بيننا كحزبيين، أو التعامل مع الآخرين، الذين نلجأ إليهم، ونختبىء في بيوتهم، بين نسائهم، أو تختبىء الرفيقات، في بيوتهن، وبين رجالهن! أعرف أن الإنسان إنسان، رجلاً كان أم امرأة، وقد حدث أن أخطأ بعضنا، وتسبّب لنا في مشاكل، في هذه المدينة أو تلك، في هذه القرية أو في غيرها، وهذا ما يجب أن يفهم، أن ينتقد بشدّة، أن يلقى خارج الحزب، حتى لا تتكرّر مثل هذه الأمور، المرفوضة بكل مقاييس السلوك الرفاقيّ!

ابتسم جواد لهذه «الأفكار المرعبة!» كما أسماها. «نحن في بلاد، نقضي فيها أنصاف أعمارنا في العمل السرّيّ: بعضنا يقبض عليه فيسجن، وبعضنا يلاحق فيختفي، وبعضنا الثالث يحرم حتى من شمّ الهواء!. الأيام طويلة، والليالي باردة، ومن سجن إلى سجن، من مخبأ إلى مخبأ، وفترات الانفراج قصيرة جداً، والانقشاع، لنرى الشمس فقط، تكون عابرة. والمقارنة بيننا، في

العالم الثالث، وبين أوروبا، غير واردة! البطاقة الحزبيّة، هنا، ضريبتها باهظة، ومسألة الهويّة متعبة، الجنسيّة تعني أن تكون في الجنّة أو جهنم، الجنسيّة السورية واللبنانية مريحة، نسبياً، أما الجنسيّات الأخرى، في البلاد العربية الأخرى، فإنها الموت خوفاً أو صبراً، وفي سنوات كثيرة: الموت إعداماً! . وماذا بشأن إنسانية الإنسان؟ ماذا بشأن احترام كرامته؟ وماذا، أخيراً أو أوّلاً، بشأن قلبه؟ أن يتفلسف المرء، أو ينظّر، شيء، وأن يعيش حياةً كهذه، شيء آخر تماماً! . أنا، في هذه الغابة، وسط هذه السكينة المهيبة، أتفلسف، أنظّر: هذا وهذا وهذا، لا يجوز، ماذا تبقّى إذن؟ قشورا! . ناظم حكمت، في تركيا، بلغت أحكام السجن الصادرة بحقه واحداً وخمسين عاماً، قضى منها، دفعة واحدة، خمسة عشر عاماً، وأمثاله، في الشرق، وفي أميركا اللاتينية، وحتى في اميركا الشمالية، حيث «تمثال الحرية!» كثيرون، ونحن نسمع بالمشهورين، من هؤلاء المناضلين، فقط فقط، أما الباقون، وبأعداد كبيرة، فإنهم يذوون، يموتون، بصمت. ونريد، كما أفعل أنا الآن، إخضاعهم لميزان قياس ضغط الدم، من نوع واحد: ستاندرا كما نريد، وهنا المهزلة، أن نطبق هذا القياس الموحّد على عواطفهم جميعاً! أبله أنت يا جواد، وابن كلب أيضاً!!!».

قال ذلك لنفسه ونهض: «ما أمضّ الانتظار، في وضع كهذا!؟ تأتي أم لا تأتي!؟ سيّان! لا! هذه كلمة محذوفة، هذه كلمة محنّطة في القاموس، ينبغي أن يكون ثمّة جواب، مهما يكن أثره

على نفس من ينتظر جواباً مثلي. ولكن، بعد كل شيء، من أنا؟ رفيق قياديّ؟ ونافد الصبر أيضاً؟ عليّ أن أخجل، أن أعترف أن سبب نرفزتي تمنّع يرانيك عليّ، فقدان الأخرى، التي أحب. يا أيّها المناضلون، في أربع جهات الأرض، أحبّوا وأحبّوا وأحبّوا، أنتم بشر أيضاً، أنتم لكم رغباتكم، مثل سائر الناس، وأكثر أيضاً!».

أجّل جواد تغيير موضعه نصف ساعة آخر، ندم على هياجه الداخليّ. هذا غير لائق، غير لائق حتى بالنسبة لرفيق عاديّ، فكيف به وهو رفيق قياديّ، وقائد سابق لمنظّمة بكاملها؟ إنه الكتب، هذا مفهوم، إنه التراكم، التغيّر من كمّ إلى نوع، الانفجار نتيجة الضغط، كلّ هذا مفهوم نظريّاً، غير مبرّر تطبيقياً. ماراتيان تأخرت كثيراً، المثل العربي يقول: «العلّ له عذراً وأنت تلوم!» أيّ عذر لماراتيان هذه؟ إذا لم تصل خلال نصف الساعة هذا، يصبح الانتظار لا جدوى منه، وقد يكون فيه خطر عليه، والوقت، الآن، يحسب بالدقائق، فلينظر في ساعة يده، ويعدّ الثواني، ثم الدقائق، ثم. . . حركة من ورائه: امرأة عجوز تجمع حطباً من الغابة، شكلها غريب: تقوّس في الظهر، عصبة فوق غطاء الرأس، تجاعيد في الوجه، غضون على الجبين، ما هذا؟ ماراتيان لا يمكن أن تكون هذه، لا يمكن أن تأتي من وراء، وهو ينتظرها من أمام. ثم لماذا لا تتقدّم؟ لماذا تواصل جمع الحطب؟ أين كلمة السرّ؟ إنها تستدير، تنظر إلى ما خلفها، تذهب، تجيء، تتلفّت، حركات بائخة لا معنى لها، حتى في

الحيطة الواجبة نفسها، ما شأن هذه العجوز؟ هل هناك من يتبعها؟ أحسّت بذلك وهي تدخل الغابة؟ تكون هذه ماراتيان أم عجوزاً أخرى؟ كل هذا جائز، مبرّر بالتأخّر الكبير، عن الموعد المحدّد. إذن على جواد أن يتلطّى وراء دغل، يراقب الجهات الأربع والمسدّس في يده!

فعل ذلك بهدوء، بحذر، وإذا برجل عجوز، يظهر من بين الاشجار، يتقدّم رويداً رويداً، يجلس إلى جانب المرأة، يتهامسان، يمكثان على هذا الوضع دقائق. ينهض العجوز، يمضي، يختفي في الغابة، تنتصب المرأة العجوز وهي تقول، بصوت مسموع: «الشمس تتزوج!» ثم تبدأ بخلع ملابسها الفوقية، وتقترب من جواد متبسمة، قائلة:

ـ المعذرة! تأخرت كثيراً، اسمي ماراتيان، الحاجّة ماراتيان!

سألها جواد:

ـ من تريدين؟

ردّت بصوتٍ شابّةٍ:

ـ الرفيق الذي ينتظر هنا!

ـ ما اسمه؟

ـ لا أعرف!

ـ والرجل العجوز الذي كان معك، ماذا يفعل هنا، ولماذا جاء؟

ـ ستعرف كل شيء، بعد قليل، إليك بهذه الرسالة!

تناول جواد الرسالة، كانت من سطر واحد: «بدروس قره بتيان أعُتقل.. تغيرت الخطّة!» قرأها أكثر من مرّة، تمعّن بالخط، أخرج من عبّه ورقة صغيرة مطويّة، فتحها وقارن الخطّين، كانت من حنانيان، دون أيّة تفاصيل.. وضع الورقتين في جيب سترته الداخلية، قال:

ـ مرحباً بالرفيقة ماراتيان، أنا الرفيق «انترانيك!».

تصافحا، شدّت على يده بقوة، قالت:

ـ كانت المهمّة صعبة، بدت، لوقت ما، مستحيلة، لكنني لم أتردّد.. ها قد وصلت.. أنت جائع، أليس كذلك؟ ها هو الطعام في الصرّة، سنأكل معاً، عند النبع، وهناك من يحرسنا.

ـ وهل الحراسة ضروريّة؟

ـ جداً.

ـ أنت تهوّلين!

ـ وأنت غير مهذّب!

ـ أنا؟

ـ نعم أنت!

ـ تعرفين مع مَنْ تتكلمين؟

ـ هذا لا يهمّ!

ـ كيف لا يهمّ؟

ـ مَنْ يتّهمني بالتهويل، يكن غير مهذّب!

ـ وقاحة!

ـ قلة لياقة.

ابتسم جواد، ربّت على كتف ماراتيان، قال لها:

ـ برافو.. شجاعة!

أضاف وهو يحمل صرّة الطعام:

ـ هيّا إلى النبع لنأكل، وبعد ذلك تقصّين علي كل ما جرى بالتفصيل.

ـ علينا، إذن، أن نأكل بسرعة.. ثم تذهب معي، بسرعة!

قال جواد وهو يجلس أرضاً، قبالة ماراتيان:

ـ ليس في الرسالة أيّ إشارة إلى ما تقولين.

قالت ماراتيان:

ـ أنا هي الإشارة، وكذلك كلمة السرّ: «الشمس تتزوج!» هل يكفي هذا؟

نظر إليها جواد في عينيها، نظرة سبر، فلم يرفّ لها جفن، ولم تطرق برأسها، بدلاً من ذلك تناولت قطعة لحم قديد وقالت:

ـ هذه لك، من رفاق يحبّونك جداً، وقد كلّفوني بإيصالك بالسلامة، وهناك نتكلّم.

ـ لا بأس! لنأكل الآن، وبسرعة، كما هي التعليمات الشفهيّة،

التي أفضّل لو كانت مكتوبة، كما هي الأصول!

قالت ماراتيان:

ـ الأصول تكون في الظروف الطبيعية، وتكون، أيضاً، بين المحبيّن! نحن لسنا في هذه الظروف الآن!

فكّر جواد وهو يأكل:

ـ «هل هذا اعتداد عنجهيّ أيضاً؟».

أضاف:

ـ «إليك بيرانيك أخرى!».

تابع الأكل صامتاً، وبعد أن مسح يديه بقطعة من ورق الجريدة قال:

ـ شكراً! هذا يكفي بالنسبة لي.. كلي أنت.

قالت ماراتيان:

ـ لم تأكل، رفيق «انترانيك»، كما يجب.. هل هذا بسبب السرعة؟

ردّ جواد بنبرة أمر:

ـ علينا أن نتحرَّك، وفوراً.. إلى أين؟

ـ ستعرف هذا في حينه.

قال ساخراً:

ـ هل هذا من التعليمات الشفهيّة، أيضاً!؟

ردّت بجدّية:

ـ هذا من عندي أنا.. أنت أمانة، وأنا من يسلّم الأمانة عندما نصل!

«يا للشيطان! كيف أفهم هذه الفتاة مَنْ اكون!؟ وكيف تبيح لنفسها أن تتكلم معي بهذه اللهجة!!؟ ماذا حدث!؟ هل تولّت قيادة المنظمة، نيابة عنا كلنا!!؟ أقبل أم أرفض؟ أطيع أم أتمرّد؟ أليس هناك خطأ، خطأ ما، في التكليف، أم في معرفة كلمة السرّ؟ لكن الرسالة بخطّ الرفيق حنانيان! وهذه الماراتيان قدّمت، بشكلها، بحركاتها، بجمع الحطب، كل الأمارات المطلوبة من الفتاة التي كنت أنتظرها، لا بدّ أن شيئاً ما قد حدث فعلاً، وإلا عَلام هذه الحراسة «الضروريّة جدًّا!» كما قالت؟ لا بدّ من الصبر، ومن الانصياع للتعليمات، شريطة أن أجعلها تمشي أمامي، وأن أراقب، وأعرف اتجاه السير.. وبعد ذلك ليكن ما يكون!».

قال جواد:

ـ أنا مستعدّ، تقدّميني.

مشت ماراتيان أمامه، بخطى ثابتة، كمن يعرف الطريق جيّداً، في هذه الغابة الكثيفة، وكان اتجاه السير إلى الجنوب الغربيّ من كسب، نزولاً نحو البحر، فقال في ذاته: «ماذا؟ هل هناك مركب آخر، ومغامرة أخرى؟» نظر في ساعته: إنها الثالثة بعد الظهر، تقريباً، وهناك من يتقدم «هذا الموكب» الغريب، ومن يمشي وراءه أيضاً! إحتياطات فوق العادة، كأنما جواد هارب من حبل المشنقة!

توقّفت ماراتيان: «هناك إشارة من أمام!»، هذا ما قدّره جواد. بعد ربع ساعة عاودت السير. مضت نصف ساعة، عاد التوقّف، بإشارة من ماراتيان هذه المرّة! هذا طريق البسيط: استطلاع! لا احدا سارت مسرعة وجواد يسرع وراءها، دخلت الغابة المقابلة، دخلها جواد أيضاً، نظرت إلى وراء وقالت:

ـ نحن في أمان، الآن! دعهم يمشّطوا الغابة التيّ كنّا فيها!

سأل:

ـ من هم هؤلاء الذين يُمشّطون الغابة؟

ـ حملة تفتيش! هناك وشاية!

ـ عُرف الواشي؟

ـ تقريباً!

ـ من كسب!؟

ـ نعم!

ـ أكاد لا أصدّق!

ـ صدّق!

قالت ذلك ودعَتْه إلى الصمت، بإشارة من سبابتها على فمها، فكّر جواد: «هل يمكن؟ هل المنظّمة في كسب مخترقة أيضاً؟ هذا مستحيل! لا! لا شيء، في العمل السياسيّ، أو العمل الحزبيّ، بمستحيل! هذا درس لنا جميعاً، درس لا بدّ من استخلاص العبرة منه، فقد كان الاطمئنان زائداً على الحدّ، ولكن الحق على

مَنْ؟ وهل هناك «دوبلة»؟ عميل لنا وعلينا في وقت واحدا؟ هذه نتيجة الثقة المفرطة! كنا نثق إلى حدّ العمى السياسيّ، والسياسة تحتاج إلى دهاء لا إلى عمى! خاننا ابن الكلب، إلا أنه سيلقى جزاءه، وبأسرع ما يمكن، وهذه الحملة التمشيطيّة في الغابات، تعني شيئاً واحداً: «الجبل أكثر أماناً!» كما قال الرفيق حنانيان مراراً، وهذا درس آخر.. لا بد من شنّ حملة مضادّة، بعد دراسة الوضع جيداً!».

كان هناك بيت صغير، في أجمة داخل الغابة، نقرت عليه ماراتيان بالإشارة المتّفق عليها، فَفُتح باب دخلت منه، دعته إلى الدخول، وما إن صارا في البيت، حتى انهدّت من التعب والخوف. «نعم! الخوف، قالت، كنت أحمل أمانة وخفت أن تقع في أيديهم!» فُتح باب جانبي، دخل رجل متوسّط الطول، متين البنية، له شاربان كبيران جداً، بخلاف عينيه الصغيرتين، المغروزتين في وجهه، تحت الجبين، يحمل صينية، عليها فنجانان من القهوة، مع إبريق وكأس، وماء بارد، عذب، كمياه الينابيع الكثيرة في هذه الغابات الجبلية. الرجل هزّ رأسه بتحيّة إيمائية، كأنه يقوم بدور خادم على المسرح. أخرج من جيبه علبة تبغ، وضعها في الصينية، إلى جانب القهوة، انسحب وأغلق الباب وراءه.

قالت ماراتيان:

ـ اعتقلوا يرانيك!

هتف جواد بعفوية وقلق:

ـ بيرانيك!؟

ـ وفتّشوا بيتها أيضاً! وجدوا مناشير، رسائل، لكن المهم أنهم عثروا، في أحد الكتب، على صورتك!

قال جواد:

ـ هذا طبيعي، كنت زميلها في المدرسة.

ـ وكنت حبيبها أيضاً! هذا ما كتبته على قفا الصورة.

ـ وهذا طبيعيّ أيضاً.

ـ وإذا قلت لك إنهم عثروا على دفتر يوميّاتها؟

ـ المهمّ ماذا كتبت في هذه اليوميّات!

ـ هذا سيُعرف في التحقيق!

ـ ليحقّقوا ما شاؤوا! بيرانيك رفيقة مجرَّبة وموثوقة.

ـ الرفاق، في القيادة، لا يشاطرونك هذا الرأي!

أضافت ماراتيان:

ـ بدليل أنهم عرفوا، في الأمن العام، أنك في الغابة.. بيرانيك كانت مهملة!

تجهّم جواد وقال بنبرة زجر:

ـ أرجوك! الأخبار فقط، من غير تعليق!

ردّت بانزعاج:

ـ هذا ليس تعليقي..

١٣

أفاد الرفيق كسبار، الذي كان يراقب مدخل بناء الأمن العامّ الفرنسيّ، أن الجنود الفرنسيّين عادوا، دون أن يكون معهم أيّ رفيق أو رفيقة، وأنهم كانوا منهكين يجرجرون أقدامهم بصعوبة. خبر موجز، إلا أن الرفيق بوغوص، في مخبأ القيادة، تلّقاه برضى: الرسالة وصلت، الرفيق جواد نجا، الرفيقة ماراتيان أدّت مهمتها ببراعة. كانت التعليمات، للرفيقين اللذين قاما بحمايتها، واضحة: التغطية عند الضرورة القصوى فقط.. إلهاء الجنود الفرنسيين ريثما تتهرّب ماراتيان منهم، وتدخل الغابة بسلام!». عند منتصف الليل جاء خبر آخر: «الرفيقان عادا، كل شيء جرى دون حادث، الرفيق «انترانيك» في مخبئه الجديد، ومعه ماراتيان». «جيد، قال الرفيق بوغوص، التنظيم الدقيق أفضل ضمانة للنجاح، كسب ومنطقتها مستهدفتان، والسبب واضح: إنهما معصى!» فكر أيضاً: «كل خطأ له ثمن، الآن ندفع ثمن خطيئة دكران، هذا الشاب الشجاع، غير المنظم، لأنه فوضويّ، ولكننا نحتاج إلى بعض مساعداته، من حين لآخر. تأديبه لبارون خاشكيان كان له أثران: جيد وسيّىء، جيّد لأنه ردع الآخرين،

وسيّىء لأنه دفع هذا النذل خاشكيان إلى الانتقام، عن طريق «البازاونك» اوادیس. كان هذا، في وقت من الأوقات، رفيقاً مخلصاً، فماذا حدث؟ هناك ضغط وإغراء: خاشكيان ضغط على اوادیس، وبعد الضغط كان الإغراء، وكان علينا أن ننتبه لذلك، ألاّ نضع كفّنا في فم كلب مسعور، وأن نراقب ذنبه: اوادیس! إلا أنّنا أغفلنا كل هذا، لثقتنا الكبيرة بأنفسنا، كأرمن فقط! من قال إن الأرمني معصوم عن الزلل! هرانت بك كان أرمنياً، لكنه كان قائداً عاماً للدرك، وموثوقاً جدّاً من الفرنسيين، وقد قدّم لهم خدمات كثيرة، ولم يرحم حتى رفاقنا الأرمن في كل أنحاء سوريّة. هذا ما أعرفه أنا، وما قرأته في الصحف الحزبيّة السرّية، ثم نسيته. . إذن أنا مسؤول كغيري، ومسؤول أكثر من غيري، لأنني على اطّلاع، فالرفاق الذين كانوا يلجأون إلى المزرعة، ومنهم بدروس، كانوا يفعلون ذلك بعلمي، وما كنت، لغبائي، أحسب أن أوادیس يخون، وأنه بعد كل شيء يعمل مزارعاً عند عدوّنا: خاشكيان، الذي ضربه دكران وشهّر به، وأن هذا، خاشكيان، سينفث سمّه في أوادیس على مهل، وبالاتفاق مع مدير الأمن النازيّ جيرار ميشيل، الذي روّع الناس، بعد أن فعلها معه دكران أيضاً، فقطع الطريق عليه، في تلك المعركة التي استغلّها جيرار، وكسب بها ثقة الجنرال دانتز، فأطلق يده تماماً، دون أن يعير تحذيرات المستشار الفرنسي في اللاذقية أيّ اهتمام. صار جيرار هو المندوب، وهو المندوبيّة، لماذا؟ لأنه خان فرنسيّته، خان شعبه الذي يئنّ تحت الاحتلال النازيّ، صار فرنسياً نازيّاً، من الطابور الخامس الذي مهّد، وسهّل، احتلال

فرنسا من قبل ألمانيا، أصبح خائناً، وما هو مصير الخائن؟ اسود! الموت أفضل منه، وعندما أعلن ديغول، من لندن، قيام فرنسا الحرّة، ارتعد جيرار، وعندما دخلت فرنسا الحرّة، سورية ولبنان، بمساعدة الحلفاء، دخل عليه دكران المكتب عنوة وقال له:

- والآن يا جيرار؟ أيّها الخائن لوطنه، هل أقتلك؟ لا! أنت حشرة، ومثلي لا يقتل حشرات!

كان جيرار يرتعد، حاول، خلسة، مدّ يده إلى مسدّسه، فقال له دكران:

- هذه حيلة يعرفها حتى صغار المناضلين، هنا في كسب، وفي سورية كلها. الجنرال دانتز هرب بطائرة كانت تحت تصرّفه، ولكن ماذا فعل به الطيّارون الفرنسيون، بعد أن أقلعت الطائرة من مطار بيروت؟ أنا لا أعرف، وكذلك أنت، كلّ ما أعرفه أنك ستقع في أيدي قوّات فرنسا الحرّة، وستنال جزاءك، وهذا يكفي. أنت معتقل حتّى يأتي من يتسلّمك، وإذا عشت تذكّر دكران المقامر برأسه، تذكّرني أيها الوغد، الذي روحه في يدي!

«كانت خطّة مدبّرة: أن يقتل دكران جيرار، وبذلك يتخلّص الفرنسيّون من الاثنين، وكان الكابتن برنار، قائد المفرزة الفرنسيّة في كسب، هو من دبّر هذه الخطّة، بعد أن أعلن الفرنسيّون في سورية، انضمامهم إلى قوات فرنسا الحرة، وحاول عملاء

النازيين، أمثال الملازم جيرار، الهرب بالجو أو البحر، أو عبر الحدود التركية، فلم يفلحوا في حركتهم، لأن الضباط الفرنسيين، الذين كانوا موالين لديغول سراً، والذين نُكّل ببعضهم قبل دخول قوّاته إلى سورية ولبنان، سارعوا إلى اعتقال هؤلاء المتعاونين مع الألمان، ومنهم الملازم جيرار وأشباهه، وقيل إنهم حوكموا، فسجن بعضهم، وسرّح من الجيش الفرنسيّ بعضهم الآخر، والذين ثبت أنهم كانوا عملاء مباشرين لألمانيا، أعدموا، ولم تعرف الوقائع كاملة، لأنها جرت في جوّ من السرّيّة الكاملة، بأمر من الجنرال كاترو، قائد القوات الفرنسية الحرّة.

«هذا ما جرى، قال الرفيق بوغوص وهو يتذكّر، ففي عشيّة إعلان الجنرال ديغول، قيام حكومة فرنسا الحرة في المنفى، كان هذا الإعلان موضع ترحيب وارتياح، وقد أصدرنا منشوراً، ندّدنا فيه بالنازيّة والفاشيّة، وعملائهما في سورية ولبنان، ورحّبنا بإعلان فرنسا الحرّة. وعلى الأثر جرت حملة اعتقالات واسعة، وتنمّر الملازم جيرار، فعذّب المعتقلين، ورحّلهم إلى سجون أخرى، في بعض أنحاء البلاد، حيث أخضعوا للاشغال الشاقّة، في أوضاع صحّيّة سيّئة جدّاً، مات من جرّائها اثنان منهم. إلاّ أن الأنباء الطيّبة توالت: القائد الانكليزي مونتغمري، الذي كان يلاحق قوات رومل، أوقف تقدّم رومل في العلمين، ستالينغراد صمدت، كذلك موسكو ولينينغراد، الجيش الألماني فقد المبادرة، رومل استدعي إلى برلين ولم يعد. انفسح المجال أمام القوّات الانكليزية للتقدّم، ولمطاردة فلول قوّات رومل، ومع تقدّم

الإنكليز تقدّمت قوات فرنسا الحرّة، وجرت معركة، صيف عام ١٩٤١، بين قوات كاترو المهاجمة، وقوات دانتز المدافعة، لم تدم سوى أسبوع، أو أقل. وعند دخول كاترو، أعلنَ من مقر المندوبيّة الفرنسيّة في بيروت، قرار فرنسا الحرة باعطاء لبنان وسورية استقلالهما، والجلاء بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، والسماح للبلدين بوضع دستورين، وتأليف حكومتين وطنيّتين في بيروت ودمشق، وإطلاق السجناء السياسيين في «المية ومية» وجزيرة ارواد، وإصدار الصحف الموقوفة بقرار عرفيّ، والدعوة إلى التعاون، للقضاء على المحور، وفتح صفحة جديدة في العلاقات، على قدم المساواة... إلخ.

«على أرض الواقع، كان هناك مرحّبون، ومتعاونون، ومتربّصون! حزبنا دعا إلى التعاون، واستأنف إصدار جريدته «صوت الشعب» وصحيفته التوأم باللغة الأرمنيّة في بيروت، وناضل، شعبياً، ضدّ النازية والفاشية، وعقد مؤتمره العامّ الأول، في العاصمة اللبنانية، في ٣٠ كانون الأول ١٩٤٢، وواحد واثنين كانون الثاني عام ١٩٤٣، ورفع شعاره «وطن حرّ وشعب سعيد»، إلا أن الفرنسيين، والانكليز الذين دخلوا معهم سورية ولبنان، بقيادة الجنرال سبيرس، باشروا فوراً لعبتهم: التضييق والملاحقة بالنسبة لأعضاء حزبنا في الأطراف، وفي المحافظات النائية خصوصاً، وظلت ملاحقة الرفيق جواد قائمة، وأعطي الآخرون حريات أوسع. وبدأ الانكليز، فور دخولهم سورية ولبنان، بلملمة ايتام النازية، وتجنيد بعض العناصر،

ومحاولة إيجاد قاعدة شعبيّة لهم، كي يحلّوا محلّ الفرنسيين، بعد نهاية الحرب، إلا أن الطرفين: الفرنسيّ والانكليزيّ، عملا معاً ضدّ حزبنا، وضدّ اليسار، لأنهما بيّتا الغدر، ولحْس التعهّد بإعطاء سورية ولبنان استقلالهما، والجلاء عنهما. وكان حزبنا، مع الانتصارات السوفياتية على جبهات القتال، هو الأقوى، وهو الأكثر شعبيّة وتنظيماً، وهو العقبة الكبرى أمام مطامع الفرنسيين والانكليز! وبضغط منهما، واستعداد من بعض رجال الكتلة الوطنية في سورية، وعلى رأسهم جميل مردم بك وأمثاله، أخذت السلطة الوطنية في سوريّة، بملاحقة وسجن رفاقنا، في البلدات والأطراف، بعيداً عن دمشق، وفي منطقة كسب من هذه الأطراف.

«كنا نعرف، عن طريق القيادة، ومما يجري معنا، أن الأمور عادت إلى التعقّد، وأن هناك معركة، في الخفاء، تدور بيننا وبين الثلاثي: فرنسا، بريطانيا، وبعض أعضاء حكومة الكتلة الوطنية، فقررنا ظهور بعض القياديين في كسب إلى العلن، ورحنا، برغم الأمن العامّ الثلاثيّ، نمارس نشاطاً علنياً، فنعقد الاجتماعات العامّة في المناسبات، ونوزّع صحفنا، منشوراتنا، قرارات اللجنة المركزية. وعلى الأثر تجري ملاحقات، اعتقالات، محاكمات، وكانت الأحكام بسيطة، والتوقيف الاحتياطي لمدة أيّام، مع بعض الاستدعاءات إلى دوائر الأمن للتحقيق، بين فترة وأخرى، ولم يسمح لنا بفتح مكتب للحزب، كما فُتح مكتب صغير في اللاذقية، بحكم الواقع ودون إذن السلطات، وقد جرّبنا أن نفتح

مكتباً مماثلاً فأغلق، وكانت الذريعة أن كسب على الحدود التركية. وكان وضع الحزب، في كل سورية، نصف علنيّ نصف سرّيّ! كانوا يلعبون معنا لعبة القطّ والفأر، ولم نكن فئراناً، ولم يكونوا قططاً، وكان التحدّي قائماً، ومستمراً. ورغم الكتابات في الصحف، والاحتجاجات، وإرسال الوفود، ظلّ الحال بين شدّ وجذب، يَعِدون، ينفذون وعودهم لأيّام، ثم يعاودون سيرتهم في التضييق والملاحقة والمصادرة، أو السجن لفترات قصيرة، دون محاكمة، بحجّة التحقيق في بعض التقارير التي تصل دوائر الأمن، وهي مفبركة، كاذبة، وبلغ الحمق بهم، وكذلك الصفاقة، أنهم اتهموا الرفيق جواد بالتعاون مع جماعات معادية، وأين؟ في سورية!

«الرفيق حنانيان قال لنا، مرات عديدة: «الفرنسيّون، عندنا، أغبياء، يعملون في العلن، بينما يعمل الانكليز في السر. يعملون بسذاجة، ومباشرة، بينما يعمل الانكليز بدهاء، وغير مباشرة. الأمن العامّ الفرنسيّ يحرق أصابعه، وهو يلتقط الكستناء من النار، ليقدّمها إلى رجال الأمن الانكليز، الذين لا أحد يعرفهم. الجنرال سبيرس صار الآن «صديق» بعض رجال الكتلة الوطنية، لأنه أوهمهم أن كَسْب رضاه، يضمن لهم النيابة، والوزارة، ورئاسة الوزارة أيضاً، وأن بيده أن يسقط حكومة، ويؤلّف حكومة. ورفاقنا، في دمشق، مطّلعون على الاتّصالات التي تتمّ، في الخفاء وفي العلن، بين بعض زعماء الكتلة، أو المحسوبين عليها، وبين سبيرس هذا، والغاية حفر الخنادق تحت أرجل

الفرنسيين، وتمويهها بقشّ التحالف، بين بريطانيا وفرنسا الحرّة، بينما الحقيقة غير ذلك، الانكليز يُنجّرون الخوازيق، والفرنسيّون يجلسون عليها، والطرفان يحسبان أنهما باقيان في سوريّة، وأن الحرب العالميّة الثانية، بكل أهوالها، لن تغير شيئاً في الأوضاع القائمة، وأن معاهدة سايكس ـ بيكو جديدة يمكن أن تمرّ، دون مقاومة تذكر، والمهمّ أن هذين الطرفين بينهما تحالف حقيقيّ واحد: مكافحة حزبنا، مكافحة اليسار، وكذلك مكافحة الوطنيّين السوريّين الشرفاء، وقريباً تتجدّد النغمة العتيقة: عملاء موسكو! التي تتردّد الآن بخفوت، ويجري تسريبها، كالمخدّرات، إلى الأوساط الشعبيّة. والنشطاء في هذا المجال، هم أيتام النازية والفاشية المسعورون، الذين بدّلوا «هوياتهم» وانتماءاتهم، وثيابهم أيضاً. وغداً نسمع بحزب جديد، يضمّهم مع آخرين وآخرين، والقاسم المشترك بين كل هؤلاء العداء للاتحاد السوفياتي، وتالياً، أو أصلاً، لنا، وها هم يمهّدون لذلك بملاحقتنا، تحت ذرائع كاذبة، وقحة في كذبها، وفجورها، ومهزلتها. لكنهم لن ينجحوا، فنحن، مقابل ذلك، نتمسّك بالجلاء، الفرنسيّ والانكليزيّ معاً، وبطلب الاستقلال الكامل، الناجز، لسورية ولبنان، والنضال، من أجل هذا الاستقلال ومن أجل الجلاء التامّ، دون هوادة».

ولما سألته، في اجتماع قيادة المنظّمة:

ـ هل هذه خطّة عمل؟

أجاب:

ـ هذا هو الخطّ الأساسي والثابت، في سياستنا الداخليّة.

قال الرفيق جواد:

ـ هذه التهم التي تلفّق ضدنا ليست صناعة فرنسيّة.. إنها صناعة انكليزيّة مئة بالمئة، وردُّنا عليها هو النضال العنيد لأجل الاستقلال، وصداقة الاتحاد السوفياتي الثابتة.

أضاف:

ـ عندما يتمّ جلاء الفرنسيين والانكليز معاً، وهذا ما سوف يحدث تماماً، تسقط جميع هذه الافتراءات، ويصبح حزبنا علنيّاً، أما قبل ذلك فلا، وهذا ما ينبغي أن يكون واضحاً.. خارطة الشرق الأوسط ستتغيّر، وهذا احتمال كبير ووارد جداً.. الامبراطورية البريطانية أصبحت هرمة، لا بدّ من تفكُّكها، وهذا ينطبق على فرنسا أيضاً. أميركا هي القوّة الجديدة، الفتيّة، وستلعب دوراً بارزاً في المنطقة، بقوّتها الاقتصادية والعسكريّة، وستصبح العدوّ الأوّل لشعوب المنطقة، ولحزبنا خصوصاً، في كل من سورية ولبنان، لكن ذلك في المستقبل البعيد نسبياً. والتهمة الموجّهة إليّ، التي فبركها الانكليز وتلقّفها الفرنسيون، لن تبقى ذاتها، التهمة الجديدة ستكون الولاء للاتحاد السوفياتي وخيانة الوطن، أليس هذا مضحكاً؟ بلفور أعطى وعده للصهيونية، وستعمل بريطانيا على تسليم فلسطين لليهود، لإقامة «وطن قومي» مزعوم بقوة الارهاب، وبعد ذلك يأتي دور أميركا في احتضان الصهيونية وحمايتها. هكذا يخلقون مشكلة

فلسطين، لإلهاء العرب عن قضية لواء اسكندرونة. . هذا ليس تهويلاً! إنني أتابع ما تكتبه الصحف الأجنبية.

قال أحد الرفاق:

ـ مهما يكن، مهما يكن! هذا الكلام لا يخلو من التهويل، بل من التهويل الكبير، وهو قراءة سوداء للمستقبل. . دعونا في الحاضر. . القضية الأساس، كما قال الرفيق حنانيان، هي إجلاء الفرنسيّين والانكليز، وتحقيق الاستقلال. . المناخ السياسي العالمي يتبدّل لصالحنا. هناك الاتحاد السوفياتي الآن، وسيكون له دور حاسم، في رسم خريطة عالم ما بعد الحرب العالمية، والشرق الأوسط من هذا العالم طبعاً. . الرفيق جواد ذهب بعيداً جداً، ألقى علينا محاضرة في السياسة. . لواء اسكندرونة سيعود إلى سورية لا محالة، فتركيا لم تلتزم الحياد كما كان المطلوب منها، مقابل إعطائها اللواء قبل الحرب، ما رأي الرفاق؟

ضحك الرفيق حنانيان وقال:

ـ جعلت مني فزّاعة يا رفيق بغداسيان! خوَّفت الرفاق وأنت تتلطّى وراء تأييد ما قلته.

صاح الرفيق بغداسيان:

ـ أنا لم اؤيدك، ذكّرت بكلامك فقط!

سألت بدوري:

ـ هل أنت واثق، رفيق بغداسيان، بأن لواء اسكندرونة سيعودا؟

ـ كل الثقة!

ـ أنا أخالفك في هذا!

ـ لا بأس.. أنا قلت رأيي!

قال حنانيان:

ـ والرفيق جواد قال رأيه!

ـ الرفيق جواد تنبأ لخمسين سنة قادمة! هو الذي خوّف الرفاق لا أنا. ما علاقتنا، الآن، بوعد بلفور، ودور أميركا المقبل، وتغيير التهم والخرائط؟ نبوءته، كما أرى، سابقة لأوانها، وهي غير واردة، لأنها ترتكز على تحليلات غيرنا!

قال الرفيق حنانيان مازحاً:

ـ الرفيق جواد وسّع الآفاق بأكثر مما يجب، وأنت يا رفيق بغداسيان، ضيّقتها بأكثر مما يجب..

طرْبَقَتَ الدنيا على دماغنا!

رد الرفيق بغداسيان:

ـ واحدة بواحدة إذن! ما رأي الرفاق؟ هناك تشاؤم يقابله تفاؤل!

قلتُ:

ـ نعدّل التشاؤم والتفاؤل مستقبلاً، ونرفع الجلسة اليوم.

قال الرفيق حنانيان:

ـ أنا من هذا الرأي؟ هل من معترض؟ لا؟ ننهي الاجتماع ونتفرق بحذر.

قال الرفيق بغداسيان قبل أن نتفرق:

ـ أنا أحترم آراء الرفيق جواد، لكن لديّ ملاحظة صغيرة: هذا التنبؤ، كما أرجح، سببه أن الرفيق جواد ملاحق!

ضحكنا وقال الرفيق حنانيان:

ـ لا تتعجل رفيق بغداسيان، غداً، عندما تلاحق، تنبأ بدورك، وعلى كيفك تماماً!

وقال الرفيق بوغوص:

ـ الرفيق بغداسيان سيسبقنا إلى اللواء، وسيكون لديه، هناك، متّسع من الوقت كي يفكر ويتنبأ!

قال الرفيق جواد:

ـ وكي يقرأ الصحف العربية والأجنبية، كما أفعل أنا الآن.

قال أحد الرفاق:

ـ بغداسيان عمله معروف: توفير الحماية لمن يحتاجها منا!

قال الرفيق حنانيان:

ـ أشهد أن هذا صحيح!

قال جواد:

ـ وأنا الليلة في حمايته، كالعادة.

قال بغداسيان وهو يتفقّد مسدسه:

ـ في هذا المجال أنا القائد.

سأل جواد:

ـ وهل خالفتُ ليلة تعليماتك يا قائدي؟

قال بوغوص:

ـ المهم ألاّ تعرّضنا للخطر!

قال بغداسيان:

ـ حياتنا هي الخطر وقد اعتدناها.

ـ لكن دون مجازفة على طريقة دكران!

التفت بغداسيان إليَّ وقال:

ـ فشر دكران! أنا الذي علّمته الشجاعة!

ـ وكذلك التهوّر!

ـ هذا لا!

ـ والفوضويّة؟

ـ خسىء! أنا انضباطي أكثر من الجميع!

قال بوغوص:

ـ أكثر مني!؟

ـ أنت بارع في التنظيم فقط! ما عدا ذلك أكل هواء!

قال ذلك، وسأل الرفيق جواد:

ـ هل مسدسك ملقّم؟ تفقّده جيداً.. والآن إلى اللقاء!

ردّ الجميع:

ـ رافقتكما السلامة!

«غابا عنّا في الظلام! وعلى الأثر أبحرنا كلنا في الظلام نفسه، بعد أن تلقّينا إشارة أن «الدرب سالك!» وتذكرت قول بغداسيان: «حياتنا هي الخطر!» فقلت، أنا بوغوص، في نفسي: «إذا صدقت نبوءة جواد، فإن هذه الحياة سيعتصرها الخطر حتى القطرة الأخيرة!».

«مع ذلك لا بأس! أضفتُ، النضال لأجل سورية اليوم، ولأجل أرمينيا غداً، يستأهل ما هو أكثر: الروح، وهي كل ما نملك!».

١٤

الغابة تصلّي في كل الفصول، وعندما، في العشيّات والأصباح، ترتّل مزاميرها، تنحني الأشجار أو تركع، وتبقى السكينة وحدها تبحث عن ذاتها، ضابطة الإيقاع في بحثها المطوّف، كي تسمع من بعيد، من أعماق الغابة، تراتيل الإجلال المهيب، في هارمونيّتها المتساوقة مع كل فصل، ما بين أنسياب النغم هادئاً، خافتاً، متصاعداً في الربيع، وانديِاحه في الصيف، وتوشّحه بالحزن الشفيف في الخريف، وضجيجه الهادر في الشتاء، مع ضربة قوّية للصنجين النحاسيين الكبيرين، معلنة نهاية الحركة، في المقطوعة الموسيقية المعزوفة. هنا، في الغابة، ولد اللحن الأول والثاني والثالث، وكالجوقة، تشترك كل الكائنات الغابيّة، في طقوس المعبد الكبير، الأخضر، المتضوّع، منشدة، في طوايا السكينة، نشيد إنشادها!

لم توفق ماراتيان في فهم لغة الغابة، لم تسمع التراتيل، لم تر السكينة، لكنها عاشتها وهي جالسة خارج الكوخ، بانتظار عودة الغائب، عودة الرجل المبهم ما بين عبوس وابتسام، الذي لا تعرف عنه شيئاً، سوى اسمه: انترانيك! وأنه في خطر، وأنها

هي، من جاءت إليه، في مركب الخوف، كي تبعد عنه الخوف، وتنقذه من الخطر. لكن الرجل المبهم تركها وغاب، دون أن يقول لها كلمة واحدة، عن الغاية التي يسعى إليها، كأنما ألف الخطر أو افتقده فعاد إليه، اتّشح به، وهو، الآن، في دائرته! «ليكن، قالت ماراتيان، الغابة خلقت لتكون حديقة العشّاق، فيها ينعمون بالراحة، والطمأنينة، ويتذوقون شفاه بعضهم بعضاً، أو يستلقون على العشب، أو يركضون كالأطفال، أو يغيبون، كما تغيب الشمس، في بحر من نوع آخر، أجمل، أجمل، أجمل! وها هي الغابة، بدل أن تكون للّذة، صارت للخوف، ولكن مَنْ قال لك، يا ماراتيان، أيّتها الغبيّة، إن لذّة الخوف لا تفوق لذة الأمن؟ إننا نرتعش، في الخوف، بأعنف مما نرتعش في سواه، فهل المرأة وحدها تعرف هذا؟ وهل المشاعر العنيفة، هي التي تلذّ المرأة وحدها؟ إنني، الآن، أعيش هذه المشاعر، كأنما الخوف هو الذي أيقظها، هو الذي كتبها، محاها، عاد إلى كتابتها، على صفحة الإحساس الأنثوي، المثار، في تلبية مجنونة، لنداء الغابة المجنون، المجنون والمجهول معاً!

آه! ليت المفاجأة تحدث، لا يهمّ مع مَنْ، لتحدث فقط، ليخرج رجل من أيّ جهة، ويغتصبني بالقوة، بالعنف الشديد الذي يقطّع الأوصال، ويتركني، بعد ذلك، مستلقية، بفعل الدفق المخدر، الذي يطول مع الأنثى ويطول!».

بقيت ماراتيان ملفوفة بمشلح الليل، ساكنة، مستسلمة لمشاعرها الخاصّة، وبعد قليل أغفت، حتى أيقظها جواد قائلاً:

ـ أنت هنا وأنا أبحث عنك في كل مكان؟

تثاءبت، تمطّت، قالت بصوت له رنّة تختلف:

ـ وماذا تريد منّي!؟

ـ كيف ماذا أريد منك؟ نسيت أين نحن؟ نسيت الخطر؟

تمتمت:

ـ أنا أحبّ الخطر! اليوم عرفته واليوم أحببته، أين كنت؟

استدركت:

ـ لا! عليّ ألاّ أسأل، لا تقل أين كنت!

ـ طبعاً لن أقول، ولكن هل تعرفين في أيّ وقت نحن؟ إنه منتصف الليل تقريباً، وأنت تنامين هنا دون..

قاطعته:

ـ «يقظة ثوريّة!»

أضافت:

ـ ييرانيك قالت لي «لا أحبّ سماع هذه العبارة!» وأنا أيضاً لا أحبّها!

انتهرها جواد:

ـ هيّا إلى الداخل، وكفيّ عن هذه اللهجة الممطوطة! ماذا حدث لك؟

أجابت وهي تنهض:

ـ لم يحدث شيء مع الأسف!

ـ ولماذا مع الأسف؟ هل كان من المريح لنا، ونحن في هذا الوضع، أن تلدغك أفعى؟ ان يفترسك ذئب، أو ضبع، أو وحش من وحوش الغابة؟ فكّري أنت!

ـ أنا أفكّر! فكّرت طويلاً!

ـ بماذا؟

ـ بأشياء لا تقال!

ـ أفكار سيّئة إذن؟

ـ بالعكس، أفكار حسنة، لذيذة جداً!

ـ هل شربت شيئاً؟

ـ . . . قليلاً من الكونياك فقط! هل هذا من العيب أيضاً؟

فكّر جواد وقال:

ـ لا! ليس من العيب! ولكن لماذا «أيضاً» هذه؟

ـ لأنها. . لأنها. . لا شيء! هل يرضيك هذا؟

ردّ جواد بجدّية:

ـ عندما نكون في مهمّة، علينا أن نعي. .

ابتلع كلمة «المسؤولية!» ابتسم في العتمة، دخل الكوخ،

جلس على الخوان الوحيد الموجود، إغمض عينيه طلباً للراحة، ريثما تعود ماراتيان من المغسلة، وراء الباب الجانبي! «هذا طبيعي، طبيعي جداً، المرأة أكثر شجاعة من الرجل، إنها، أحياناً، كالطفل، تعرف ما تريد وتطلبه دون تردّد، مع فارق واحد: الطفل يتكلم بلسانه، المرأة تتكلم بعينيها، بقسمات وجهها، بكل جوارحها، لأنها إنسانة حقيقيّة! أما الرجل فإنه إنسان مزيّف..».

سألت ماراتيان بجدّية:

- بماذا تفكر رفيق انترانيك؟

كاد يقول «وبماذا يفكر الرجل في وضع كهذا؟ بأبيه الذي في السموات!؟ بالآخرة؟ بسبت الأموات؟» إلا أنه سكت، فسألته:

- هل تحب الغابة؟

- وأنتِ؟

- أنا لم أكن فيها سوى اليوم.. وأنت رأيتني على أيّ حال كنت، وبالمناسبة: ما هو مفهوم الخطيئة عندك؟

- تعرفين الوصايا العشر؟

- وهل الحبّ زنى؟

- إذا كان صادقاً ليس بزنى، لكن الحبّ لا يهبط من السقف، ولا ينزل من مدخنة بابا نويل!

ـ يأتي هدّية، من الهدايا التي تعلّق على شجرة عيد الميلاد؟

قال جواد:

ـ أنا لم تكن لي، في أيّما يوم، هدية من الهدايا التي تعلّق على هذه الشجرة! هناك هديّة واحدة، تلك المعلّقة في سقف غرفة التعذيب، في دوائر الأمن العام الذي يطاردني. شكراً لكل شيء فعلتهِ اليوم لأجلي، كنت شجاعة، وعلى درجة كافية من المهارة، في التملّص من بين أصابع الذين كانوا يقتفون أثرك، للقبض علي!

ـ هل تحبّ بيرانيك؟

ـ كم سعر البطاطا في كسب؟

ـ سؤال لا يسأل أيضاً؟ كم عدد الأسئلة التي لا تُسأل في الحياة الحزبيّة!؟

ـ ها هو الرفيق حارس الكوخ، إنه يحمل العشاء لنا، ألست جائعة؟

ـ بلى! جائعة، وحتى لو لم أكن جائعة، يجب أن أكون جائعة، حتى لا أخرق الانضباط الحزبيّ، أم أنا مخطئة؟

ـ مخطئة إلى حدّ ما، لا دخل فيه للانضباط الحزبيّ، قولي: ماذا تريدين؟

ـ وماذا يريد الكائن الحيّ، من الحجر الأصمّ؟

ـ لنشرب جرعة من الكونياك، ونأكل بغير بحث في الجمادات أو حولها، إنني أفهمك تماماً، وأقدر مشاعرك الطيّبة نحوي.

ـ في الكلام كلّ شيء سهل!

ـ ليس بالسهولة التي تتصوّرين! تحسبينني أخاف الخطيئة؟ لا! أنت واهمة، لنشرب كأس لقائنا، تعارفنا، ونجاتنا نحن الاثنين.. هناك عمل ينتظرني، صدّقيني!

ـ وماذا يعني لو لم أصدّقك؟

انتهرها:

ـ تكلّمي في الحدود المسموح بها فقط! دعينا من الحزب، والرفاق، والرفاقيّة. أنت، الليلة، في مهمّة، وأنا مثلك، ولأننا كذلك، فإن تصرفنا ينبغي أن يكون في حدود مهمّتنا، لا أكثر.

قالت ماراتيان:

ـ أعرف كل هذه المواعظ، وأوّلها شرف العمل الحزبيّ؛ وثانيها لو لم يكن لأهلك ثقة بنا، لما سمحوا لك بالمجيء إليّ؛ وثالثها إذا أخطأت معك، أخطىء مستقبلاً مع غيرك، وبعد ذلك تنعدم الأمانة، ونخسر العنصر النسائي في حزبنا؛ ورابعها القيام بالواجب، واستغلال هذا الواجب بما يسيء إليه؛ وخامسها تعلّم كبت الشهوات، لأنه الف باء النضال؛ وسادسها العمل الحزبيّ، في الظروف السرّية، غيره في الظروف العلنيّة؛ وسابعها من يخضع لشهوته، تذلّه هذه الشهوة؛ وثامنها ليس من

شرف الصيد، أن نصطاد من المقلاة؛ وتاسعها قبطان السفينة آخر من يغادرها في حالة الغرق، والقائد الحزبيّ هو هذا القبطان، آخر من يرتكب الخطأ مدفوعاً بأنانيته؛ وعاشرها يجب التفريق دائماً، بين ما هو ذاتيّ وما هو موضوعيّ، في الكلام وفي السلوك..

قاطعها جواد قائلاً:

- وبعدا؟ لماذا هذا التعداد الذي لا أنكر أنه مفيد، وأنني، أنا شخصياً، استفدت منه؟ كل هذا يُعطي انطباعاً بأنك مجرّبة ومجرّبة ومجرّبة، وأن تجاربك لها صلة قوية بالواقع، إلا أن الذي فاتك، أو المهمّ أكثر، هو أن علينا أن نغيّر هذا الواقع، وان نبدأ بأنفسنا!

- ابدأ بنفسك أولاً. أنت، أيضاً، من بين الذين صنعوا الواقع الذي تطالب، الآن، بتغييره!

اعترف جواد:

- هذا صحيح! ارتكبت، خلال حياتي الحزبية، أكثر من خطأ!

- والآن، تبت عن أخطائك؟

- أحاول أن أتوب عنها!

- معي أنا بالذات؟

- ومع غيرك!

قالت ماراتيان:

- أرجوك، اسمع هذا البند الأخير، ما رقمه؟ هذا لا يهمّ! كنت في وفد حزبيّ إلى الخارج، وفي أحد الفنادق، طرق عليّ رئيس الوفد الباب، يريدني...

قاطعها جواد:

- أعرف هذه الحادثة، وقد طُرد الذي قام بها، من الحزب، عقاباً له.. رفيقة ماراتيان، تبادلنا حديثاً نافعاً، بالنسبة لي خصوصاً، إلا أن البشر، في أيّ ظرف وضعوا، يبقون بشراً.. الملائكة غير موجودين على الأرض.. ليلة سعيدة، إنني خارج.. وسأعود صباحاً.

خرج، أغلق الباب وراءه، مشت إليه ماراتيان، فتحته، اتكأت عليه، راحت تتأمل الغابة، التي لم تكن، قبل الليلة، تعرف أن لها هذا السحر الخارق على الإنسان، وأن لها نداء قوياً، مجهول المصدر، ذا وقع عجيب في النفس، وتأثير شديد على العواطف! وفي بيت صغير، على المنحدر، كان حنانيان وجواد يعقدان لقاء خاصاً، في غاية السرّية. قال الرفيق حنانيان:

- ملاحظاتك، رفيق جواد، كانت موضع تقدير في المكتب السياسيّ لحزبنا.. أنت، فعلاً، العقل المفكّر والمدبّر، في منطقيّة كسب، لذلك فإنهم يلاحقونك بإصرار، يطاردونك مطاردة شديدة.. كيف اكتشفوا أنك في البسيط؟

قال جواد:

ـ مصادفة!

ـ أحسنتَ في الهرب، بحراً، اليوم.

ـ لم يكن أمامنا، بيرانيك وأنا، إلا البحر، فقد طوّقونا، وكدنا نقع في أيديهم، وفجأة رأيت المركب! كنت، في البدء، أحسب أن فيه احداً، وكنت سأستولي على المركب بالقوة، لكنني، لحسن الحظّ، وجدته مهجوراً، فأدرنا المحرّك واتجهنا إلى الداخل، وقد تجاوزنا المياه الاقليميّة، فتوقّفت المطاردة.

ـ والدوريّات البحريّة التركيّة؟

ـ دخلنا المياه التركيّة لمسافة قصيرة، ثم خرجنا منها بسرعة. . بيرانيك كانت على حقّ، تركتُ القيادة لها، فهي تعرف منطقة البسيط كما تعرف أصابعها، وعندما حاصرونا قالت: «لم يبق أمامنا سوى البحر!» وكنا سنهرب في شختورة، قبل أن نفطن إلى وسيلة أضمن: المركب!

قال حنانيان:

ـ ابق، الآن، حيث أنت، رفيقنا صاحب الكوخ صيّاد ماهر، يعرف كل منافذ الغابة، أما ماراتيان فستعود إلى كسب غداً صباحاً. . كيف وجدتها؟

ـ أدّت دورها بمهارة، غير أن أنوثتها ناضجة أكثر من اللازم!

ضحك حنانيان وقال:

ـ خفت أن تغتصبَك؟

ـ حاولتُ!

ـ كانت تجرّب متانة فضيلتك أيها القسّ المحترم!

ضحك جواد بدوره وقال:

ـ قسّ!؟ ومحترم!؟ تعرف مبدئيّتي في هذه الأمور!

قال حنانيان:

ـ الرفيقة ماراتيان شديدة التمرّس، دائمة الانتقاد، وبعض انتقادها في محلّه كما أرى!

ـ لم تترك ستراً إلا كشفته، إنها واسعة الاطّلاع، عصيّة على الانقياد. . هل هذا لكونها عازباً، وعنيدة؟

ـ ليس بالضرورة، ماراتيان تنتقد الرفاق لصرامتهم، والتعليمات التي تسمّيها «مواعظ!» ولا يعجبها التشدّد في السلوكيّات، وبعض الأقوال الشبيهة «بالكليشيهات»، «وأشياء أخرى. . ما رأيك أن تتزوجها، هذه المهرة التي تحتاج إلى ترويض «خاصّ» أولاً؟

قال جواد:

ـ وهل أنا عدوّك رفيق حنانيان!؟ ماراتيان صعبة الانقياد، كان الله في عون زوجها المقبل!

ـ تقصد دكران؟

ضحك جواد وقال:

- «طنجرة ولاقت غطاها!».

قال حنانيان:

- المصيبة أن هذه الطنجرة لا يركب عليها أيّ غطاء!! لنعد إلى موضوع الفرنسيين، وهذه الهجمة الشرسة علينا، ما دافعها؟ علام تدلّ؟

- على الضعف!

- أنا معك في هذا! الجيش السوفياتيّ دخل برلين، أنزل العلم النازيّ عن الريخساغ، فسارع الحلفاء لقطع الطريق عليه لا لمساعدته كما يدّعون.. لا يريدونه أن يحرّر أوروبا، هذه هي المسألة!

قال جواد:

- نزول الحلفاء في دانكرك كان سهلاً بأكثر مما كانوا يتصوّرون.. ألمانيا خسرت الحرب، وهي على وشك الاستسلام، وتفضّل، الآن، الاستسلام للحلفاء، ألف مرة، على الاستسلام للاتحاد السوفياتي، هذه هي اللعبة. وهذا الإنزال في دانكرك، الذي ماطلوا فيه كثيراً، عندما كان الجيش الأحمر بعيداً عن أوروبا، سرّعوا فيه الآن بدفع من أميركا، هذا رأيي! طائرات الحلفاء دمّرت درسدن، قبل دخول الجيش الأحمر إليها، فلماذا؟ لأنها مدينة صناعية، ويحرّرها السوفيات.. إعلان استسلام ألمانيا غير بعيد، رفيق حنانيان.

قال هذا الأخير:

- من أجل ذلك رغبتُ في التشاور معك.. الفرنسيّون في حالة عصبيّة، لأن الاستحقاق بات قريباً، وعدوا سورية ولبنان باعطائهما الاستقلال التامّ فور انتهاء الحرب العالمية الثانية، وبالجلاء أولاً، وها هي الحرب قد انتهت تقريباً، فماذا يفعلون؟

- يلحسون تعهّدهم بالاستقلال وبالجلاء!

- هذا هو!! فرنسا «الحرّة» وقت الشدّة، غيرها وقت الفرج، الفرنسيّون يميلون، كما أقدّر، إلى استخدام القوّة عند اللزوم، وعندئذ؟ حزبنا سيكون في طليعة القوى التي تتصدّى لهم، والاتّحاد السوفياتيّ، كما يتصوّرون، وراء هذا الحزب.. إذن، يقولون، علينا أن نضربه بقوّة، وفي الأطراف خصوصاً، وهذا يوافق عليه الإنلكيز أيضاً، إذا لم يكونوا هم المحرّضين أصلاً.. ووراء هذا الهجمة الفرنسيّة علينا، وبغتة، أمر ما، أفسّره أنا بالضعف والخوف..

قال جواد:

- وأنا موافق على هذا التحليل: المعركة مع الفرنسيين المحتلّين تقترب، ويجب أن نستعدّ.. ما رأيك رفيق حنانيان أن نبعث مندوباً إلى قيادة الحزب للتشاور؟ والأهم لشرح الوضع عندنا؟

- من ترشّح لذلك؟

ـ الرفيق بوغوص.. إنه ماهر في التنظيم، ومطّلع على الوضع في كسب ومنطقتها جيّداً! ولا ضرورة عندئذ للتقرير، الذي قد يقع في أيدي الفرنسيين، لسبب ما.

قال حنانيان:

ـ لا أعارض في إرسال الرفيق بوغوص، وفي كتابة منشور وتوزيعه.. نفضح فيه اللعبة الفرنسيّة، وننبه إلى نوايا الانكليز، وندعو إلى التشدّد في شعار: الجلاء واستلام الجيش.

قال جواد:

ـ هذا جيّد، أنا موافق، مع ملاحظة: أن نبدأ الاستعداد لمقاومة المفرزة الفرنسيّة في كسب بالسلاح، إذا ما حاولت أن تلجأ إلى القوّة.. شكراً رفيق حنانيان، وإلى لقاء قريب.

١٥

جلس المحقّق انطوان غوموليا وراء مكتبه، بلباسه المدنيّ الأنيق، مع ربطة عنق حمراء، مقلّمة، وعلى عينيه نظّارة مذهّبة الإطار، وإلى جانبه الكابتن برنار، رئيس المفرزة الفرنسيّة في كسب، وقد رسم كلاهما ابتسامة زئبقيّة على شفتيه، مخفياً، تحت قشرة من اللطف، نوايا متباينة، لكنها تصبّ في مجرى واحد: استمالة بيرانيك، ابنة الاسرة الثريّة، الخارجة على إرادة أسرتها، والمنضمّة إلى من ضلّلوها، من جماعة اسحاق حنانيان «هذا الحدّاد الذي كانت ورشته، تخفي تحت جناحيها، منظّمة حزبيّة كاملة، جيّدة التنظيم، نشيطة، فاعلة، عصيّة على الاكتشاف من قبل الأمن العام الفرنسيّ!».

سأل المحقّق غوموليا:

- إذن هذا رأيك يا عزيزي الكابتن برنار؟

أجاب برنار:

- بالضبط يا عزيزي غوموليا، لدى الأرمن قدرة متميّزة على التنظيم!

ـ وماذا كان يفعل رجالنا؟ أين عيونهم السرّيّة؟ أين قدرتهم على الاختراق؟

ـ لا أدري، ولا يهمّني ذلك، مفرزتي مهمّتها التنفيذ، ولكن بعد فوات الأوان!

ـ أي أنهم كانوا يحاولون اصطياد العصفور، بعد طيرانه، وإفلاته من أيديهم!؟

ـ بالضبط!

ـ لكنهم كانوا موضع ثناء رؤسائهم.

ـ تقصد ذلك النازي النتن جيرار؟

ـ هذا كان موضع ثقة دانتز نفسه!

ـ دانتز كان نازيّاً جباناً. . ما أن وصل كاترو إلى الحدود السوريّة ـ اللبنانيّة، حتى هرب دانتز، كالأرنب المذعور. . وقد حاول «رجلُه»، الهرب، فكنت له بالمرصاد. . كان جيرار عميلاً مباشراً للغستابو، وقد لقي جزاءه العادل.

ـ وماذا بشأن عمله هنا؟ ألم يستفد من أساليب أسياده؟

ـ كان يمكن ذلك في منطقة أخرى! أقول لك، عزيزي غوموليا، هنا الأمر يختلف: إنها كسب، تعرف ماذا يعني ذلك؟ العصيان في الجبال والغابات، وحتى في قلب البلدة! هنا جدار! هنا خطّ. . .

ضحك المحقّق وقال:

- لا تقل «خط ماجينو!» أرجوك، لا أريد سماع هذا الاسم، فهو فضيحة! لولا حركة الجنرال ديغول، لما بقي لفرنسا ذكر بين دول الحلفاء!

قال الكابتن برنار:

- أنت على حقّ في هذا، لكن حنانيان وحزبه ساعدا كثيراً «فرنسا الحرة» في ضرب الدانتزيين، وقطع الطريق عليهم في الهرب إلى تركيا.. هذا ما يجب أن نذكره.. إنني كنت في اسكندرونة قبل دخول الجيش التركي إليها، وكنت في حلب وبيروت، ورأيت هجرة الأرمن من اللواء، وما تعرّضوا له من أذى.. مع ذلك لم ينحازوا إلى أيّ من دول المحور، هذا يُسجّل لهم، رجالاً ونساءً.

قال غوموليا:

- لا تنس، عزيزي، الثمن: خروجنا من سورية ولبنان! هذا هو وعد كاترو.. وتصوّر أن الأرمن لا يقلّون تمسكاً عن العرب بإنجاز هذا الوعد! ماذا نفعل الآن؟ موعد الاستحقاق يقترب! نحن في ورطة! لا بدّ من الضرب بيد من حديد.. كسب مثل غيرها: يجب أن تخضع، تعرف لماذا؟ حتى لا يلجأ إليها الذين نطاردهم في المدن الأخرى، وزعماء الأرمن خصوصاً! تصوّر أن يرانيك هذه كانت السبب في إفلات المدعو جواد من ايدينا.. تعرف هذا المسدس لمن؟ إنه لها! تصور!

قال الكابتن برنار:

ـ اعذرني ملازم انطوان.. أنا معجب بيبرانيك هذه، إنها جميلة جدّاً وشجاعة جداً..

قال غوموليا وهو يرنّ الجرس:

ـ سنرى الآن! لن تفلت من يدي.. أريد اعترافاً كاملاً، وبحضورك، كابتن! سأجعلها تدلّنا على مخبأ حنانيان وجواد..

ابتسم الكابتن برنار وقال:

ـ فقط!؟ اعتبر، إذن، أنهما صارا في قبضتك!!!

ـ أنت لا تعرفني!

ـ هذا جائز، لكن المؤكّد أنك لا تعرف بيرانيك هذه!

ـ لن يغريني جمالها مهما يكن، إنني محصّن من هذه الناحية.. لديّ مناعة! ثم لا تنس..

قال ذلك وغمز بعينه، فابتسم برنار وقال:

ـ هذا جائز! المحقّق الوسيم له أفضليّة.. بماذا ستبدأ؟

ـ بشرب «النيس كافي» عزيزي!

قال انطوان غوموليا ذلك، وطلب من الحارس إدخال بيرانيك إلى مكتبه، ثم راح يفرك يديه، وبرنار يرى إليه ويبتسم ابتسامة ملتبسة.. وبعد ثوان نُقر الباب، ثم دخلت بيرانيك بلا مبالاة، وأغلق الحارس الباب وراءه، فنظر غوموليا إليها، وقال وهو يشير

إلى مقعد أمام المكتب مباشرة:

ـ بإمكانك الجلوس آنستي.. إنني جدّ آسف، ولكن الواجب، كما تعلمين، هو الواجب.. أقدّم إليك الكابتن برنار، قائد المفرزة، وهو، وهذا سرّ أبوح به، إلى جانبك.. ألا يعرف أحدكما الآخر؟

قال برنار:

ـ التقينا قبل الآن، في البيت، في المدرسة..

أكملت ييرانيك:

ـ وفي المطاردة أيضاً! رجال الكابتن أشاوس: يطاردون النساء نهاراً.. وليلاً!!

قال الكابتن برنار:

ـ وفي البرّ والبحر، لكنهم لا يصطادون شيئاً، مع الأسف!

ـ رجال الأمن أكثر مهارة وشجاعة: اصطادوني من المدرسة، وها أنا سجينة، طوع الأوامر!

قال المحقّق غوموليا:

ـ هذه بداية طيّبة.. ولكن لنشرب «النيس كافي» أولاً!

قالت ييرانيك بالأرمنيّة:

ـ لنبدأ الاستجواب أولاً! أريد مترجماً!

لم يفهم المحقّق:

ـ ألا تتكلمين الفرنسية؟

قال الكابتن برنار:

ـ وباتقان تام!

قالت بيرانيك بالفرنسيّة:

ـ أريد مترجماً، وأصرّ على ذلك..

وقف المحقّق وقال وهو يحك ذقنه:

ـ لست من أنصار الشدّة آنستي، لكن عليّ أن أذكّرك أنك هنا سجينة ولست سفيرة!

قالت بيرانيك بجفاء:

ـ أعرف هذا!

ـ إذن؟

ـ المترجم اولاً، وهذا من حقّي.. فإذا لم يكن هناك مترجم، فإن المحامي ينوب عنه، وأترك لك الخيار سيّدي المحقق!

ردّ بقسوة:

ـ لا هذا ولا ذاك! أنتِ إرهابية والدليل مسدّسك.. أليس هذا مسدّسك آنستي؟

ـ نعم مسدّسي! لكن ماذا يعني هذا؟ أنت أيضاً، وكذلك الكابتن، يحمل كل منكما مسدّساً..

هتف المحقّق:

- آه! هناك سوء تفاهم! سوء تفاهم بسيط: نحن نحمل المسدّس بصفتنا العسكريّة، وأنت بأيّ صفة تحملينه؟

قالت ييرانيك:

- نعم! هناك سوء تفاهم بسيط، ولكن من نوع آخر.. أنت تحمل المسدّس بصفتك محتلاً، وأنا أحمله بصفتي مقاومة ضدّ احتلال أرضي من قبلك، أين الإرهاب إذن؟

قدّم غوموليا لها سيكارة فرفضت، أشعل سيكارة لنفسه وقال:

- هناك، كما يبدو، سوء تفاهم ثالث، لكنه بسيط أيضاً: هل أنت تقاومين لتحرير أرمينيا؟ إذا كان الجواب بنعم، أطلق سراحك فوراً!

قالت ييرانيك:

- وهل أنت تحتلّ أرضاً فرنسيّة؟ إذا كان الجواب بنعم، أصدر حكمك بإعدامي! ثم إنني سوريّة، وأحمل الجنسية السوريّة، وقد ولدت في سورية، ولي كل الحقّ، بصفتي مواطنة، أن أقاوم الاحتلال الفرنسيّ لوطني سورية، وهذا ليس سوء تفاهم، ولا هو بالبسيط أيضاً: فرنسا يجب أن تخرج من سوريّة، وهذا ما سوف يصير، والموعد يقترب.. دعك من التلاعب بالألفاظ، إذا كنت رجل قانون، وتحترم هذا القانون! إنني أسألك: هل المقاومة الفرنسيّة للاحتلال الألماني حركة

إرهابيّة!؟

ـ هناك فارق، لا بدّ من أخذه في الاعتبار: نحن لسنا بمحتلّين، نحن منتدِبون، ولنا حقّ البقاء باسم هذا الانتداب!

ـ وقرار الجنرال كاترو الذي تعهّد فيه، باسم «فرنسا الحرة» بالجلاء عن سورية؟ وبقيام حكم وطنيّ؟

ـ هذا بعد انتهاء الحرب..

ـ لكن الحكومة الوطنيّة، بموجب هذا القرار، قائمة منذ عام ١٩٤٣، وهي وحدها المخوّلة بمساءلتي عن نشاطي الحزبيّ، لا سلطة فرنسا الموجودة مؤقّتاً..

ـ حتى انتهاء الحرب..

ـ الحرب انتهت.. الجيش الأحمر في برلين.. وماذا بقي؟ أن ترحلوا!

ـ ليحلّ محلنا الانكليز؟ هذا سؤال ودّيّ آنستي!

ـ وأنا لديّ «جواب ودّي» سيّدي المحقّق: الاستقلال يعني خروج جميع القوات الأجنبية!

ـ وحمل السلاح؟

ـ حيازة سلاح! وهذا من اختصاص حكومة مدنيّة سوريّة.. تريد شيئاً آخر؟

ـ أن نتفاهم!

ـ لا تفاهم بين سجّان وسجينة!

ـ أنتِ موقوفة لا سجينة!

ـ موقوفة لماذا؟ وبأيّ حق؟ غداً يأتيك الجواب: في الصحف والشوارع!

قال الكابتن برنار وهو ينهض:

ـ أنا ذاهب. . لديّ عمل!

قال المحقّق غوموليا:

ـ وأنا أنهي التحقيق اليوم، ونستأنفه غداً!

غير أن التحقيق لم يُستأنف أبداً، فقد تسارعت الأحداث: انتحر هتلر، استسلمت المانيا، شنق المقاومون الايطاليون موسوليني، حرّرت حركة المقاومة الفرنسيّة باريس، قُبض على بيتان ولافال، أعلن، في أيار ١٩٤٥، انتصار الحلفاء، تعانق الجنود، على جبهات القتال، احتفالاً بالنصر، انفجرت المظاهرات في كل المدن السورية اللبنانية، تداخل الاحتفال بانتهاء الحرب العالمية الثانية، مع المطالبة بالجلاء واستلام الجيش، صدرت الصحف تحمل «مانشيتات» كبيرة باللون الأحمر، خرجت مظاهرة في كسب، كبيرة نسبياً، تقدّمها حنانيان، وقادة المنظّمة، وبعض اليساريين والوطنيين، من الأرمن، ومن العرب المتواجدين في المدينة، وكان قد أُطلق، قبلاً، سراح الموقوفين وبينهم بيرانيك، وصدرت الأوامر، إلى

الفرنسيين الموجودين في سورية، بالتزام الثكنات والمقرّات، مع التشديد على عدم التدخل، والابتعاد، ما أمكن، عن الشوارع الرئيسية، وتجنّب أيّ احتكاك، من أيّ نوع، مع الجماهير المبتهجة، الفائرة حماساً، المندفعة من كل صوب، المتعانقة فرحاً، مع شعارات مرفوعة، وأعلام وطنيّة خافقة، وهدير الهتافات: «بذْنا الجيش، بذْنا الجيش، الجلاء، خروج القوّات الاجنبية، الاستقلال التام» وزغاريد النساء، ونثر الزهور، من الشرفات، على المتظاهرين، وإقامة اقواس النصر، في مداخل المدن، والمفارق الرئيسية.

في قيادة المفرزة الفرنسية في كسب، تجمّع الفرنسيّون، المدنيّون خصوصاً، وفي مكتب الكابتن برنار، كان المحقّق، الملازم غوموليا، يقول للكابتن:

ـ سبقتنا الأحداث يا عزيزي!

قال الكابتن برنار، وهو يضع رجلاً على رجل:

ـ ماذا كان في وسعنا أن نفعل، حتى ولو لم تسبقنا؟

ـ نتّخذ الاحتياطات اللازمة. .

ابتسم برنار كعادته وأكمل:

ـ. . ونقيم المتاريس!

ـ المتاريس وغيرها.

ـ مثل ماذا!؟

ـ نثبت وجودنا على الأقل. .

ـ. . ونكمل التحقيق مع بيرانيك!

ـ هذه أفلتت من يدي. . .

ـ ولماذا لا نقول العكس؟

ـ تقصد أنني، أنا، الذي أفلتّ من يدها؟

ـ تماماً. . الآن بدأت تفهم يا ملازم انطوان. . اسمع!

قال ذلك الكابتن برنار، اعتدل في جلسته، أشعل سيكارة وقال:

ـ كنت أمس، يا عزيزي، غير موفّق، وليس ذلك لقلّة كفاءتك، ولكن لأن الحقّ كان معها.

نقر غوموليا على طرف المكتب وقال:

ـ كانت تحفظ درسها جيّداً!

ردّ برنار:

ـ كانت تعرف ما تقول جيداً! المنطق، يا عزيزي، هو المنطق دائماً، كنت الخاسر لأنك تطرح قضيّة خاسرة، وكانت الرابحة لأنها تتمسّك بقضية رابحة، هذا هو الجوهر، وما عداه هراء!

أضاف برنار:

ـ من سوء الحظّ أنها كانت مستنفرة، لم تلفتها وسامتك، مع أنك وسيم حقاً! كان عليك أن تقبل اعتذاري عن حضور التحقيق،

أن تكون وحيداً، لطيفاً، عذباً، وأن تدع كلّ هذا اللغو عن الاحتلال، الانتداب، الأرض السوريّة، الأرض الأرمنيّة، وأن تلجأ إلى سلاحك الخاصّ: الغزل الفرنسي الذي نجيده أكثر مما نجيد الاستفادة من «خطّ ماجينو» مثلاً!

- تسخر؟

- كيف ترى أنت؟ وبالمناسبة: لماذا لم تعرض عليها الزواج؟ ولماذا لم تمهِّد لذلك بكلمة لها رنين خاص في اذن المرأة: «أنت جميلة جداً سيدتي!» بشرفك العسكريّ: أليست جميلة وذات فمٍ كرزيّ نادر؟

قال غوموليا:

- هل تسمح لي، سيدي الكابتن، إذا قلت لك إنك تخلط الأمور، بشكل هازىء!؟

ضحك برنار وقال:

- ولكن هذا اكتشاف! كان عليّ أن أصيح مثل أرخميدس: «وجدتها! وجدتها!» اسمع عزيزي! لا أحد، هنا أو في المندوبية، مَنْ يخلط أموراً مخلوطة بذاتها! علينا أن نفرز الخيوط البيضاء والسوداء، أن نجرّب حلّ عقدتها غير الحريريّة.

نهض غوموليا منفعلاً:

- ولكن هذا، عزيزي برنار، تشاؤم خطير، يدعو إلى اليأس من إبقاء سوريّة في قبضتنا!

أجاب برنار:

- ومن إبقائها في قبضة الإنكليز أيضاً! رغم دهاء الجنرال سبيرس في دمشق، ونجاحه في استمالة «بعض الزعماء» الذين تهمّهم السلطة، أكثر من تحقيق الاستقلال الكامل.. لكن المسألة ليست هنا، المسألة: ماذا في وسع هذه «الحفنة من الزعماء» الموالين لسبيرس، أن يقولوا للشعب!؟ لنخرج الفرنسيين ونبقي الانكليز، لأنهم أصدقاؤنا!؟ هل هذا ممكن؟

قال غوموليا:

- أنا أراه ممكناً، لذلك علينا أن نبقى ولو بالقوة، حتى لا تقطف لندن الثمرة التي، هي، على شجرتنا! هزّ الكابتن برنار كتفيه وقال:

- عزيزي غوموليا، أنت وأنا، لم نخرج. إذن، بأيّ درس خرجنا من التحقيق مع بيرانيك!

- بلى! خرجنا بدرس مفيد جداً: الشعب ليس بيرانيك بأيّ حال! إنه جاهل وهي متعلّمة، هي مسيّسة لكن الشعب ليس مسيّساً كلّه! هذا ما يجب أن نراهن عليه، وصدّقني سنربح!

قال برنار:

- ربما!

وخرج من المكتب.

١٦

«كيف انتهت الحرب؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟» ـ بيرانيك فاهيان.

«المطاردة، المركب، البحر، الليل، الفجر، الغابة، وذراعي حول خصر بيرانيك! أين؟ أين كل ذلك الآن؟» ـ جواد صفصافي.

«اسكندرونة! يا اسكندرونة! يا أمسي الذي ضاع، ضاع، ضاع! ـ سركيس ماخيان.

«التعذيب، الهرب من السجن، الجبل، المغارة، ارتداء الليل، الانقضاض الصاعق، أزيز الرصاص، اصطياد النجوم: واحدة، اثنتان، ثلاثة.. ولماذا كفّي فارغة؟ ـ دكران ألطونيان.

«المهمّة السرّيّة، رأس الجبل الأقرع، والدنيا، تحتي، كانت بغير حدود! ـ قاسم رضوان.

«اللقاء الأول، السرّي، الخوف «ناركزلك»، «صووق اولوق»، الضباب، الأماسي، الأصباح، الثوب الجديد: نحن نعتمد عليك بارون وارطانيان، تدرّع بالظلمة! فهمتُ، اطمأنّوا، هذا الزرد،

هذا الثوب يلذّ لي، يلذّ جداً جداً جداً! ـ العم وارطانيان.

«كان، إذن، حزبيّاً، متخفيّاً بثوب مدرّس، وأنا، مع الكأس، أحكي، أحكي، أحكي، دون تحفّظ، وأذنه تلتقط، تسجل: لواء اسكندرونة انتهى أمره يا صديقي! ـ فيليب جوليان، مدير الأمن العام.

«كانت ورشة الحدادة منظّمة، قالوا! لعب هذا الحداد دوره بإتقان، أين هو الآن؟ في الجبل؟ في الغابة؟ وأنا في المخبأ السرّيّ، تحت أنوفهم! ـ أواديس حنانيان.

«دهشت في زيارتي الأولى لكسب! لماذا ليس لدينا مثله في حلب؟ ـ بوغوص ستراكيان.

«بكيت عندما رأيت قوافل الأرمن، تتجرجر على الطرقات إلى كسب، في هجرتها الثالثة ـ نوبار.

«كنت محقّقاً فاشلاً، قال لي الكابتن برنار، لماذا لم تقل لها: سيدّتي الجميلة جداً، أولاً؟ ذاك الفم الكرزي، سيبقى ذكرى بين قميصي وجلدي، إلى الأبد ـ المحقّق انطوان غوموليا.

«في الليل، أمام السماء والغابة، تمنّيته، ذاك الذي لم أكن أعرف، تماماً، من هو!؟ ما اسمه! لكنه امتنع عليّ، حفاظاً على شرفه الحزبيّ.. لم أفهم! لم أفهم! لم أفهم ـ ماراتيان.

«وشيت بهم متعمّداً، أولئك الأوغاد! انتقمت لنفسي من ذلك «البازاوانك» دكران ـ بارون خاشكيان.

«كنت أمسح الأحذية نهاراً، وأبيع الفلافل ليلاً، وهكذا لم يكتشف أولاد الكلب، أنني كنت أراقبهم، أمام مدخل بناء الأمن العامّ الفرنسيّ، في الدخول والخروج ـ كسبار الأعرج.

«لم يفهم، هذا الحيوان انطوان غوموليا، أن بيرانيك، ربحت عليه الجولة في التحقيق، لأن القضيّة التي كان يدافع عنها خاسرة، خاسرة، خاسرة ـ الكابتن برنار، رئيس المفرزة الفرنسية.

«إنني خائف! خائف! خائف! كيف انجو بنفسي بعد أن خنت رفاقي!؟ الفرنسيّون أنذال، تخلّوا عني قائلين: «هل أنت منديل لنضعك في جيبنا؟ لم تعد نافعاً لنا!» ـ اواديس أجير خاشكيان.

«ثلاثة أسماء، في ثلاث سنوات: جواد الصفصافي، أندريه فازليان، انترانيك، لكن اسمي الحقيقيّ.. لا! هذا يجب أن يبقى سرّاً، ما دامت الغيوم تحجب القمر! مجرّد احتياط! ـ جواد.

«الأرمن حرفيّون، الأرمن ماهرون، منظّمون، متّحدون، الأرمن صارمون، جدّيون إلى أبعد حد، هذا ما كنت أسمعه في عائلتنا، العريقة في أرمنيّتها، رغم أنها تتكلم الفرنسيّة بطلاقة! تناقض؟ ليس مستغرباً، البشر يعيشون التناقض دون أن يحسّوا به، قد يكون الأرمن، بكلّ هذه الصفات، لكنّها، كلها، لا تعني أنهم بلا قلوب، بلا عواطف، وأنهم لا يحبّون، ولا يمارسون الحب، كالآخرين! هذا كذب، كذب، كذب.. وأنا صدقت هذا الكذب، وهناك، في الغابة، على نبع الماء، كانت ذراع جواد

زنّاراً من نار حول خصري، التهبتُ، احترقتُ، لكن الشرف الحزبيّ، هذا الجحيم، حال بيني وبينه.. والآن!؟ عطالة! الحياة السرّيّة انتهت، ضربات القلب، من خوف أو شبق، لم تعد مطارق في الأذنين.. صرنا عاديين، فقدنا تميُّزنا، أضعنا وجهنا الآخر، الذي كان يتقنّع بالظلمة، المغامرة، الترقّب، التوفّز، صار من الماضي، الماضي الجميل، الذي فيه وحده، ومع جواد، عرفت ما معنى أن يحب الانسان! ـ بيرانيك.

«نشأت الدولة الأرمنية في القرن السادس قبل الميلاد، وفقدت استقلالها في الوطن الأم: أرمينيا، في القرن الحادي عشر الميلادي، بسقوط عاصمتها آني عام ١٠٧١، في يد السلاجقة الأتراك! ـ هاروتيان.

ـ هذا لا يمكن يا جدّنا هاروتيان!

ـ هذا ما جرى يا نوباره!

أصوات:

ـ لا أحد يقاطع!

ـ أين الشمس؟ يلذّ لي، في الربيع، أن أتشمسّ وأحكي..

ـ احكِ بلا شمس يا جدّنا الطيب هاروتيان.

ـ لا يطاوعني لساني في البرد.. هل غامت الشمس نهائياً يا أولاد؟

ـ ليس نهائياً.. إنها، الآن، وراء غيمة عابرة، ستشرق من

جديد . .

ـ نعم! نعم! الشمس تشرق دائماً من جديد . .

ـ هذا كلام له ما وراءه، أيها العجوز هاروتيان! انتبه للأمن العامّ . .

ـ مع نهاية الحرب انتهى دور الأمن العامّ . .

ـ هذا دوره لا ينتهي، يا جدّنا الطيّب هاروتيان!

ـ ماذا تقولين يا نوبارة، يا أرمنيّتي المخلصة والشجاعة؟

ـ ما سمعته أيها الجدّ . . أكمل! ها هي الشمس أشرقت من جديد .

ـ وهل قلتُ أنا غير هذا؟

ـ قلته بطريقة ملغّزة! أكمل . .

«سقطت عاصمة أرمينيا مرةً أخرى، في الوطن الجديد كليكيا، في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، وكان اسمها «سيس»، استولى عليها مماليك مصر، أي أن عمر أرمينيا السياسيّ، في هذه الفترة ١٩ قرناً . .

ـ قرن الماعز أم الغنم يا جدّي!؟

ـ القرن، يا صغيري إدفيك، يعني ١٠٠ سنة .

ـ وقرن الألف؟

ـ الألف عام ليس له قرن . .

ـ ماذا له إذن يا جدي؟ ذيل!؟

ـ ولا هذا يا إدفيك..

ـ لا تقاطع أيّها المسخ، أنت!

ـ دعيه يفهم يا نوبارة.. هذا تاريخ أرمينيا وليس حكاية.. على كل أرمنيّ أن يعرف تاريخ وطنه.. من أجل هذا أتكلّم أمامكم جميعاً: الصغار قبل الكبار! قبل أن تخون الذاكرة..

ـ وهل هذا كلّه من الذاكرة؟

ـ ومن أين إذن؟ هذا ما حفظته طول عمري.. قرأته مئات المرات.. ماذا تظنّون؟ جئت من وراء البقر؟ ضع الأرمني على صخر، تنبت عليه الخضرة..

ـ هذا معروف يا جدّنا هاروتيان.. كنت في أرمينيا ورأيت بعيني..

ـ قل بعين واحدة حتى نصدّقك!

ـ هذا من الله.. العور من الله.. كفى أنت يا زبالة البيت!

ـ وأنتِ أيضاً يا هروت.. يا قفّة العظام!

ـ ابلع لسانك يا تيس، أو مع السلامة! نريد أن نسمع! أنا نوبارة وأحذركم جميعاً! مَنْ يقاطع، بعد الآن، أشرطه نصفين.. أكمل يا جدّ هاروتيان..

ـ سأكمل يا بنتي يا نوبارة، ولكن ماذا نفعل؟ الناس جائعة إلى

الكلام. .

ـ انتبه يا جدّ هاروتيان. . ابتعد عن السياسة. . الناس جائعة إلى الرغيف. .

ـ وإلى الكلمة أيضاً! ليكن هذا في معلومك يا مقشّة البلدية! . أنا هاروت وأنت تعرف! خلاص، نزعنا الكمّامة عن أفواهنا. . فتحناها على سعتها. . زمن جيرار ولّى، أنا كنت في المظاهرة ضدّه، وفي الصف الأول أيضاً، أين كنت أنت؟ تحت السرير! أكمل يا جدّ هاروت. . كنت تقول عاصمة أرمينيا الثانية سقطت، وماذا بعد؟

ـ بعد سقوط «سيس» بقي الأرمن ٥٠٠ سنة تحت النير، أضاعوا استقلالهم حتى الربع الأوّل من القرن العشرين، حيث قامت الجمهوريّة الأرمنية المستقلّة في القوقاز الآن، ولها موقع حصين، بسبب تكوّنها الجغرافي. وغداً، بعد أن انتهت الحرب الآن، تظهر المسألة الارمنيّة من جديد، لا بدّ من عودة قارص وأرضهان إلى أرمينيا، سنقول: «كفى!» للحكم التركي. . نريد أرمينيا الغربية، وهذا من حقنا. . هل هذه سياسة أيضاً؟ إذا كانت سياسة فأنا سياسيّ. . سأكون في البيت بانتظار من يعتقلني. . ماذا هناك؟

أسمع ضجّة!.

قال زنكو وهو يلهث من الركض:

ـ عاد الرفيق «انترانيك» من المنفى! هذا الاحتفال لأجله!

سألت هاروت:

ـ ومن هو الرفيق انترانيك هذا؟ وفي أيّ منفى كان؟

ـ الرفيق انترانيك هو معلّم المدرسة جواد.. كان الكلّ في الكلّ، يعني رأس المقاومة ضد الفرنسيين.

قالت نوبارة:

ـ هذا خبر عظيم يا زنكو.. معي يا جماعة.. أين هو الآن؟

ـ في بيت حنانيان الحّداد.. هذا أيضاً رأس المقاومة، وكان في المنفى كذلك.

تراكض الناس، والجدّ هاروتيان يصيح:

ـ على مهل.. خذوني معكم.. كنت أحدس أن كسب غير نائمة..

قال الصغير إدفيك:

ـ أعطني يدك يا جدّي هاروتيان.. تريد أن تراه؟

ـ نظري ضعيف يا صغيري.. يكفي أن أسمع صوته، أن أقبله، بطلنا الأرمني هذا!

كان بيت حنانيان قد امتلأ، وكذلك الساحة، لكن الجميع فتحوا الطريق للجدّ هاروتيان، كان يخبط بعصاه ويتقدّم، والطفل إدفيك يقول له:

ـ انتظر يا جدّي! إنه يأتي إليك بنفسه.. ها هو..

فتح الجدّ هاروتيان ذراعيه، عانق «انترانيك»، تلمس وجهه، عنقه، مسح على شعره، قبّله، قبله كثيراً وبكى. . وفي هذه اللحظة دوّى الرصاص، تعالت الزغاريد، تزاحم الناس، وقال الرفيق بوغوص:

- أرجوكم، بعض النظام، بعض الهدوء، كفى إطلاق رصاص يا دكران. . لنستمع للجدّ هاروتيان.

قال هذا بصوت ضعيف:

- الآن، يا ولدي، أموت مرتاحاً!

أضاف:

- كنت معكم بروحي. . أرسلتها لتحرسكم، صلّيت لأجلكم، قلت: يا ربّي، أنا أيضاً أرمنيّ، ويجب أن أفعل شيئاً، وفعلت يا أولادي، الربّ أعطاني القوّة، أنطق لساني، تحدّثت عن أرمينيا، عن تاريخ الأرمن. . وعن المذابح أيضاً. . هذا كلّ ما استطعته. . سامحوني!

انحنى انترانيك، بعفويّة، راح يقبّل يدي الجدّ هاروتيان، اللتين تبللتا بدموعه. ومرّة أخرى دوّى الرصاص، علت الزغاريد، بكت نوبارة اولاً، ثم بعض النساء، وأُدخل الجدّ هاروتيان إلى صدر البيت، يقوده الطفل ادفيك، وهو، الجَدّ، يقول:

- هذا عكّازي! ولكن أين إسحاق حنانيان؟ هذا الحدّاد الماكر،

الذي كنت أخفيه، في مكان ما، من بيتي..

ـ أين أيّها الجدّ هاروتيان؟

ـ هذا سرّ يا ابنائي، من يدري؟

ـ لكن الحرب انتهت!

ـ بالنسبة إلينا لم تنته.. هناك أرمينيا! تذكّروا هذا! نريدها مستقلّة، وعظيمة جداً، كالدول الكبرى، أم أنني أخرّف؟

ـ لا! أنت لا تخرّف، أيّها الجدّ المبارك هاروتيان، أنا، أيضاً، من رأيك.

ـ من أنت، يا ابنتي الصالحة؟

ـ ييرانيك، أيها الجدّ، لكنني غير صالحة تماماً، أشاكس من حين لآخر!

قالت ذلك، وهي تدخل، ثم قبّلت الجدّ، في وجهه، جبينه، يديه، فاحتضنها الجدّ، قبّلها في خديها، وقال:

ـ حنانيان حدّثني عنك كثيراً، قال لي: ييرانيك أرمنيّة صامدة، ترفع الرأس، وعندما سجنوك لم يخف عليك.. قال عنك: سنديانة! من هذه الأرض، ولكن ماذا؟ ظهرتم كلكم فجأة؟ خرجتم من تحت الأرض!؟

قال الرفيق بوغوص:

ـ لم نكن تحت الأرض، أيّها الجدّ، كنا فوقها..

ـ وأحياناً تحتها، هاروتيان يعرف، أنا منكم وفيكم، بودّي، قبل أن أموت، زيارة ييرفان، وتقبيل ترابها فقط.. ولكن أين الكونياك الأرمني يا حنانيان، الاحتفال لا يتم إلا بشم رائحته على الأقلّ!

أجاب بغداسيان:

ـ اطمئنّ، أيّها القرمة أنت، لدينا زجاجات معتقة، محفوظة للاحتفال بالنّصر.. الأرمن أيضاً قاتلوا، بغراميان قاد فرقة كاملة، من أرمينيا إلى ألمانيا، عصا الماريشالية محجوزة له، وعن جدارة.

ـ وأنت؟ ماذا كنت تقود؟

قال بوغوص:

ـ حملة اقتراحات فاشلة! بغداسيان حمانا كلّنا! إنه يرى في الليل، يحسن استعمال السلاح، يعرف الطرقات المجهولة، في الجبل والغابة، وهو ناجح في هذا فقط!

ـ وهذا قليل يا بوغوص.. أشمّ رائحة بسطرمة!

قال حنانيان:

ـ ليتفضّل كلّ الموجودين.. هناك مائدة صغيرة.. ها هي ماراتيان أيّها الجدّ! ينقصنا دكران فقط!

قالت ماراتيان بعد أن قبّلت الجدّ:

ـ أنا معجبة بدكران! كنا في الجبل معاً!

قال الجد وهو ينهض إلى المائدة:

ـ من رأي حنانيان أن تبقيا معاً، ولكن بالحلال، بعد أن يصلّي الكاهن خورين على رأسيكما!

قال دكران من الباحة:

ـ أنا موافق!

قالت ماراتيان:

ـ دعوني أفكّر.. هذا زواج كَنَسيّ، لا يحله إلا الذي ربطه.. ما رأيك أيّها الجد؟ ولكن أين هو!؟

قال حنانيان:

ـ على المائدة، يتذوَّق الكونياك الأرمني.. تفضلوا جميعاً، ولو على الواقف.. على من حضر أن يشرب كأساً، كأساً واحدة على الأقلّ.. هناك النبيذ الأرمني أيضاً، والعرق البيتي، شغل كسب! ماذا تنتظرون؟

دارت الكؤوس في البيت، والباحة، شرب الرجال والنّساء، هتفوا، كأنخاب، لسورية، للجلاء، للاستقلال، للجيش الأحمر، للاتّحاد السوفياتي، ولبغراميان وأرمينيا، ثم تفرّقوا، تدريجياً. وذهب جواد وييرانيك لزيارة المدرسة، وكانت هناك، حفلة صغيرة أيضاً، بعد ذلك زارا العمّ وارطانيان، رئيس البلدية، في بيته، ومن هناك إلى بيت فاهيان، أهل ييرانيك، حيث قُدّمت

الشامبانيا بطقس خاص، وبحضور قره بيت شاهنيان، رئيس حزب الطاشناق في كسب، ووقف الأب، فاهيان، ومعه الحاضرون، رافعين الكؤوس، حول مائدة، قرب البار، وقال الأب:

ـ احتفالاً بالنصر، ستكون هناك حفلة خاصّة كبيرة، تضمّ الجميع، دون استثناء. فالأرمن، مهما اختلفوا، وتباينت وجهات نظرهم السياسيّة، تجمعهم عاصمة واحدة: ييريفان، وحبّ واحد: أرمينيا، وشكر واحد: لسورية وأهلها، الذين لجأنا إليهم في الشدائد، خلال مذابح الأرمن، فكانوا، جميعهم، أهلاً لنا، وفُتحت بيوتهم لاستقبالنا، وتقاسمنا معهم الخبز والملح، وجاء الآن دورنا، نحن الأرمن، لردّ الجميل، بالوقوف مع الحكومة السوريّة الوطنيّة، والشعب السوريّ العربيّ الكريم، لأجل إجلاء جميع القوات الأجنبية عن أراضيهما، وتحقيق الاستقلال الوطني.. لنشرب!

استأذن جواد وييرانيك، بالخروج إلى الشرفة، مروراً بغرف البيت، الناطقة بالترف والذوق والأناقة، إلا أن جواد لم يقل شيئاً، وهذا ما أزعج ييرانيك، التي كانت تنتظر كلمة مجاملة، أما والدها، في الصالون، فقد قال لصديقه قره بيت:

ـ جواد هذا، زميل ييرانيك في المدرسة، محيّر فعلاً! في البدء كانت ييرانيك تتندّر عليه، تتحدّث عن انطوائيته، صمته، خجله، وسلوكه الغريب! كانت تقول: «هذا إنسان يستحقّ ضربة على الأنف!» فجأة انقلب كل شيء إلى عكسه.. صارت

معجبة به، آسفت لأنه سافر إلى فرنسا، للحصول على الدكتوراه في فقه اللغة الفرنسية، تاركاً المدرسة لزميل آخر، من حلب، يجيد الفرنسيّة!

أضاف فاهيان، بعد جرعة من كأسه وسيكارة:

ـ لكن جواد، وهذا اسم مستعار، لم يسافر إلى فرنسا، ظلّ هنا، في كسب، ولكن أين!؟ الشيطان وحده يعرف! عمله في المدرسة كان تمويهاً، لمعرفة كَسَب ومنطقتها معرفة جيّدة.. لماذا؟ لأنه، كما يقال، قاد المنظّمة الحزبيّة في ظروف شديدة التعقيد.. تصوّر بارون شاهنيان، أنه خدع مدير الأمن العام الفرنسيّ، فيليب جوليان، نفسه! عرف منه، قبل الجميع في كَسَب: أن لواء اسكندرونة أُعطي لتركيا، ما رأيك!؟

ـ رأيي أنه إنسان محيّر فعلاً.. مزيّته الأولى أنه منفتح، غير متعصّب حزبيّاً، وقد التقيته في عدّة مناسبات، قبل الاختفاء، فكان يظهر لي مودّة صادقة.. أكثر من ذلك، منع، كما بلغني، أن تقال كلمة واحدة، ضد الطاشناق في احتفالات الانتصار على المانيا.. قال: «هذا زمن التلاحم لا زمن التنابذ، العدوّ ما زال بيننا، القوّات الأجنبيّة لم ترحل عن سوريّة بعد!».

ـ قال القوات الأجنبية إذن!؟ يقصد الفرنسيين والانكليز معاً.. ما رأيك أنت؟

ـ دورنا أن نتريّث، سنرى ما سوف يجد، وفي الأحوال الطبيعية سنكون شهوداً على ما يجري.

ـ وما رأيك في ما قلته؟.

ـ هذا رأيك، بارون فاهيان، ونحن نحترمه!

ـ لكم رأي آخر؟

ـ طبعاً لا! خصوصاً ما قلته عن موقف السوريين من الأرمن خلال المذابح على يد الأتراك.

ـ يمكنني القول إنكم في موقف التربّص؟

ـ لا أنكر هذا، نحن نتريّث، وهذا أفضل لنا..

ـ يقال إن الطاشناق، لم يحتفلوا، بحرارة، بانتصار الحلفاء في الحرب!

ـ نحن لا نحبّذ استغلال المناسبات!

ـ ولكن الانتصار على ألمانيا ليس أيّ مناسبة! إنه حدث عالميّ، بل أضخم الأحداث العالميّة في وقتنا الراهن!

ـ هذا صحيح مبدئياً.

ـ مبدئياً فقط؟

ضحك بارون شاهنيان، وقف وقال:

ـ وماذا تريد أكثر؟ بارون فاهيان!

وقف فاهيان، ضحك بدوره، وقال:

ـ إذا أخذت برأي يبرانيك، أريد أكثر بكثير!

قال شاهنيان بجدّية، وهو يمدّ يده مودّعاً:

ـ بيرانيك ذهبت يساراً أكثر من اللازم! انتبه! تذكّر ما أقول، عزيزي!

وهما على الباب، قال فاهيان، كأنه يستدرك ما فات:

ـ هناك مسألة تحيّرني: كيف صار بارون وارطانيان رئيساً للبلدية، في عهد الدانتزيين والديغوليين معاً!؟

ابتسم قره بيت كالمشفق وقال:

ـ يا صديقي الطيّب! هذه لعبة حنانيان وجماعته.. إنهم أذكى مما تظنّ في السياسة، وفي المرونة السياسيّة، ولا أريد أن أقول أكثر.. إلى اللقاء!

ـ إلى اللقاء قريباً! سأثأر منك في الشطرنج، في أول مباراة بيننا! استعدّ!

ـ أنا مستعدّ دائماً!

ـ في السياسة أم في الشطرنج؟

ـ في السياسة، دورنا ليس الآن!

قال فاهيان:

ـ هذا ما كنت أرغب في سماعه منك!

١٧

لم يتحدّث، جواد وييرانيك، عن حبّهما وهما على الشرفة. كان إحساسهما بالحبّ أكبر من الكلمات التي تعبّر عنه. وضعت ييرانيك يدها على درابزين الشرفة، وضع جواد يده فوق يدها، تأمّلا من مطلّ المنزل، بيوت كسب ذات القرميد الأحمر، تتدرّج، مصعّدة، من أسفل المنحدر الجبليّ إلى أعلاه، ضائعة، متفرّقة، محاطة بالأشجار والخضرة، تضحك، في الحدائق، زهور اللّوز والتفاح، ناشرة، كالبخور غير المرئيّ، شذى هفهافاً، يتضوّع، محمولاً في أثير نسمات رهوة، في فضاء الربى، متسلقاً، من سفح الجبل الذي وراءهما، إلى الذروة، مولوجاً، ثمة، في السحب البيض، ثم العائد، مع الضباب، في الصباح التالي، لينهمر ندى، طراوةً، قرسةَ برد، لاذعةً، منعشةً، مغريةً بالتماس الدفء، في عناق ما، أنفاسه بعض وهم، بعض حقيقة، بعض ارتعاشة، في الجسمين المتّحدين، كاتحاد السرو، الشربين، الصنوبر، الغار، في الغابات المحيطة، التي حدودها حدود تلفت القلب، بعد غياب الديار عن العين.

صمت! صمت! الصمت كلام، رسائل هوى، نجاوى جوى،

التشهّي نداء، خذني! خذيني! إلى أين؟ كيف؟ ولماذا؟ لماذا ينتهي الانفجار الجسديّ، بعد صرخة الآه؟ بعد غروب النظر؟ بعد ارتعادة الوصل، والمرأة تخبط في غيبوبة التلاشي: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.. والرجل يبذر الهوى، قبلات على العنق، من جانبيه، والسرير يتوقّف عن الأنين، الصحوة، العودة إلى الحياة، بعد ذلك الموت اللذيذ، اللذيذ، اللذيذ! اليد فوق اليد، يد بيرانيك، يد جواد، تصوّرات منفردة، مشتركة: لَم لا؟ لماذا ليس الآن؟ الآن؟ الآن!؟ لماذا لا نذهب إلى الفراش، ونشعل فيه النار!؟ لماذا لا نرحل مع الشوق، ونقطع مسافة الحمّى، كي نعود، مع اختلاجات النهاية، نهدهدها، تهدهدنا، وكفّ المرأة، على ظهر الرجل، من فوق، علامة استحسان، في خفقة واحدة، تختصر هذا الكون كلّه؟.

صمت! اليد على اليد، تصوّرات: خذني! خذيني! ليس الآن؟ لماذا؟ لأنه لا يجوز، كيف؟ هكذا! ألسنا طفلين نفعل ما نريد؟ لا! كبرنا قليلاً، تعلّمنا الخطيئة! قتلتنا الخطيئة! لنهرب منها! ولكن إلى أين؟ الخطيئة ليل، كيف نهرب من الليل؟ تدجّنّا! أنت وأنا تدجّنّا.. الحيوانان الاجتماعيان صارا حيوانين أليفين، قصّ الإدراك جناحيهما، غلّ العرف قدميهما، تعلّما في البيت، في المدرسة، في الجامعة، في الشوارع، في الحارات، في البداوة، في الحضر، درساً لا يُنسى، قالوا لهما: يجب ألاّ ينسى، إنه معرفة الخير والشر، هبطا مع آدم وحواء من الجنة، صارا ناموساً على الأرض، من أجل ماذا؟ من أجل الجنّة أيّها العقلاء، وإذا

كنا لا نريد الجنّة؟ من أجل جهنّم إذن! وإذا كنّا في المجانين؟ العرف يشمل المجانين أيضاً! وإذا هربنا؟ أين المنتأى؟ وإذا كسرنا العرف؟ هناك الشرف! وإذا لم نخضع له؟ هذا لا يصير، الشرف على جوانبه الدم!

صمت! اليد على اليد. . بماذا تفكرين؟ بما لا يقال! وأنت؟ بما لا يقال أيضاً! هذا جيد، هذا من الوعي. هناك أشياء كثيرة، أمور كثيرة، نُفكر فيها ولا نقولها، وهذا ما ينبغي! الحزب يقول هذا. الحزب على حقّ في هذا، أنظر هناك، حيث أشير بإصبعي «نظرتُ» ماذا ترى؟ «كنيسة!» ماذا تسمع؟ «رنين ناقوس الكنيسة!» ماذا يقول؟ «كل شيء يعود إليّ، بدءاً وختاماً» أحسنت يا حبيبي! وانتِ، يا حبيبتي؟ الرنين يقول: لا بدّ من مباركة الكنيسة أولاً! أنتِ تقولين هذا؟ المرأة الشرقية، التي في داخلي، تقول هذا، وقولها صحيح: حفظ حقوق المرأة، حفظ حقوق الأطفال، بناء الأسرة، شراكة العمر. . هل نسيت أننا في الشرق؟ تعوّدت، في النضال، تذكّر أننا في الشرق، ولكن ماذا بشأن حبّنا؟ «ما رأيك، يا حبيبتي، أن نتزوج!» «سأفكر في هذا يا حبيبتي!» «ومتى الجواب؟» بعد الاستقلال: تصير الفرحة فرحتين! ليكن!

استدار جواد، استدارت ييرانيك، تماسكا بالأيدي ممدودة، بقيت بينهما مسافة، برقت العيون، تكهرب الجسدان، خفق القلبان، ابتسما، ضحكا، شدّها إليه، قالت:

ـ نسيت أننا على الشرفة، وبيننا مسافة، كلانا ملزم بالمحافظة عليها؟

قال جواد:

ـ وماذا لو قصّرنا هذه المسافة قليلاً؟

ـ قليلاً فقط!

ـ موافق!

ـ وملتزم؟

ـ ملتزم!

ـ ولوقت قصير؟

ـ لوقت قصير!

ـ تعال إلى غرفتي.

ـ وأهلك؟

ـ سنقفل الباب وراءنا.

عندما احتوتهما الغرفة، ارتبك جواد، خاف، ضحكت يرانيك بصوت خافت، قالت له:

ـ ما بك؟ «اليقظة الثوريّة» أيضاً؟

وضع جواد يده على فمه وضحك مثلها، قال:

ـ و«الشرف الحزبيّ» فوق «أيضاً» هذه!

ـ لكننا لن نذهب إلى الفراش.. لا تذهب مع ظنونك بعيداً.. خذني إليك، قبّلني، في الخدّ فقط!

ـ في الخدّ فقط، وبعد هذا الانتظار الطويل!؟

ـ اضغط إذن، كما على النبع، طوّق خصري بزنّار من نار!

ـ ضغط!

همست يرانيك:

ـ اضغط أكثر، بقوة، كما على النبع!

ضغط جواد وقال:

ـ كيف كان على النبع؟

ـ لا أدري.. كان لذيذاً جداً!

ضغط على خصرها بذراعيه الاثنتين، سأل:

ـ والآن؟

ـ لا بأس! ولكن على النبع كان شيئاً آخر، ألذّ!

بحث بشفتيه عن فمها، زاغتْ منه، حاول، تملّصتْ، أمسكها من رأسها براحتيه، شد بقوّة، أطبق فمه على فمها، تذوّق الكرز.. أعطته شفتيها بسخاء، تذوّق الكرز بنهم أكبر، عضّ، غمغمت:

ـ لا! لا تعضّ، أرجوك!

مدّ يده إلى صدرها، مانعت، حاول ثانية، دفعته عنها، ابتعدت، عبست، قالت:

ـ تجاوزت القليل الذي اتّفقنا عليه!

ـ الصُدر كان من ضمن الاتفاق!

ـ أبداً!

ـ كان!

ـ أبداً!

فكّر جواد وقال:

ـ لي أمنية، أمنية واحدة، بشرفي: أن أرى كتفيك ولو من بعيد!

قالت ييرانيك:

ـ وبعد هذه الأمنية تأتي أخرى.. لا تنسى أنك التزمت!

ـ أقسم إنني ملتزم! أقول لك من بعيد فقط..

ـ فقط؟

ـ فقط لا غير!

ـ تذكّر أنني ييرانيك.

ـ وأرمنية جداً!

ـ لا تقترب إذن، ابْقَ حيث أنت، أغمض عينيك!

لم يقترب، أغمض عينيه، انتظر، قالت ييرانيك:

ـ الآن!

فتح عينيه.. رأى كتفين أبيضين، مورّدين، رأى صدراً جميلاً، تمنى أن يرى حبّتي الكرز على النهدين المكوّزين، لكن بيرانيك ارتدت بسرعة بلوزتها، قالت:

ـ لنخرج إلى الصالون فنشرب القهوة!

ـ ووالداك؟

ضحكت بيرانيك وقالت:

ـ خرجا..

أضافت وهي تفتح الباب:

ـ هل خَطَر لك، لو كانا في البيت، أنني أُدخلكَ إلى غرفتي وأقفل الباب!؟

قال جواد:

ـ آه! لماذا مرّ كل شيء كالبرق!؟

ـ لأن حياتنا نفسها.. كالبرق أيضاً!

فكّر «نعم! كالبرق.. لماذا لا نعمّر كلّنا، مثل الجدّ هاروتيان؟» طرح هذه الفكرة بعد قليل، على بيرانيك، وهما يشربان القهوة، قالت:

ـ أنا لا أريد أن أعمّر مثله.. أرغب في الموت، وأنا لا أزال أعشق الحياة!

قال جواد:

ـ سأظلّ أعشق الحياة، ما دمت أعشقك!

ـ وبعد ذلك؟ تنتحر!؟

ـ ولماذا أنتحر وأنا أحبّك، وسنتزوّج؟

ـ نهاية العزوبية، هي نهاية الحبّ في الزواج!

ـ وعندئذ؟

ـ يبحث الرجل عن امرأة أخرى وحبّ آخر..

ـ والمرأة؟

ـ الأمر يختلف غالباً.. حبّ المرأة يتحوّل إلى حبّ أطفال وأسرة وطبخ ونفخ وإنجاب.. ثم الموت الرتيب، رتابة الحياة بعد الزواج، وكذلك الحال في العنوسة، التي يتطاول فيها الزمن، ويُحسّ كدبيب نمل على الظهر.. وفي كل الأحوال، المرأة تنتهي جنسيّاً قبل الرجل بوقت طويل، لذلك يستحسن، في الزواج، أن يكون الرجل أكبر سنّاً من المرأة.

ـ من أين لك هذه الخبرة يا جدّتي؟

ـ من الكتب والناس يا جدّي!

قالا ذلك وضحكا، وفوراً سأل جواد:

ـ لماذا، ونحن في غاية النشوة والسعادة، كنت تردّدين بإلحاح: كما عند النبع!

ـ لأنه كما عند النبع!! هذه هي المسألة!

ـ كنتُ، هناك، أشد استثارة وبهجة؟

ـ أعتقد ذلك!

ـ وما الذي تبدّل، ما دمنا نحن نحن، هناك وهنا؟

ـ الهواء الطلق، الغابة، النبع، القلق.. وأحاسيس أخرى!

ـ هذا طبيعيّ، ولكننا كنا مطاردين!

ـ ولأننا كنّا مطاردين، لم يكن الأمر طبيعياً كما تقول.. في الحياة السرّيّة سحر ما، خاصّ جداً، نفقده في الحياة العاديّة، اللّعنة على الحياة العاديّة! لماذا انتهت الحرب، لماذا؟

ـ وأرواح البشر!؟

ـ وروحي!؟

ـ هذه أنانيّة!

ـ وذاتيّة!

أضافت ييرانيك:

ـ أنا لا أحبّ الحياة موضوعيّة تماماً.. تصبح، عندئذ، مملّة!

قال جواد:

ـ لا موضوعيّة بغير ذاتيّة، والعكس صواب أيضاً!

ـ وبذلك تستوفي الجدليّة شروطها!

- هل نلغي الجدليّة لأجلك؟

- من قال هذا؟ المسألة، يا جواد، أن المنطق جلْد الإنسان، والإنسان يودّ الخروج من جلده، الحين بعد الحين! لا تقل لي: «هذا طبيعي!» قل كلمة أخرى، تؤدّي نفس المعنى، إلاّ أنها كلمة أخرى! ما يغيظني في الرفاق، أن قاموسهم اللغويّ بحجم دفتر، في مدرسة ابتدائيّة! هل يرضيك هذا؟ ستقول: «لا!» وهذه الـ«لا!» مثل «نعم!» لنبحث عن بديل لهما، في «باطل الإباطيل! الكلّ باطل، الكل قبض الريح!» علتنا، أنا وأنت، والرفاق معنا برمّتهم، اننا لم نحاول، يوماً، أن نقبض على الريح! مع أن ذلك يستحقّ عناءه!

قال جواد:

- افترضي، مجرّد افتراض، أن الجيش الأحمر، سواء في الدفاع أو الهجوم، ترك السلاح وفتح كفّه ليقبض على الريح، التي أنت مغرمة بها! ماذا كان يحدث؟

ردّت يرانيك بحدّة:

- الهزيمة! هل هذا يحتاج إلى سؤال؟ لماذا الأسئلة البدهيّة، إذا كانت أجوبتها ستكون بدهيّة؟ الجيش الأحمر، يا رفيق جواد، كان يقاتل، كان يحارب، كان في قميص المغامرة، وهذه كلها أمور غير عاديّة، وما أتكلم عليه، أنا، هو العاديّة! هذه صخرة على الصدر، لنجرّب أن نزحزح هذه الصخرة، لنتنفّس قليلاً، لنستنشق الهواء النقيّ قليلاً، وهذا من حقّنا..

قاطعها جواد:

- ليس من حقّنا الآن! أكرِّر: ليس من حقّنا الآن! أما في المستقبل، بعد المعركة القادمة، فإنه يصبح من حقّنا تماماً.. لست متزمّتاً أو صارماً كما يصوّر لك الوهم، لكنني قياديّ، مسؤول، وأنت مثلي، والفارق في ثمرة المشمش: نقطفها فجّة أم ناضجة!؟

أضاف:

- أعذريني يرانيك، لنتكلم كرفاق، بصراحة كاملة: لو نمت معك في الفراش، كنت أنت، الآن، في الفراش، مسترخية، نائمة، تحلمين أحلاماً عذبة، ذهبيّة، وعندما تستيقظين، كنت تتثاءبين، تتمطّين، تتذكّرين، تبتسمين، بكلمة: تكونين ريّانة، تلملمين عن شفتيك بقايا رحيق، ترين نفسك، أنت أيضاً، غير عاديّة، وأنك نشيطة، تخفّفت من الكبت، أفرغت طاقة حبيسة في داخلك، تعذّبك حين لا يكون هناك بديل عنها، وما هو البديل الذي كان؟ النضال السرّيّ، بحر الليل، جنون الريح، لذعة البرد القارس، السير ضدّ التيار، في مواجهة عاصفة شديدة، إعصارها الخوف، وميضها القلق، مطرها البلل، مجالها الغابة، ثم تشرق الشمس، مع الفوز بالمهمّة، ويأتي الفرح، الراحة بعد العناء، إشعال النار من حطب وفير، الشرب، حتى ذهاب الظمأ، من النبع، التزنّر بذراع الحبيب، السير معه حتى الضياع، افتراع الخضرة، وأخيراً فضّ بكارة الغابة، أو الجبل، أو البحر، وهذا كله لذيذ، لأنه جديد، ومع الجدّة تنتفي

العتاقة، وبانتفاء هذه تنتفي العاديّة، يكون التخاطر، التغامر، الإحياء، الانبعاث، وبعد ذلك العيش على حافة الخطر، وبعد معاينة الموت وجبهه، وبعد الانتصار عليه، هذا الانتصار الذي يدغدغ مكامن اللّذّة في جسم الإنسان والحيوان على السواء، بعد ذلك نصبح سعداء جداً. . ذنبي، يا رفيقة يبرانيك، أنني احترمت الرفاقيّة فيك، لم أكن عنيفاً، أو متوحّشاً، أو مفترساً، أو مغتصباً، وبتعبير آخر، لم أرضكِ حتى ولو بالقوة!

ابتسمت يبرانيك: «جواد هذا يَفْهم!» ولكن:

- أنت، يا جواد، حبيبي، أنت طيّب، وأنت حازم، وقد عرّفتني بنفسي، إلا أنني، برغم كل شيء، أفرّق بين الواجب وغير الواجب! أنا أحب الرفيق حنانيان، لأنه متميز، وأقدّر الجدّ هاروتيان، لأنه متميّز أيضاً، ولا أتضايق من عدم انضباطيّة دكران، لأنه مغامر على طريقته، وشجاع على طريقته، وأكنّ احتراماً للعمّ وارطانيان، بسبب من صدق أرمنيّته: فتح بيته للمهجّرين الأرمن، بذل المال، قدّم الطعام، قَبِلَ أن يكون رئيساً للبلدية، بطلب منا، ومتى؟ زمن الدانتزيين؟ كان يمالئهم بالظاهر، لكنه، في الباطن، كان يخفي الرفاق الملاحقين في دهليز قبو البلديّة، ويعرف، بحكم عمله، اخباراً لا نعرفها، فيوصلها إلينا سراً، لنكون على اطلاع مسبق، حول تحركات الدانتزيين في كسب ومنطقتها، وحتى في محافظة اللاذقيّة كلها. . انظر جواد، هؤلاء الناس ارتاح إليهم، ويمكن أن أتحمل غيرهم، وأنا أقيم علاقات رفاقيّة، طيبة، صادقة،

نزيهة، مع أغلبية الرفاق، غير أن الذين يضايقونني، يجمدون دمي، كقطع الثلج المحفوظ جيداً للصيف، هم أولئك الذين يرذّونك بلعابهم، الذين يمطرونك بوابل من المواعظ التافهة، والعبارات الجاهزة، وكليشيهات قال: ماركس! قال: انكلز! قال: لينين، أو يكثرون من عبارات التملق «كما قال الرفيق فلان!» «وكما تنبأ الرفيق علتان» و«كما لاحظ الرفيق الأمين العام» و«كما تنبه الرفيق عضو المكتب السياسي إلى ما حدث قبل أن يحدث!» أو الذين يخلطون، دون مبرر، بين الفلسفة والاقتصاد و«كيريالايسون!» فيتكلمون على «نفي النفي» وعلاقته بالبخار، أو «التحوّل النوعي» وأثره في «المثالية الهيغلية» ومَنْ أوقف مَنْ على قدميه، بعد أن كان واقفاً على رأسه! ويحددون «العهد الأمومي» بتاريخ حلق شوارب الرجل، في المرحلة المشاعية الأولى، أو الذين يضعون أصابع يدهم اليمنى، في بطن يدهم اليسرى، للتعبير عن نقطة نظام، لمجرد أن جوريس استعمل هذه الحركة في وقت من الأوقات، أو يقولون: «غداً كريف» بدلاً من «غداً اضراب» أو يصرون على تدوين كلامهم حرفياً في «محضر الجلسة» مع أنهم لم يقولوا شيئاً سوى كلمة «الديسبلين» التي رددوها عشر مرات، في عشر دقائق، هي مدة الجلسة كلها! وهناك رفيق نموذج، يوقفك في الطريق وتحت المطر، ليشرح لك فكرته، وتتبلل ثيابك حتى العظم، وفكرته «الجهنميّة!» لم تنته، لأنه يتكلم على اللغة، صرفاً ونحواً، مروراً بأصول زراعة البطاطا، وصولاً إلى فقه القانون، ودلالة «ما بني على فاسد فهو فاسد» ويكون قد دخل في كلامه من

«الفرنلق»[1] فإذا به يخرج من «قَرَهْ ضاغ»[2] فإذا تأففت رماك بتهمة «فقدان النَفْس الثوري الطويل!».

قال جواد:

ـ أنا، الحمد لله، من أصحاب النَفَس الثوري الطويل جداً، بدليل أنني لم أقاطعك مرة واحدة!

قالت ييرانيك:

ـ أنت حبيبي، وكنت موافقاً على كل كلمة قلتها..

ـ بطريقتك الفظيعة في «النقد البناء» و «التناقضات التناحرية!» و «التناقضات الثانوية!؟».

قالت ييرانيك:

ـ والله هذه فاتتني، لك مكافأة!

هتف جواد:

ـ ما هي!؟

ـ لا تحلق مع الخيال بعيداً.. وقت القُبَل انتهى.. المكافأة، كأس من الكونياك.. الارمني! ومن يدي بالذات!

---

(١) مكان على طريق كسب.

(٢) الجبل الأسود في يوغسلافيا.

١٨

ـ وأخيراً، أيها الرفاق الأعزاء، حل موعد الرحيل! لقد تقاسمنا الرغيف الواحد، والغطاء الواحد، والكأس الواحد: بحلوه ومرّه، وجاء اليوم المنتظر: يوم الجلاء العظيم، الذي احتفلنا به اليوم، ١٧ نيسان ١٩٤٦، وسنحتفل به، في مثل هذا اليوم من كل عام، في وطننا أرمينيا، نحن رفاقكم، اخوتكم، المسافرين بعد سنين طوالٍ من الصبر، والكفاح، والترقب، والحنين! أذكرونا إذن! سامحونا، اعذرونا على التقصير والخطأ، فليس من انسان يعمل ولا يخطىء، يعمل ولا يقصّر، ومهما يكن، مهما نعاني، فإن علينا أن نبني أرمينياالجديدة، السيدة، المستقلة، العظيمة، بتاريخها وشعبها، وأحسب أنني أتكلم باسم جميع المسافرين مثلي إليها!

كان الرفيق حنانيان يقف ويتكلم، في آخر اجتماع يحضره مع رفاق وأصدقاء منطقية كسب، وكان يضغط على أعصابه، يضغط كيلا يضعف، كيلا يتحيّر الدمع في عينيه، كيلا يتلجلج صوته، كي يقول: وداعاً، وهو ثابت الجنان، على نحو ما يليق برجل مثله، صامد، عنيد، مقاوم، صاحب مبدأ، له، هنا، ذكريات! وذكريات! وذكريات!

بعد ذلك قال: ورشة الحدادة لن تغلق، لن تباع، إنني أمنحها، هدية متواضعة، مني لحزبي، على أن يديرها، من بعدي، الرفيق نوبار! شكراً، وداعاً لكم، ولسورية، ولكسب الحبيبة!

نهض الرفاق وقوفاً، صفّقوا، بكى بعضهم، بكى دكران نفسه، بكت نوبارة والآخريات. تقدم جميع الحاضرين، كل بدوره، يعانقه، يضمه، يقبله، يشد على يديه. وبعد ذلك جلس حنانيان، أشار إلى الكل أن يهدأ، أن يجلس أو يظل واقفاً، وبصوت وقور، آتياً من بعيد، من وراء السنين، قال:

- الآن أفتتح الجلسة، أعطي رئاستها للرفيق بدروس قره بتيان، بأعتباره الأكبر سناً!

صاح بدروس من مكانه حول الطاولة:

- والأكثر شباباً!

صفق الحاضرون، انفرج الجو، عاد المرح، قال رئيس السن:

- الكلمة للرفيق بغوص ستركيان، مع رجاء الايجاز، حتى نعطي الدور، لِمَنْ يرغب، من الحاضرين في الكلام:

قال الرفيق بوغوص:

- توقعنا للمعركة مع الفرنسيين، كان في موضعه، لكننا لم نتصور أبداً أن هذه الوحشية تصدر عنهم! كنت في دمشق، مندوباً عنكم، وهناك شهدت الهول: قصف دمشق، ومعركة، أو مجزرة البرلمان. عشرات القتلى، وبينهم رفيقنا «الطيب شربل»

رئيس مفرزة الدرك في البرلمان، التي قاومت ببسالة، لكن الفرنسيين خسروا كل شيء، منذ الطلقة الاولى: عهدهم، قرارهم، وسمعة «فرنسا الحرة» أيضاً! وبعد أيام، واثر المقاومة المسلحة، من أفراد الشعب كله، وبينهم رفاقنا بطبيعة الحال، توقف القتال: كان هناك ضغط خارجي عليهم، من الاتحاد السوفياتي، وضغط داخلي، من الضباط والجنود الوطنيين في جيش الشرق، الذين فروا بأسلحتهم والتحقوا بالمقاومة، وضغط، وحتى تدخل، من الانكليز، بأمر من الجنرال سبيرس، الذي زعم أنه هو الذي ردع الفرنسيين!

تابع الرفيق بوغوص:

حاول الإنكليز، طبعاً، اللعب على الحبلين، لكن رأي قيادة حزبنا أنهم لم ينجحوا، ولن ينجحوا، إذا ما تمسكت سورية، حكومة وشعباً، بجلاء كل القوات الاجنبية عن أراضيها، وفي هذا معنا الاتحاد السوفياتي، قوى الحرية في العالم، وميثاق الأمم المتحدة، وكذلك مجلس الأمن.. المعركة بدأت في ٢٩ أيار ١٩٤٥، وعيد الجلاء الذي احتفلنا به كان أمس، في ١٧ نيسان ١٩٤٦، شكراً.

- الكلمة للرفيقة ماراتيان.

قالت:

- لديَّ سؤال موجه إلى الرفيق حنانيان: لماذا تسافر في هذا الوقت المبكر إلى أرمينيا؟ ومتى يبدأ سفر الذين قرروا الرحيل؟

قال حنانيان مازحاً:

ـ لن أسافر قبل أن أشهد عرسكما: أنتِ ودكران! سأشرب كثيراً بهذه المناسبة، وإذا نفدت الخمرة الجيدة، تضعين اصبعك في الماء، فيتحول إلى خمرة أجود، كما في عرس قانا الجليل... ثم من يدري، فقد أرقص أيضاً، الرقصة الأرمنية الخاصة بمثل هذه المناسبات السعيدة..

قالت:

ـ هل هذا وعد؟

ـ وهل فكرتِ، أنتِ ودكران، وصار الاتفاق؟

ـ ماذا نفعل، قال لي دكران: أحبك يا ماراتيان، يا روحي!

ـ وصدقتِ أنت!

ـ المرأة تحب أن تسمع مثل هذه الكلمات الحلوة، وقد قالت لي أمي: «هذه المهرة تليق بهذا المهر!»، وقال لي دكران: «هذه حكمة!».

قال حنانيان:

ـ كان بودي، أيها الرفاق، أن أشهد هذا العرس، فقد مضى زمن طويل ولم نشهد اعراساً بزمر وطبل، هنا في كسب!

قالت ماراتيان:

ـ أي زمر وطبل رفيق حنانيان؟ دكران وعدني بإحضار فرقة موسيقية من حلب!

- هكذا إذن؟ هذا جيد، ولكنني، أنا، مسافر هذا الاسبوع، سأكون هناك بشكل دائم، لإعداد تنظيمات السفر، واستقبال بواخر القادمين الأرمن، عند وصولها، والسهر على راحة هؤلاء القادمين، وترتيب شؤونهم!

- ومتى يبدأ سفرهم؟

- ليس قبل خريف ١٩٤٧، أي بعد الانتخابات التي ستجري في تموز من هذا العام، كما هو مقرر، إذن انتخبوا المرشحين الاكفياء، الجيدين، الذين تقرر قيادة الحزب دعمهم. . إذا لم يكن هناك مرشحون حزبيون. . أضاف: جاءني، الآن، الخبر التالي، من العم وارطانيان: تقيم بلدية كسب، في الثامنة هذا المساء، حفلة ألعاب نارية، وحفلة راقصة مع الموسيقى في باحة البلدية، إحتفالاً بالجلاء، وستكون هناك مظاهرة ابتهاج، في الساعة السابعة، مع المشاعل! انتهى الخبر، وهو تبليغ لكل منا، كي نشارك، على أوسع نطاق، في هذه الاحتفالات، لكن إطلاق الرصاص ممنوع يا دكران. . هل سمعت؟

قال دكران:

- هذه نتركها لوقتها بارون حنانيان. . دكران والآخرون سيحتفلون على طريقتهم، وبتنظيم أشرف عليه بنفسي!

قال رئيس الجلسة:

- يا فرحتنا إذن! الكلمة للرفيق نوبار.

قال نوبار بعد أن تنحنح:

ـ أنا حداد كما تعلمون، لا أعرف كيف أعبر عن مشاعري، إنني حزين وفرح: حزين لفراق أبي ومعلمي وكل شيء بالنسبة إليَّ: الرفيق حنانيان، وفرح لأنه يعود إلى أرمينيا: أمنا جميعاً! هذا من جهة، ومن جهة أخرى، شاءت المصادفة أن أكون في دكان قريبي سركيس، في حارة القلعة باللاذقيّة، عندما انفجرت المعركة، في يوم قصف البرلمان بدمشق: فجأة علت صيحات: الله أكبر! وخرج الناس من دكاكينهم، حاملين المسدسات، العصي، قضبان الحديد، الرفوش، المناجل، لقتل الفرنسيين العائدين، من أطراف المدينة، إلى الثكنة، في أعلى حارة القلعة.. وجدت نفسي مندفعاً، مثل غيري، لخوض المعركة التي انتظرناها.. كان الرصاص يلعلع، من الثكنة ومن شوارع المدينة، وكان مسدسي معي.. الدماء غطّت الطرقات.. تقولون: يوم القيامة؟ أكثر! بقينا نقاتل حتى الليل، كان الرصاص يطلق من نادي الفرنسيين، مقابل بناء البلدية، صعدنا الدرج، آخرون وأنا، تقدم شاب لإلقاء قنبلة داخل النادي، أردته رصاصة من الداخل، عندئذ تقدم شاب آخر، ودوّى انفجار القنبلة، وعلا الدخان! في اليوم التالي سمعت: أبو حليمة ورجاله، قطعوا طريق حلب، عند كوع السفكون، أبادوا النجدة الفرنسية المتجهة إلى «جسر الشغور»، وأخذ الضباط والجنود يهربون بأسلحتهم، من الجيش الفرنسي، ملتحقين بالجيش السوري، الوطني.. هذا كل ما عندي، مع ملاحظة أن ما حدث في اللاذقية، حدث مثله وأفظع في كل المدن والبلدات السورية، وهنا، في كسب أيضاً، لكن الكابتن برنار، قائد المفرزة الفرنسية، رفع الراية البيضاء، من اللحظة الاولى!

أخذ الكلام الرفيق جواد، قال:

ـ سأحصر كلامي، أيها الرفاق والأصدقاء، في الناحية السياسية: تعلمون أن سورية رفعت شكوى إلى مجلس الأمن، ضد العدوان الفرنسي الغاشم، مطالبة بجلاء القوات الأجنبية عن سورية، وخصوصاً القوات الفرنسية، تنفيذاً لقرار الجنرال كاترو، وتعهد الجنرال ديغول، باسم «فرنسا الحرة» عند نهاية الحرب العالمية الثانية، التي مضى على انتهائها عام وأكثر.. تنبهت قيادة الحزب إلى ما يدبر في الخفاء، بين أعضاء في الكتلة الوطنية الحاكمة، وبين الجنرال سبيرس، قائد القوات الانكليزية في سورية. إن كلمة «خصوصاً القوات الفرنسية!» ذات دلالة، فبعد الإطلاق جرى التخصيص في الشكوى، كما قرأت في الصحف العربية والأجنبية، فلماذا؟ كانت إحدى صحف الكتلة الوطنية قد نشرت إفتتاحية، منذ شهور، تحمل هذا العنوان: «رب أخ لك لم تلده أمك!» وكانت تقصد بهذا «الأخ» الجنرال سبيرس، كما جاء في متن الافتتاحية، وقد ردت عليه صحيفتنا «صوت الشعب»، بسلسلة تعليقات، كتبها الرفيق نجاة قصاب حسن، كرسائل من دمشق، بعنوان «العائد من لندن!» لأن كاتب الافتتاحية كان عائداً، مع وفد صحفي من الكتلة الوطنية، من زيارة لندن!

هذا مثال، طبعاً، من جملة أمثلة، وكانت قيادة حزبنا تتابع الاحداث بدقة، وقد تنبهت، في وقت مبكر، إلى هذا الذي يجري في الخفاء، فبعثت بوفد إلى باريس، لإطلاع الرأي العام العالمي على وحشية العدوان الفرنسي على سورية، وعلى اعتقال

أعضاء في الحكومة الوطنية اللبنانية، ووضعهم، قيد التوقيف في بلدة راشيا، في وقت سابق، وفوراً نشرت جريدة «الاومانيتيه» سلسلة مقالات، تكشف فيها اللعبة المدبرة، وفعلت مثلها صحف يسارية صديقة للشعبين السوري واللبناني. ومن هناك، أي من باريس، توجه بعض رفاقنا إلى نيويورك، ليكونوا على مقربة من المندوبين السوريين، أثناء بحث الشكوى السورية.. وبعد عدة جلسات، ومناقشات حادة، اقترحت الحكومتان: الفرنسية والبريطانية، إجراء مفاوضات جديدة، حول جلاء القوات الأجنبية من سورية، وتالياً من لبنان. ومن عجب أن الوفد السوري في مجلس الأمن وافق، اثر تعليمات من الحكومة السورية، أي حكومة الكتلة الوطنية، على إجراء هذه المفاوضات، التي نص عليها القرار المقترح والمشترك، بإيعاز من باريس ولندن، إلا أن المندوب السوفياتي، في مجلس الأمن، استخدم حق النقض (الفيتو) معلناً أن قرار الجنرال كاترو ملزم، وعلى القوات الفرنسية المحتلة، ومعها القوات الانكليزية الموجودة تبعاً، أن تنسحب فوراً، خلال مدة قصيرة محددة، وهكذا كان.. وها نحن نحتفل اليوم، ١٧ نيسان ١٩٤٦، بعيد الجلاء، وسيحتفل به لبنان أيضاً، في تشرين القادم.

أضاف الرفيق جواد: هذا إيضاح موجز، للملابسات السياسية، التي رافقت الأحداث في الأشهر الأخيرة، وما أظن أن لدينا وقتاً للإطالة، لأن علينا، بعد قليل، أن نتوجه إلى دار البلدية، للمشاركة في أفراح الجلاء، وقيادة الاحتفالات به، مع القوى الارمنية والوطنية الأخرى.

بعد أن هدأت موجة التصفيق، قال رئيس الا جلسة، بدروس قره بتيان:

ـ بعد أسبوع أو أكثر قليلاً، نجتمع لانتخاب رئيس أصيل لمنطقية كسب، وإنني، باسمي الشخصي، وبصفتي رئيس السن لهذه الجلسة، في هذا اليوم المجيد، وباسم الرفاق القياديين الحاضرين: أرشح الرفيق جواد..

علت أصوات:

ـ الرفيق انترانيك!

ـ.. الرفيق انترانيك لرئاسة اللجنة المنطقية في كسب!

دوّى تصفيق شديد من الحاضرين، تابَعَ، بعده، رئيس الجلسة الكلام قائلاً:

ـ ولأن الضرورة..

رفعت بيرانيك يدها، تطلب الكلام قائلة:

ـ دقيقة واحدة أيها الرفاق! لقد عملت معكم، وبينكم، سنين طويلة، وكنت..

أصوات:

ـ على قدر المهمة وأكثر، أيتها الرفيقة العزيزة بيرانيك.

ـ شكراً! شكراً! ومن الأعماق.. كسب في القلب: ترابها، جبالها، غاباتها، بحرها، برّها، غارها وكل شيء فيها! انها، كسب، في قلبي، وقبل كل ما ذكرت، أنتم أيها الرفاق، وأيها الأصدقاء، الأعزاء جميعاً، أنتم في قلبي، وقد فكرت، طول

أسبوع وربما أسابيع، بواجبي كرفيقة، وبعد أن حضرت معكم الفرحتين:

فرحة انتهاء الحرب العالمية الثانية، وفرحة الجلاء العظيم قررت. .

أصوات:

ـ ماذا قررت!؟ أن تتخلّي عنا!؟

قالت من بين دموعها:

ـ قررت أن أختار بين حبي ووطني، فاخترت وطني: أرمينيا! إنني مسافرة إليها مع الرفيق حنانيان!

جلست بيرانيك، قال الرئيس:

ـ إنني أرفع الجلسة، للمشاركة في الاحتفالات!

نهض الجميع، صفقوا، خرجوا، خرجت بيرانيك معهم، لم يبق في القاعة إلا اثنان: جواد وحنانيان. قال هذا الأخير، وهو يضم جواد بين ذراعيه:

ـ لا بأس يا ولدي! حكم القدر!

ـ وهل كنت تعرف!

قال حنانيان:

ـ نعم! كنت أعرف!

ـ إذن أنا عائد إلى اللاذقيّة!

بودابست ٢٠ أيلول ١٩٩٧

ـ انتهت ـ

مؤلِّفات حنّا مينة

المصابيح الزرق
الشراع والعاصفة
الثلج يأتي من النافذة
الشمس في يوم غائم
الياطر
بقايا صور
المستنقع
القطاف
الأبنوسة البيضاء
المرصد
حكاية بحّار
الدقل
المرفأ البعيد
الربيع والخريف
مأساة ديمتريو
حمامة زرقاء في السحب
نهاية رجل شجاع
الولاعة
فوق الجبل وتحت الثلج
الرَّحيل عند الغروب
النجوم تحاكم القمر
القمر في المحاق
المرأة ذات الثوب الأسود
حدث في بيتاخو
عروس الموجة السوداء
المغامرة الأخيرة
الرجل الذي يكره نفسه
الفم الكرزي
حارة الشحادين
صراع امرأتين
ناظم حكمت: السجن، المرأة، الحياة
ناظم حكمت ثائرًا
هواجس في التجربة الروائية
كيف حملتُ القلم؟
البحر والسفينة... وهي!
حين مات النهد
شرف قاطع طريق

دار الآداب
هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨
ص ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت
تصميم الغلاف رعم الجندي